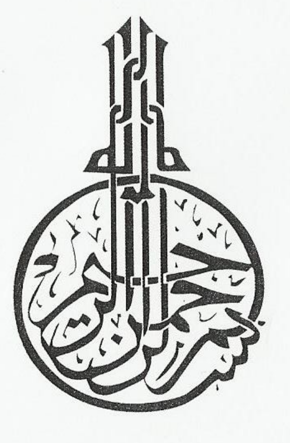

الثقافة الإسلامية
المستوى الرابع
أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية
إعداد
د. سعيد بن ناصر الغامدي
د. علي بن عمر بادحدح
مراجعة
د. سعيد بن أحمد بن علي الأفندي
د. موفق بن عبدالله بن علي كدسة
الإشراف العام
د. علي عمر بادحدح



جامعة الملك عبدالعزيز
الثقافة الإسلامية
المستوى الرابع
أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية
إعداد
د. سعيد بن ناصر الغامدي
د. علي بن عمر بادحدح
مراجعة
د. سعيد بن أحمد بن علي الأفندي
د. موفق بن عبدالله بن علي كدسة
الإشراف العام
د. علي عمر بادحدح
دار حافظ للنشر والتوزيع
الثقافة الإسلامية
٢٨ ريال



الثقافة الإسلامية

المستوى الرابع

أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية

إعداد

د. سعيد بن ناصر الغامدي　　　د. علي بن عمر بادحدح

مراجعة

د. سعيد بن أحمد بن علي الأفندي

د. موفق بن عبدالله بن علي كدسة

الإشراف العام

د. علي عمر بادحدح

ⓒ دار حافظ للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، سعيد ناصر
الثقافة الإسلامية المستوى الرابع: أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية / سعيد ناصر الغامدي؛ علي عمر بادحدح - جدة، ١٤٣١هـ
٢٢٤ص؛ ٢٤ سم
ردمك: ١-٠٦-٨٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨
١- الثقافة الإسلامية أ. بادحدح، علي عمر (مؤلف مشارك)
ب. العنوان
ديوي ٢١٤   ١٤٣١/٨٥٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣١/٨٥٥٥
ردمك: ١-٠٦-٨٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



الإدارة: جدة - حي الجامعة - شارع عبد الله السليمان - أمام كلية الهندسة
ص.ب: ٢٩٧٣ - جدة: ٢١٤٦١ هاتف: ٦٨٧٠٥٨٤ - فاكس: ٦٨٩٥٤٩٢ - ٦٨٧٨٧٩٨
المركز الرئيسي: شارع عبد الله السليمان - أمام كلية الهندسة - هاتف: ٦٨٠٢٨٨٤
فرع (٢): شارع الجامعة - أمام دوار الجامعة - هاتف: ٦٨٧١٤٠٠
فرع (٣): السليمانية - شارع عبد القدوس الأنصاري - بجوار بوابة الجامعة الشمالية رقم٤ هاتف: ٢٥٤٢٢٢٤
فرع (٤) جامعة الملك عبد العزيز (طلاب) غرب كلية الآداب هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة: ٦٥٨٠٩
فرع (٥) حي الصفا شارع الأربعين هاتف: ٦٩٤٧٨٣١ - فرع (٦) شارع حراء غرب دوار التاريخ هاتف: ٦٩٩٨٤٤٨
www.darhafiz.com
webmaster@darhafiz.com



كلمة المشرف العام

الحمد لله العزيز الغفار، والصلاة والسلام على النبي المختار، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وعلى من تبعهم واقتفى أثرهم وعلى دربهم سار، وبعد:

فها نحن نقدم كتاب (أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية) ليحتل مكانه في بناء الثقافة الإسلامية لطلابنا، للعناية بجانبين مهمين في تكوين الشخصية الإسلامية وهما الخُلق والعمل.

إن التحلي بالأخلاق الفاضلة ركيزة أساسية في بناء المسلم، وقد اعتنى الإسلام بالأخلاق عناية فائقة، وربطها بالإيمان والعبادة، وأكد على لزومها في شتى مناحي الحياة، وبما أننا نشهد - في الواقع المعاصر - أزمة أخلاقية كبرى فإننا مدعوون إلى العمل الجاد لمعالجة هذا الضمور الأخلاقي؛ تمكيناً وتثبيتاً للأخلاق الفاضلة في سلوك طلابنا، وتحصيناً لهم من رذائل الأخلاق التي تحيط بهم بشكل عام، مع التركيز على التزام هذه الأخلاق في مجالات العمل والمهن المختلفة.

وشبابنا اليوم في حاجة إلى تقدير قيمة العمل، والجد في هذه الحياة، والتخلي عن اللامبالاة، وضعف تحمل المسؤولية الذي سرت بعض مظاهره في صفوفهم، ومن هنا جاء الكتاب لبيان شرف العمل وإظهار صلته بالعبادة والحضارة، صلة بالله، وإعماراً للحياة؛ حتى تصحح النظرة، وتقوى الفكرة، وتظهر القوة، وتتقدم القدوة.

والجمع بين الأخلاق والأعمال، مع ربطها بالواقع المعاصر في المهن المختلفة، والوزارات والشركات على اختلاف تخصصاتها، هو جوهر مادة الكتاب التي جمعت بين الأصالة والمعاصرة، ومزجت بين التاريخ والواقع، وقدمت روائع حضارتنا الإسلامية مع تطورات الحضارة العصرية.

وهذا الكتاب كتاب جامع لعموم (أخلاق المهنة)، وستتلوه كتب متخصصة في أخلاق مهن متنوعة

بحسب الكليات والتخصصات المختلفة، فستصدر - بعون الله - كتب على النحو التالي:

١- كتاب خاص بـ (أخلاق المهن الصحية) لطلاب كليات الطب، الأسنان، الصيدلة، العلوم الطبية.

٢- كتاب خاص بـ (أخلاق المهن الاقتصادية والإدارية) لطلاب كليات الاقتصاد والإدارة.

٣- كتاب خاص بـ (أخلاق مهن العلوم الإنسانية) لطلاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

٤- كتاب خاص بـ (أخلاق مهن العلوم التطبيقية) لطلاب كليات العلوم، الأرض، البحار، البيئة، الحاسب الآلي.

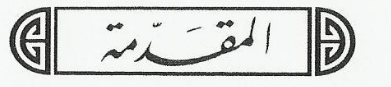
٥- كتاب خاص بـ (أخلاق المهن الهندسية) لطلاب كليات الهندسة والعمارة.

وبصدور هذه الكتب قريباً - بإذن الله - سنكون أكملنا لبنات البناء على نحو تخصصي دقيق ربما يكون غير مسبوق في التعليم الجامعي.

وختاماً نسأل الله أن يكتب الإخلاص والقبول، وأن يعين على إتمام ما بقي من الكتب على النحو المأمول.

المشرف العام

د. علي عمر بادحدح



الحمد لله الذي دعا إلى الخلق القويم، ووعد عليه بالأجر العظيم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم صاحب الخلق الأعظم، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فبعد طول انتظار ها نحن نقدم لطلابنا كتاب (أخلاق المهنة أصالة إسلامية ورؤية عصرية) ليكتمل عقد مقررات الثقافة الإسلامية بهذا الكتاب المقرر للمستوى الرابع، الذي يتمم المنظومة الثقافية الإسلامية للطالب الجامعي، حيث اختص المستوى الأول بالموضوعات الأساسية (الثقافة - العقيدة - العبادة)، وكان التركيز في المستوى الثاني على (القرآن الكريم - السنة النبوية) من خلال المعلومات التعريفية والواجبات الشرعية المتعلقة بهما، وجاء المستوى الثالث لينتقل من دائرة التكوين الذاتي إلى المشاركة الاجتماعية الواسعة مبتدئاً بالأسرة التي يكونها، ومتفهماً للمجتمع الذي يعيش فيه، ومنتهياً بالآفاق العالمية وصلته بها فكراً وممارسةً، ومع قرب تخرجه وانخراطه في سوق العمل يأتي هذا المقرر ليكرس أهمية الأخلاق، ويبرز مكانتها في الإسلام، ويبين شموليتها في جوانب الحياة، ثم يوضح النظرة الإسلامية الرائعة للعمل بمجالاته المتنوعة وامتداداته الواسعة، ثم يعطي مساحة مركزة للتعريف بأخلاق المهنة في واقعها المتطور المعاصر، وفي تاريخها الإسلامي الزاهر، ويعرض - بعد ذلك - الأخلاق الأساسية اللازمة في بيئة الأعمال والمهن على اختلاف أنواعها، مستنبطة من كتاب الله، ومدعمة بالشواهد من سنة وسيرة رسول الله ﷺ، مع الربط بالواقع مقارنة وتصحيحاً، ليكون مسك الختام مختصاً بالطريق إلى تحقيق أخلاق المهنة في واقع الحياة، من خلال أساليب نظرية وعملية تعين على الانتقال من التنظير إلى التطبيق.

وفي هذه المقدمة نشير إلى أبرز المعالم التي استهدفناها من هذا المقرر وهي:

١- تقديم الأخلاق والأعمال في إطار رؤية إسلامية أصيلة تبرز المزايا المنهجية وتعرف بالثمار الواقعية.

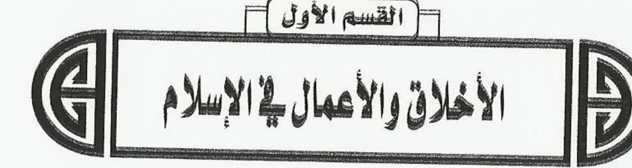
٢= التأصيل الإسلامي من مصادره الأصيلة للمفاهيم والمبادئ العصرية المتصلة ببيئة الأعمال والوظائف والمهن في جانبها الأخلاقي والاحترافي.

٣= الاقتباس لمصطلحات ومفاهيم الإدارة الحديثة وأطروحاتها في مجالات الأخلاق الوظيفية ومواثيق المهنة، وتوظيفها منهجياً وثقافياً بما يحقق المواكبة والمعاصرة للعلوم الحديثة، وربطها بالثقافة الإسلامية، بما في ذلك أقوال العلماء المتخصصين من غير المسلمين.

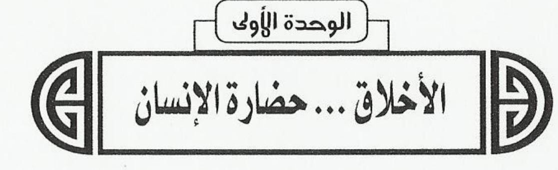
٤= إبراز الإسهام العظيم والأثر الكبير لتاريخنا وحضارتنا الإسلامية في شتى ميادين أخلاق المهن المختلفة، مع النموذج التطبيقي الرائع في نظام الحسبة الإسلامي الذي سبق = بقرون كثيرة = الحضارة المعاصرة في مجالات ونظريات الجودة الشاملة وأخلاق المهنة.

٥= تنويع الأمثلة في مهن مختلفة، ومن دول عربية متعددة، مع التركيز على المملكة العربية السعودية ومرافقها الحكومية وهيئاتها وشركاتها الأساسية؛ تعزيزاً للمواطنة، وربطاً ببيئة العمل الواقعية التي سيرتبط بها الطلاب.

وأخيراً فإننا نعتقد أن الكتاب لبنة متينة وجميلة في البناء الثقافي فكراً وممارسة في هذا المجال الحيوي في واقع الحياة عموماً، وفي حياة خريجي الجامعة خصوصاً، وقد بذلنا جهدنا لتقديم الأفضل والأنفع، وسنسعى لمزيد من التجويد والتحسين في الطبعات القادمة، ونسأل الله أن يجعل في هذا العمل النفع والفائدة، وأن يكتب لنا به الأجر والمثوبة.



- الوحدة الأولى: الأخلاق ... حضارة الإنسان
- الوحدة الثانية: الأخلاق ... رسالة الإسلام
- الوحدة الثالثة: صناعة الأخلاق ومحفزاتها
- الوحدة الرابعة: العمل شرف وعبادة



الوحدة الأولى

الأخلاق ... حضارة الإنسان

- معنى الأخلاق لغة واصطلاحاً
- مفهوم الأخلاق الإنساني والحضاري



مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس:

لقد اختلف العلماء في تحديد تعريف جامع وشامل للأخلاق، ولذلك تجد في هذه الوحدة تعريفاً جامعاً للأخلاق بجميع جوانبها ومزاياها.

وبما أنه لا يوجد مجتمع إنساني إلا وقد توافق أفراده على أخلاق حسنة يعتبرها مقياساً للتفاضل، وأخرى سيئة يعدها سبباً للذم والمؤاخذة، وبالتالي لا بد لنا أن نعرف الأخلاق الحسنة ونلتزمها لتكون وصفاً عاماً لجميع أبناء الأمة.

والأخلاق فطرة إنسانية ووجودها ينعكس على صاحبها في استقراره النفسي، وسلوكه العملي، ويتجلى كذلك في حسن تعامله مع الآخرين وانسيابية علاقته بهم.

وترتبط الأخلاق بالحضارة ارتباطاً وثيقاً، لما لها من دور أساسي في بناء الحضارة، لما تثمره في الفرد من الإيجابية والعطاء، فضلاً عن حسن التعامل ومنع الإيذاء، ولما يسببه تدهور الأخلاق من انهيار للحضارات.

فاحرص = **أخي الدارس**= على دراسة هذه الوحدة للتعرف على ذلك كله والاستفادة منه.

الأهداف التعليمية للوحدة الأولى

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

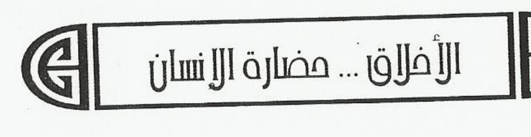
١- تحدّد معنى الأخلاق لغة واصطلاحاً.

٢- تبيّن أبرز معالم وسمات الخُلُق الحقيقية.

٣- تعرف فطرية الأخلاق في خلقة الإنسان.

٤- تبيّن دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية.

٥- توضّح أثر التدهور الأخلاقي في انهيار الحضارات.



معنى الأخلاق لغة واصطلاحاً

تعريف الأخلاق لغة

الأخلاق: جمع خُلُق، والخُلُق بضم اللام وسكونها، وهو الدِّين والطَّبع والسجية، والخُلُق يصف الإنسان من الناحية المعنوية في خصاله وطبائعه، فهو معبِّرٌ عن صورة الإنسانِ الباطنة، وهي نفْسه، وأَوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها.

فالخِلْقَة الجسدية الظاهرة لها أوصاف حسنة وقبيحة، وكذلك الخُلُق المعنوي يوصف بالحسن والقبح، ويضاف عليه أنه يرتبط به المدح والذم، ويترتب عليه الثواب والعقاب؛ لأنه يحصل باختيار الإنسان وقصده، فالمرء يُمدح لكرمه ويُذم لبخله، ولا يُمدح لطوله أو يُذم لقصره؛ لأنه في الأول اختار الكرم أو البخل بقصد، وأما في الثاني فلا اختيار له في طوله أو قصره، فالخَلْق (بفتح الخاء) مختص بالهيئة والصفة المُدْرَكة بالبصر، والخُلُق (بضم الخاء) متعلق بالخصال والخلال المدركة بالبصيرة.

وحقيقة الخُلُق في اللغة: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب؛ لأنه يصير كخِلْقته الظاهرة التي يُعرَف بها لأنها ملازمة له، وشواهد القرآن تدل على هذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤)، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:١٣٧). فأخلاقك – حقيقة وليس مجازاً– هي العنوان الأساسي لشخصيتك، والبصمة الحقيقية لمخبرك، فاحرص على أن يكون العنوان جميلاً وجاذباً.

تعريف الأخلاق اصطلاحاً

الخُلُق: " عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سميت الهيئة: خُلُقاً حسناً،

وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خُلُقاً سيئاً " (١).

ونلحظ في هذا التعريف = رغم شيوعه = (٢) قصوراً مهماً؛ لأنه يجعل الخلق مقتصراً على الجانب الفطري الذي يكون في النفس طبعاً دون أن يتناول الجانب العملي الإرادي الذي يكتسبه المرء بالتعلم والتدريب والتعود وإن لم يكن من طبعه النفسي في الأصل، كما أن التعريف لا يعرِّج على جانب القصد والإرادة والاختيار للفعل السلوكي والأخلاقي، وهو أمر مهم في تعريف الخُلُق إذ أن الفعل الذي يصدر عن النفس بدون قصد واختيار لا يعد خُلُقاً لتلك النفس أو ذلك الشخص. ويضاف إلى أوجه القصور = في هذا التعريف = أنه اقتصر على ذكر "الأفعال" بينما الأخلاق تتجلى في الأقوال والأفعال، بل وفي الهيئات والأشكال.

التعريف المختار:

الخُلُق: " **قوة راسخة للنفس، تنزع بها بسهولة ودون تكلف إلى اختيار الخير أو الشر، بضابط الشرع الحنيف والفطرة السليمة، وتظهر آثارها في الأقوال والأفعال والأحوال** ".

وهذا التعريف يستدرك الملحوظات السالف ذكرها على التعريف السابق، ولمزيد من الإيضاح للتعريف نشرح كل فقرة من فقراته، مع ذكر أمثلة توضيحية لها:

١= قولنا: " **قوة راسخة للنفس، تنزع بها بسهولة ودون تكلف** " بيان أن للأخلاق أصلاً نفسياً مستقراً، فهو صفة ملازمة لها كصفة الجسد طولاً أو قصراً، "وليس الخُلُق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمنع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء" (٣).

فالخلق لا بد أن يكون راسخاً ودائماً، ويكون تلقائياً لا يحتاج إلى إعمال فكر، ولا مجاهدة نفس، ولا ترويض سلوك "فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحالم لا يكون خلقاً، وكذا الراسخ الذي يكون مبدأ للأفعال النفسية بعسر وتأمل، كالبخيل إذا حاول الكرم، والكريم إذا قصد بإعطائه الشهرة" (٤).

(١) التعريفات، للجرجاني (ص ١٣٦).

(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه (ص٢٥)؛ وإحياء الدين، للغزالي (٤٦/٣)؛ وتهذيب الأخلاق، للجاحظ (ص١٢).

(٣) التعريفات، للجرجاني (ص ١٣٦).

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي (١٣١٧/١).

٢= قولنا: " **تنزع بها بسهولة ودون تكلف إلى اختيار الخير أو الشر** " بيان للجانب العملي الإرادي للأخلاق، فمن الأخلاق ما لا يكون صفة في النفس لكن صاحبه جاهد نفسه عليه وتربى على التحلي به، وواظب على ممارسته حتى صار خلقاً دائماً له، وصار يصدر عنه بعفوية ودون تكلف فأشبه الخلق الذي هو صفة نفسية لصاحبه.

والخلق بهذا الاعتبار "لا يكون صفة للنفس في جملتها، وإنما في جانب معين من جوانبها وهو جانب القصد والإرادة، أما ما يصدر عن النفس مما هو غير مقصود ولا مراد فلا توصف النفس عند صدوره عنها بأنها ذات خلق" (١).

٣= قولنا: "**بضابط الشرع الحنيف والفطرة السليمة**" بيان للمعيارية والمرجعية يشمل الفطرة باعتبار الاشتراك في الأصل الإنساني؛ فالستر والحياء فطرة إنسانية يدل عليها قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (طه: ١٢١)، والضابط الثابت هو الشرع الإسلامي بما يدل عليه من آيات القرآن الكريم وما يصح من سنة الرسول ﷺ.

٤= قولنا: "**وتظهر آثارها في الأقوال والأفعال والأحوال**" هذا بيان تكميلي مهم؛ لأن الأخلاق لها مظاهر تعبر عنها وتدل عليها؛ لأن ما في النفس لا يُعرف إلا بالظهور الفعلي، ويشمل ذلك الأقوال: كالكلمة الطيبة أو القول القبيح، والأفعال: كالإحسان والنجدة، أو الإساءة والأذى، والأحوال المراد بها: الهيئات المتصلة بالمرء من ملبسه ومركبه ومسكنه فقد تدل على بخل أو سرف، كما تشير إلى أصالة وقوة شخصية، أو ضعف وتقليد وتبعية، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك.

والخلاصة أن التعريف يدل على أبرز معالم وسمات الخُلق الحقيقية وهي:

١= الخُلُق أساسه صفة وقوة نفسية معنوية، وليس مجرد صورة حسية لسلوكيات عملية.

٢= الخُلُق صفة راسخة مستقرة، وليست عارضة زائلة. كما أنها ليست مؤقتة أو مرتبطة بموقف أو مصلحة محددة.

٣= الخلق طبع تلقائي، وليس تصنعاً وتكلفاً.

(١) أخلاق النبي في القرآن والسنة، لأحمد الحداد (٣١/١).

٤- الخُلُق وإن كان أساسه نفسياً فإن له آثاراً سلوكية عملية في الأقوال والأفعال والأحوال والأشكال.

٥- الخُلُق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، والمرجع في تحديد ذلك الفطرة السليمة، والعقل الراشد، وقبل ذلك الشرع المُحْكم.

مفهوم الأخلاق الإنساني والحضاري

الإنسان أكرم خلق الله، كما ثبت ذلك التكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء:٧٠)، ومظاهر هذا التكريم تتجلى في صور كثيرة منها: أن رب العزة والجلال خلقه بيديه كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥)، وأنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكة قدسه، كما ورد في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩).

والفطرة البشرية فيها ميل نحو الخير ونزوع إلى الحُسْن والإحسان، ومن ثم فالفطرة فيها حب وتفضيل للخُلق الحسن، ونفرة وبغض للخلق القبيح، والميل الفطري للخلق الحسن يجعل الأخْلاق شكلاً من أشكال الوعي الإنساني، لأنها تغرس في النفس البشرية بذور الخير وغراس الإحسان، كما تضع أسساً إيجابية نافعة ترقى بأساليب التعامل مع الآخرين في شتى الدوائر الأسرية والاجتماعية والبيئية، إضافة إلى كونها تضبط السلوك بحيث تمنع أي شكل من أشكال التعدي والإيذاء، وإلحاق الضرر المعنوي والمادي للإنسان والحيوان والبيئة.

فالأخلاق هي الوجود الثاني للإنسان مثل وجوده الحيواني البشري كما يقول الفيلسوف الألماني (هيجل)، وذلك يدل على أهمية الأخلاق إنسانياً، وأنها جزء من كينونة الإنسان وخصائصه المميزة له عن سائر المخلوقات، وهذا ما أكده الفيلسوف (هارتمان) بقوله: "إن الوجود البشري هو وحده الحامل للقيم الأخلاقية، فهو الكائن الوحيد الذي لا يتحدد وجوده إلا من خلال علاقته بالقيم"[1].

ومن هنا فإنه لا يوجد مجتمع إنساني إلا وقد توافق أفراده على أخلاق حسنة يعتبرها مقياساً للتفاضل، وأخرى سيئة يعدها سبباً للذم والمؤاخذة، ومن ثم نرى أن كل مجتمع بمكوناته الدينية والثقافية

(١) فلسفة الأخلاق، لإمام عبد الفتاح (ص٣٢).

والتاريخية له منظومة أخلاقية تمثله وتعبر عنه، وتعتبر ترجمة ظاهرة لأسس الأخلاق عنده كما قال أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعلى مستوى الإنسان الفرد تمثل الأخلاق استقراراً نفسياً ومعياراً سلوكياً له، "فالحسن الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة. والسيئ الخلق الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء "[1]، ويشهد لذلك حديث المصطفى ﷺ: " دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ " [2].

والحضارة بمفهومها الشامل تُعْنى ببناء الإنسان ليتولى بناء العمران، والأخلاق جوهر حقيقي، وأساس نفسي في بناء الإنسان على مستوى الذات بالتوافق النفسي، وعلى مستوى المجتمع بالانضباط السلوكي، ومن هنا يتجلى أن الأخلاق ركيزة أساسية في بناء الحضارة، لما تثمره في الفرد من الإيجابية والعطاء، فضلاً عن حسن التعامل ومنع الإيذاء، إضافة لما تعكسه الأخلاق على المجتمع من الرقي في العلاقات والفاعلية في الإنجازات.

ولا يخفى على أحد أن شيوع الأخلاق المذمومة يعكس أسوأ صورة وسمعة لأي حضارة ومجتمع، بل إن انعدام الأخلاق الفاضلة أو ضعفها في أي حضارة يعتبر من أعظم أسباب سقوطها وانهيارها، وهذا ما أكَّده علماء الاجتماع والمؤرخون، فابن خلدون جعل "الإسراف والتبذير واصطناع قرناء السوء وإبعاد الصالحين الناصحين" [3] هو طَور الانهيار في الحضارات، وأما المؤرخ البريطاني (توينبي) فإنه يشير إلى أن السبب الأساسي لعجز الحضارات عن الاستجابة للتحدي ومن ثم الانهيار هو فقدان قوتها الأخلاقية والقيمية والروحية، ولذا جعل الطور السابق للانهيار والسقوط هو طَور "الانحلال والتدهور الأخلاقي"[4].

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص٢٩٩).

(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (٢٥١٨)؛ والنسائي، حديث رقم (٥٧١١).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص٨٩).

(٤) التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل (ص٧٢-٧٣).

والله جل وعلا يقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود:١١٧)؛ وفي آية أخرى نجد مزيداً من الإيضاح ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء:١٦)، والسنة المطهرة تضمنت هذا التحليل في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: " إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ " [1]، بل إن القرآن الكريم يقرر ذلك كسنة ربانية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١).

(١) رواه الحاكم: حديث رقم (٢٢٦١).

خلاصة الوحدة الأولى

تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً

- **الأخلاق في اللغة:** الدِّين، والطَّبْع، والسجية.

وحقيقتها: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب.

واصطلاحاً: "قوة راسخة للنفس، تنزع بها بسهولة ودون تكلف إلى اختيار الخير أو الشر، بضابط الشرع الحنيف والفطرة السليمة، وتظهر آثارها في الأقوال والأفعال والأحوال".

أبرز معالم وسمات الخُلُق الحقيقية

١- الخُلُق أساسه صفة وقوة نفسية معنوية.

٢- الخُلُق صفة راسخة مستقرة، وليست عارضة زائلة أو مؤقتة.

٣- الخلق طبع تلقائي، وليس تصنعاً وتكلفاً.

٤- للخلق آثار سلوكية عملية في الأقوال والأفعال والأحوال والأشكال.

٥- الخُلُق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، وذلك تحدده الفطرة السليمة، والعقل الراشد، وقبل ذلك الشرع المحكم.

الأخلاق في صميم الفطرة الإنسانية

فالفطرة البشرية فيها ميل نحو الخير ونزوع إلى الحُسْن والإحسان، ومن ثم فالفطرة فيها حبٌّ وتفضيل للخُلق الحسن ونفرة وبغض للخلق القبيح، والميل الفطري للخلق الحسن يجعل الأخلاق شكلاً من أشكال الوعي الإنساني.

الأخلاق بمفهومها الإنساني والحضاري

هي ركيزة أساسية في بناء الحضارة

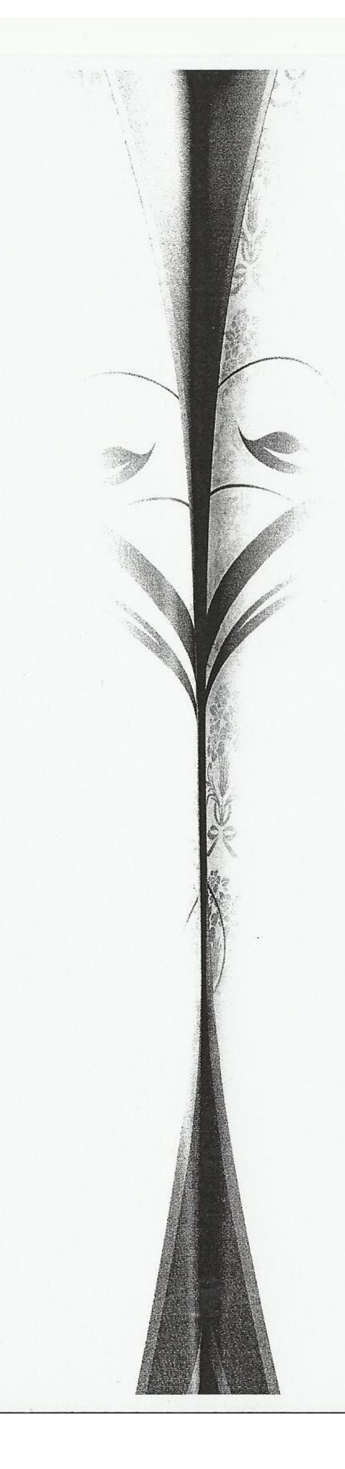
لما تثمره في الفرد من الإيجابية والعطاء، فضلاً عن حسن التعامل ومنع الإيذاء، إضافة لما تعكسه الأخلاق على المجتمع من الرقي في العلاقات والفاعلية في الإنجازات.



الوحدة الثانية

الأخلاق ... رسالة الإسلام

- صلة الأخلاق بالإيمان
- صلة الأخلاق بالعبادات
- صلة الأخلاق بالمعاملات
- الأخلاق بين المسؤولية والجزاء



مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس:

الأخلاق في الإسلام جزء أساسي من الإيمان، وأثر حقيقي للعبادة، وأمن ونماء في الاقتصاد، ومحبة وصلة في الاجتماع، ولذلك نجد للبعد الأخلاقي حضوراً في سائر جوانب الحياة، وشتى مجالات النشاط الإنساني، حتى في النشاط الاقتصادي والمعاملات المالية، وهذه مزية كبرى في الإسلام.

وقد وضع القرآن قاعدة عامة في التعامل بين البشر حثهم فيها على التعاون على الخير والبر والتقوى، ونهاهم عن التعاون على الإثم والمعصية، وربط الأخلاق في الإسلام بالمسؤولية والجزاء، في الدنيا والآخرة، فالأخلاق في الإسلام تكليف رباني، وبالتالي كان للتحلي بمحاسن الأخلاق أجر عظيم وثواب جزيل، وفي المقابل كان لسوء الخُلُق أثر كبير في استحقاق العقوبة كذلك.

وقد جاءت الأوامر الربانية في شأن الأخلاق، مع بيان الحكمة والمنفعة منها، مما يساعد على الالتزام والقيام بالمسؤولية بما يبرزه من المنافع والمصالح، وهذا مما تميز به المنهج القرآني في الأمر بالأخلاق.

فاحرص = **أخي الدارس**= على دراسة هذه الوحدة؛ للتعرف على ذلك كله.

الأهداف التعليمية للوحدة الثانية

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تعرف أن للمسلم أحكاماً وآداباً متصلة بعلاقاته مع الخالق ومع الخلق.

٢- تبيّن صلة الأخلاق بالإيمان، ومزايا تلك الصلة.

٣- تبيّن صلة الأخلاق بالعبادات، ومزايا تلك الصلة.

٤- تعرف صلة الأخلاق بالمعاملات المالية والاجتماعية والأحوال الشخصية، ومزايا تلك الصلات.

٥- تبيّن ارتباط الأخلاق في الإسلام بالمسؤولية والجزاء، في الدنيا والآخرة.

الأخلاق ... رسالة الإسلام

الإسلام دين شامل لجميع جوانب الحياة، فهو عقيدة وخلق، وعبادة وسلوك، ودين ودنيا، والحياة كلها بجميع مجالاتها يمكن أن تكون للمسلم محراب عبادة لتحقيق الغاية من وجوده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، فهو لم يُخلق عبثاً، ولم يُترك سدى، فهذه الغاية مستوعبة للحياة من البداية إلى النهاية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام : ١٦٢-١٦٣).

وقد بين رسول الله ﷺ لأصحابه شمول الإسلام لجميع مناشط الحياة، حيث أكد لهم حصول الأجر حتى عند المتعة في ظل التزام شرع الله تحليلاً وتحريماً حيث قال ﷺ: **"وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ"**، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ: **"أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"** (١).

كما دلّت أحاديث المصطفى ﷺ على تنوع الأعمال الإيمانية والإنسانية تحت مظلة العمل الصالح، كما روى أبو ذر رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : **"إِيمَانٌ بِاللهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ"**، قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : **"أَغْلَاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا"**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ، قَالَ : **"تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ"**، قَالَ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ : **"تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ"** (٢).

ولقد جاء الإسلام ليبين للإنسان الأحكام والآداب المتصلة بعلاقاته في جانبين هما:

الجانب الأول: علاقة الإنسان مع الخالق: وتشتمل على الإيمان والعبادة.

الجانب الثاني: العلاقة مع الخَلْق: وتشتمل على المعاملات والسلوكيات.

ويدل على ذلك أنه عندما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: **"تَقْوَى اللهِ،**

(١) رواه مسلم، حديث رقم (١٠٠٦).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٢٥١٨).

وَحُسْنُ الخُلُقِ "[1]. فهذا بيان موجز واضح ذكر فيه العلاقة مع الله بتقواه، ومع الناس بحسن الخلق في معاملتهم، ومثل ذلك جاء في وصية المصطفى ﷺ حين قال: " اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ " [2]، وهذا يؤكد الترابط بين الصلة بالله وحسن الخلق مع الناس في الحياة.

ولا بد من التأكيد بأن الإيمان ليس معانٍ نظرية مجردة، ولا معارف عقدية جامدة، كما أن العبادة ليست ممارسات عملية مجردة، بل لكل ذلك آثار تتجلى في صفات نفسية خلقية، وممارسات عملية سلوكية.

وتأمُّل هذا يبين أن الأخلاق في الإسلام من صلب الدين، وهي لب رسالة الإسلام، وصورة أثره في المسلمين، وطيدة الصلة بالإيمان والعبادة، كما سنرى في هذا الإيجاز:

صلة الأخلاق بالإيمان

جاء مدح المصطفى ﷺ في القرآن في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤). فكان له ﷺ من الأخلاق أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا [3]، وقد سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ " [4]. "ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثالُ القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي... هذا مع ما جبله الله عليه من معاني الخلق العظيم، من الحياء، والكرم، والشجاعة، والصفح، والحلم، وكل خلق جميل" [5].

وهنا نلحظ أن الرسول ﷺ لم يُمدَح بإيمانه وهو عظيم وراسخ، ولا بعبادته وهي عظيمة وكثيرة، لكن جاء مدحه في القرآن بخلقه؛ لأنه ثمرة الإيمان والعبادة من جهة، ولأنه هو الذي ينتفع به الناس ويتأثرون، والنتيجة الواقعية هي أنه لن يكون الخلق عظيماً سامياً في شتى الخصال وفي كل الأحوال إلا إذا كان الإيمان عظيماً والعبادة خالصة خاشعة.

(١) رواه الترمذي: حديث رقم (٢٠٠٤).

(٢) رواه أحمد، حديث رقم (٢١٣٥٤)؛ والترمذي، حديث رقم (٢١١٥).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص٨٧٨).

(٤) رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم(١٧٥٥)؛ وأحمد، حديث رقم (٢٥٣٠٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٨٩/٨)

ومما يدل على عظيم الصلة الخلقية بالإيمان أن الخُلُق يفسر بالدِّين، كما قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: "دين عظيم وهو الإسلام" [1].

وها هو الرسول الكريم ﷺ يختصر رسالته ودعوته في كلمات من جوامع كلمه حيث يقول: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ " [2] فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل. وتتوارد أحاديثه تترى في الحض على كل خلق كريم. وتقوم سيرته الشخصية مثالاً حياً وصفحة نقية، وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.. فيمجد بهذا الثناء نبيه ﷺ، كما يمجد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم، ويشد به الأرض إلى السماء، ويعلّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه، وهو يدلّهم على ما يحب ويرضى من الخُلُق القويم [3].

ويأتينا مزيد من الإيضاح في قوة الصلة والتكامل بين الإيمان والأخلاق في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ونلحظ في هذه الآية أن القرآن ذكر أركان الإيمان مع خصال الأخلاق الحميدة وفرائض العبادات في سياق واحد من الصفات والأفعال، مما يدل على الصلة الوثيقة بينها جميعاً، وأن صفات المؤمن كلها أخلاق حميدة، فالحق سبحانه وتعالى يعني بقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ " من فعل هذه الأشياء، فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وحققوا قولهم بأفعالهم" [4].

ومثل ذلك يظهر بوضوح في ذكر صفات المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥

(١) معالم التنزيل، للبغوي (٨/ ١٨٧).

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، حديث رقم (٢١٣٠١).

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٧/ ٢٩٠).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (٣/ ٣٥٦).

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون:١-١١). فخشوع الصلاة عبادة، والإعراض عن اللغو خلق، وأداء الزكاة عبادة مفروضة، والعفة عن الفواحش، وأداء الأمانة أخلاق، وجاء ختم الآية بفريضة الصلاة، وكل ذلك مذكور ضمن صفات المؤمنين مما يدل بوضوح على أن الأخلاق من الإيمان.

ومن رحاب القرآن إلى رحاب السنة نجد التطابق في الدلالات على الصلة بين الأخلاق والإيمان، فها هو حديث المصطفى ﷺ يؤكد أن الأخلاق تمثل جزءاً حقيقياً من الإيمان فيقول: " **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ** " (١)، وتأمل مزيداً من التأكيد والتوضيح لارتباط الحياء بالإيمان في نص واضح صريح الدلالة في قوله ﷺ: " **الحَيَاءُ وَالإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ** " (٢).

وها نحن نرى أعمالاً خلقية سلوكية يذكرها الرسول ﷺ مرتبطة بالإيمان كما في قوله: " **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ** " (٣)، فلا يكون الإيمان كاملاً إلا بالإتيان بهذه الأعمال من إحسان المعاملة وكرم الضيافة وحسن القول، وقد "حض النبي ﷺ على إكرام الجار وحسن مجاورته، وأعلم أن ذلك من شرائع الإيمان، وأن كل مؤمن بالله وبالثواب والعقاب في الآخرة يتعين عليه أن يلتزم هذا ويعمل به: فإن الله ﷻ قال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ (النساء:٣٦) (٤) "، وخلاصة الحديث " أن من كان كامل الإيمان فهو متصف بالشفقة على خلق الله، قولاً بالخير، وسكوتاً عن الشر، وفعلاً لما ينفع، أو تركاً لما يضر " (٥).

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم (١٦٢).

(٢) رواه الحاكم، حديث رقم (٤٠٥).

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (١٤٥٤).

(٤) المنتقى شرح الموطأ، للباجي (٤ /٣٣٤).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١٦١/١٧).

وفي حديث النبي ﷺ: " **لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ** " (١)، مزيد من الدلالة والإيضاح " فمن جرى بينه وبين أحد عهد ثم غدر لغير عذر شرعي فدينه ناقص... فحينئذ ترجع الأمانة والعهد إلى طاعته تعالى في أداء حقوقه وحقوق عباده، كأنه لا إيمان ولا دين لمن لا يفي بعهد الله بعد ميثاقه، ولا يؤدي أمانته بعد حملها وهي التكاليف من أمر ونهي " (٢).

فالحياء وإكرام الضيف والأمانة والوفاء بالعهد وغيرها كلها خصال أخلاقية حميدة يتعلق بها كمال الإيمان، فإذا انتفت انتفى كمال الإيمان، وإذا وجدت زاد بوجودها الإيمان، مما يؤكد على أنها جزء لا يتجزأ من الإيمان. وهذا يؤكد أن الأخلاق المنطلقة من العقيدة أخلاق لا يتنازل عنها أصحابها، ولا يتحايلون عليها، بل يراعونها ويلتزمونها في كل أحوالهم.

وهذا الارتباط بين العقيدة والأخلاق يؤكده غير المسلمين من المفكرين؛ لأن الأساس الفكري العقدي للأخلاق أمر ضروري لكي تأخذ الأخلاق طابع الالتزام، كما يقول (وليم جيمس): " إن القيم الأخلاقية إذا وجدت في عالم لا إله فيه تكون من القيم الاسمية التي لا يكاد يوجد فيها إلزام، وأما الإلزام الحقيقي والقيم الحقيقية فلا تكون إلا إذا كان الإله هو الملزم وهو المحدد لقيم الأشياء " (٣)، ويعضد ذلك قول الدكتور (ألكسيس كاريل) : " لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية " (٤).

مزايا قوة الصلة بين الإيمان والأخلاق

إن هذا الارتباط المنهجي بين الأخلاق والإيمان كما دلت عليه الآيات والأحاديث له مزايا وآثار كبيرة على فهم دلالة الأخلاق، ومعرفة أهميتها، والعمل على التحلي بها، والاجتهاد في التزامها، في كل الظروف والأحوال. وهذه خلاصة تلك المزايا:

---

(١) رواه أحمد، حديث رقم (١٢٣٨٣).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٦ /٤٩٤-٤٩٥).

(٣) أخلاقيات المهنة، لخالد المزيني، عرض على الرابط:
http://faculty.kfupm.edu.sa/IAS/muzeini/Files/articels/mfhom_aklakyat_ALmihnah.pp

(٤) المصدر السابق.

١- قدسية الفضائل الأخلاقية: لأن الإيمان أعظم قيمة عند الإنسان المسلم، وارتباط الأخلا[ق] به يجعلها في منزلة سامية.

٢- استقرار وثبات الأخلاق: الإيمان محله القلب، ويظهر أثره على الجوارح، فإذا وقر الإيمان [في] القلب، ورسخ في أعماق النفس فإن الأخلاق حينئذ تكتسب ثباتاً وقوة مستمدة من قاعدة الإيمان الراس[خ] الذي لا يزول من قلب المؤمن ، ولا يمكن أن يتنازل عنه بحال.

٣- الترابط بين السلوك الأخلاقي والسعادة النفسية: فالإيمان يورث الإنسان سعادة نفس[ية] والأخلاق الكريمة جزء من الإيمان فهي مثله تمنح الإنسان السعادة بالتزامها والتخلق بها، وتكون مكملة ومثبتة للآثار النفسية الحميدة على المسلم المتحلي بالأخلاق الفاضلة.

٤- التجرد في الممارسة الخُلقية تعلقاً بالمثوبة الأخروية: كون الأخلاق جزءاً من الإيمان فذلك يقتضي أن لها ثواباً وأجراً يتعلق به المسلم مما يزيد ثباته على الأخلاق وإن لم ير جزاءها في الدنيا.

صلة الأخلاق بالعبادات

تأتي العبادة في رتبة عليا بعد العقيدة، فأركان الإسلام من العبادات مسبوقة بالركن الأول وهو الإيمان، ومن عظمة الإسلام أن هذه الفرائض كلها لها ثمرات أخلاقية وآثار سلوكية، وهذه إطلالة على الأخلاق في رحاب العبادة:

الصلاة والأخلاق

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥)، "الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك "[1] فالغاية الخلقية بالتنزه عن الفواحش والمنكرات مقصد أساسي وثمرة حقيقية للصلاة، " فالصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا دخل المصلي في محرابه، وخشع، وأخبت لربه، وادَّكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها "[2].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦ /٢٨٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣ /٣٤٨).

" وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها" [1].

وهذا ابن عباس يروي عن الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى قال: " إِنَّمَا تُقْبَلُ الصَّلاةُ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ، وَرَحِمَ الْمُصَابَ...الحديث " [2] فهذا الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل يبين أن قبول الصلاة متصل بأعمال أخلاقية تتمثل في التواضع لله سبحانه، وعدم التكبر على الخَلْق، والعطف على المساكين، والإحسان للمحتاجين.

فالصلاة " بالنسبة إلى أولئك الذين يؤدونها بروحها ذات وظيفتين أخلاقيتين: فهي لا تقتصر على كونها: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ولكن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهي تجعلنا روحياً على اتصال بالمنبع الشامل لجميع الكمالات" [3].

الزكاة والأخلاق

في شأن الزكاة يقول الله جل وعلا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٣)، وفي هذا دلالة أخلاقية للزكاة فهي " تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم "[4]، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات [5].

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١١ /٦).
(٢) رواه البزار، حديث رقم (٤٨٢٣).
(٣) دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص٢٥٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (ص ٣٥٠).
(٥) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١٠/ ١٩٦).

فالزكاة للغني تطهير من أمراض الشح والبخل، ورذائلِ الحرص والطمع، كما أنها تغرس في النفس حب الخير وخُلُق الجود والكرم، والشعورُ بحوائج الآخرين ينبت خُلُق الرحمة والرأفة، ومن جهة أخرى فإن الزكاة للفقير تطهير من الأخلاق الذميمة كالحسد والحقد، كما أنها تثمر المحبة للمحسنين، وتؤسس لخلق الشكر والوفاء، وتُشْعر بمعاني الرحمة والتواصل والإخاء، ومن ثم فإن الزكاة وإن كانت من الناحية العملية بذل مال إلا أنها ذات آثار نفسية خلقية على المستوى الفردي والاجتماعي.

والأثر الأخلاقي للزكاة والصدقة "مزدوج الفائدة فهي (تطهر) النفس حين تصرفها عن حرصها الزائد على الكسب، وهي (تزكي) نضارتها"[1].

الصوم والأخلاق

الصوم له " دور تجنيبي، فهو يحفظنا من الشر، ويدفع عنا شره الجوارح، ويجعلنا أقدر على أن نحترم القانون، وهو وسيلة إلى بلوغ التقوى"، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣)[2]، والتقوى تعبير في هذا السياق عن آثار أخلاقية " لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان " [3].

ونجد الإيضاح والتفصيل في سنة النبي عليه الصلاة والسلام كما في قوله: " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" [4]. وفي الحديث دلالة على أنه " ليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة " [5]، فها نحن نرى بوضوح أن ترك الكذب والزور ثمرة للصيام.

وثمة ثمار أخرى مباشرة مثل ما ورد في حديث " وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَرْفُثْ، وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ " [6]، ففحش القول وعنف الفعل يتم

(١) دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص٢٥٨).
(٢) دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص٢٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٩٧).
(٤) رواه البخاري، حديث رقم (١٩٠٣).
(٥) فتح الباري، لابن حجر (٦/ ١٤٢).
(٦) رواه البخاري، حديث رقم (١٩٠٤).

ترويضهما والبعد عنهما من خلال الصيام، وبالجملة فالصوم مدرسة أخلاقية فيها الصبر والاحتمال بترك الطعام والشراب، وقوة الإرادة ثمرة للصوم بما فيه من ضبط الشهوات وكبح جماح النفس في تعلقها بتلك الشهوات، والرحمة من آثار الصوم من خلال الشعور بما يعانيه الفقراء والمحرومون، وغير ذلك كثير.

الحج والأخلاق

الغاية الأخلاقية في الحج واضحة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، فترك الرفث والفسوق والجدال كلها خصالٌ أخلاقية، إذ من وجّه نيته لله وقصد بيته مُحْرماً وملبّياً ومقدّماً للهدي: تقرباً لله، محاطاً بالخشوع، ساكباً للدموع، رافعاً للدعوات، تالياً للآيات، لا يتصور أن يكون متلبساً بالقول الفاحش والفعل المحرم والخصومة مع الناس؛ لأن آثار تلك الشعائر على القلب والنفس تثمر تلك المشاعر المنضبطة بالأخلاق، عفةً عن القول الباطل، وتنزهاً عن الفعل الآثم، وتجنباً للإساءة للآخرين، وحديث المصطفى ﷺ يطابق دلالة الآية ويؤكد المنحى الأخلاقي للحج في قوله ﷺ: " مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" [1].

وفي هذا المعنى نتأمل قول الحق جل وعلا في شأن ذبح الأضاحي والهدي والفدية: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾ (الحج: ٣٧)، فنجد أن لفت النظر إلى ما وراء صورة العمل المحسوسة وهي التقوى التي تعني الصياغة الإيمانية والرقابة الذاتية والثمرة الأخلاقية، وبصورة أكثر تحديداً نجد في سياق آيات الحج قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ (الحج: ٣٠).

وهو ربط واضح بين الحج وترك رذيلة الكذب وكبيرة قول الزور.

مزايا قوة الصلة بين العبادات والأخلاق

إن الآثار الأخلاقية التي أشرنا إليها في العبادات والفرائض تنعكس على الأخلاق بمزايا مهمة منها:

(١) رواه البخاري، حديث رقم (١٥٢١).

١- حضور وتأثير العنصر العاطفي في البناء الأخلاقي: لأن العبادات فيها خشوع وتعلق بالله تعالى ولذة في مناجاته، فتصبح الأخلاق – مع العبادات – ملكة نابعة من عاطفة المسلم، تخرج بتلقائية دون تكلف ولا عناء، وتغذيها العبادة بما فيها من مشاعر التقوى لله والتعلق به والخوف منه، وما يحصل بها من رقة القلب وسكينة النفس والرحمة بالخَلْق.

٢- تجديد وتأكيد وإحياء المعاني الأخلاقية بصفة منتظمة: لأن العبادات – كالصلوات والصدقات – تتكرر يومياً وأسبوعياً وشهرياً، وبالتالي تترسخ الأخلاق بتجدد تلك العبادات، وذلك ما يدل عليه حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: " **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟** " قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: " **فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا** " [1].

٣- امتداد الحضور الأخلاقي من الفرد إلى الأمة: فالعبادات فرائض عينية على كل مسلم، وهي تؤدى بصورة جماعية كالصلوات والحج، أو بصورة وحدوية كالصوم والزكاة، وما دامت فيها الآثار الأخلاقية السابقة فكأنها تأكيد للزوم الأخلاق على المستوى العام للأمة كما هي فرضية العبادات على جميع أفراد الأمة.

صلة الأخلاق بالمعاملات

تنقسم المعاملات إلى قسمين هما: المعاملات المالية، والمعاملات الشخصية، والأولى تتعلق بمعاملات البيع والشراء ونحوها من الأمور المالية، والثانية تتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة من الخطبة والزواج وما يلحق بذلك من أحكام أحوال الشخصية. وكلا القسمين له صلة بالأخلاق. هذا إيضاحٌ موجزٌ لها:

المعاملات المالية والأخلاق:

في التشريع الإسلامي نجد للبعد الأخلاقي حضوراً في النشاط الاقتصادي والمعاملات المالية،

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٥٢٨)؛ ومسلم، حديث رقم (١٥٥٤).

وهذه مزية كبرى في الإسلام؛ لأن ذلك يضبط شره النفوس وطمعها من جهة، كما يمنع عدوانها وإفسادها من جهة أخرى، فها هو التشريع الإسلامي يشتمل على تحريم الغش والاحتكار، كما يشتمل على تحريم الربا والقمار، ونصوص القرآن والسنة مليئة بما يدل على أخلاقية الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات المالية، فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فخلق العدل مأمور به، والخداع والبخس منهي عنه في كل المعاملات المالية.

والله جل وعلا يقول: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١)، " والمراد بالتطفيف هاهنا: البَخْس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قَضَاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلاك وهو الويل، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (المطففين: ٢) أي: من الناس ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، وتأمل التأثير الخلقي لهذا التشريع فيما رواه ابن عباس قال: " لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ فحسنُوا الكيلَ بعد ذلك " [1].

وفي السُّنة مزيد من النصوص كما في قوله ﷺ: " **لاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ** "[2] والغاية من هذا النهي منع ما قد يترتب عليه من إثارة للأحقاد والضغائن وإفساد للعلاقات والصلات، ومثله ما ورد عن النبي ﷺ من النهي عن النجش: وهو المزايدة في سعر البضاعة بغير غرض الشراء، وإنما لقصد رفع سعر السلعة، وهذا العمل يفضي إلى شعور المشتري بالغبن، ويتولد عنه البغضاء والخصومة.

كما بين النبي ﷺ الأثر المحمود للأخلاق في حصول الرزق والبركة فيما ورد به حديثه ﷺ القائل: " **الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا – أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا – فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا** " [3]. فالبركة مقرونة بالصدق والوضوح، ومحقها نتيجة للكذب والتدليس وذلك حتى يرتبط التجار بالأخلاق إن أرادوا النجاح وتحقيق الأرباح.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨ / ٣٤٦).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٣٥٢٠).

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٢٠٧٩).

الأحوال الشخصية والأخلاق

في الإسلام أحكام شرعية كثيرة في مجال العلاقات الأسرية تبين الحلال والحرام وتحد الواجبات والحقوق، لكن النظام الإسلامي يشتمل على ما هو أكثر من ذلك وهو جانب الأخلاق في هذه العلاقات، فالله جل وعلا يقول في شأن معاملة النساء ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)، والمراد حسن الخلق في معاملة الزوجة، وذلك "بألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقاً في القول، لا فظاً، ولا غليظاً، ولا مظهراً ميلاً إلى غيرها " (١).

وها نحن نقف مع حديثه ﷺ " لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ " (٢) أي لا يبغضها، وهذا قمة التربية الخلقية بلفت النظر إلى المحاسن وعدم التركيز والاستسلام للمساوئ حتى يستقر التوازن في النفس ويعتمد العقل على الرشد والإنصاف والرؤية الشاملة لكل الجوانب، ولذا جاء التوجيه النبوي بأنه " ينبغي أن لا يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقاً يُكره وجد فيها خلقاً مرضياً، بأن تكون شرسة الخلق لكنها ديِّنة، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك " (٣).

وقال رسول الله ﷺ: " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُم لأَهْلي " (٤)، " وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العِشْرَة، دائم البِشْر، يُداعِبُ أهلَه، ويَتَلَطَّفُ بهم، ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحِك نساءَه، ... ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها... وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ" (٥).

المعاملات الاجتماعية والأخلاق

لقد وضع القرآن قاعدة عامة في التعامل بين البشر حثهم فيها على التعاون على الخير والبر

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩٧/٥).
(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٢٦٧٢).
(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي (٥٨/١٠).
(٤) رواه الترمذي، حديث رقم (٣٨٩٥)؛ وابن ماجه، حديث رقم (١٩٧٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢ /٢٤٢).

والتقوى، ونهاهم عن التعاون على الإثم والمعصية، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢)، ومن هنا جعل الإسلام عموم العلاقات قائمة على الأخلاق الحسنة بقصد البر والتعاون عليه.

والإسلام يجعل دائرة العلاقات الاجتماعية قائمة على الأخلاق من خلال البر والإحسان والرفق، بل يربط ذلك بتوحيد الله وعبادته، ويجعل دائرة العلاقات شاملة من الدائرة القريبة إلى دوائر أوسع وأشمل، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦).

ولقد حث النبي ﷺ على إعانة المسلم وتنفيس الكربة عنه، ووعد على ذلك بتنفيس كرب يوم القيامة، فقال ﷺ: " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ " (١).

قال النووي: " وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، وغير ذلك، وفضل الستر على المسلمين " (٢).

وعن ابن عمر ﷺ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: " أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٤٨٦٧).
(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي (١٧ /٢١).

حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ" [1].

فعماد العلاقات وأساس الصلات حسن الخلق، وكرم المعاملة، والإعانة، والصيانة. وباب الأخلاق في باب التعاملات واسع، ففيه الصدق في القول، والصبر على الأذى، والحلم عند الغضب، والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة، والإحسان إلى الضعيف، والرحمة بالبهائم، إلى كل تعامل مع كل شيء في الحياة وكل حي من الأحياء.

مزايا قوة الصلة بين المعاملات والأخلاق

إن وجود الأخلاق في المعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية يضفي سمات ومزايا مهمة منها:

١- **ضبط النوازع النفسية ومنع التجاوزات السلبية:** حيث إن إضفاء الصبغة الأخلاقية في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية يهذب النفس ويكسر حدة شهواتها الأنانية والعدوانية، ولا يجعل الهدف من تلك العلاقات مقتصراً على العنصر المادي، سواءً كان مالاً أو جاهاً أو مكانة، بل يجعله مرتبطاً بالقيمة الخلقية كارتباطه بالحكم الشرعي.

٢- **إنسانية وأخلاقية معايير النجاح:** إن حضور وتعظيم الهدف الأخلاقي وأهميته في العلاقات المختلفة ذات الأهداف المتنوعة يجعل مقياس النجاح له بعد متصل بالقيم والأخلاق، فالنجاح الاقتصادي يكون ناقصاً إن لم يكن أخلاقياً، والمكانة الاجتماعية لا قيمة لها إن اقترنت بسوء الأخلاق.

٣- **إيجابية وانسيابية العلاقات الإنسانية:** إن وجود العنصر الأخلاقي في العلاقات يجعل العلاقات متينة وتتمتع بالاستقرار والسكينة، فحضور الأخلاق في الاقتصاد يؤثر إيجابياً على تعامل الناس في ظل انتشار الأمانة والصدق والإخلاص، ووجود الأخلاق في المعاملات الاجتماعية يظللها بالمحبة المقوية للروابط والمحققة للتعاون والتكامل.

٤- **رفع كفاءة الإنتاج:** إن أجواء الأخلاق في بيئة العمل تحقق معدلات أعلى للنجاح في ظل الرضا النفسي الناتج عن ممارسة الأخلاق بين المتعاملين.

(١) رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (١٣٤٦٨).

وهكذا نجد أن الأخلاق في الإسلام جزء أساسي من الإيمان، وأثر حقيقي للعبادة، وأمن ونماء في الاقتصاد، ومحبة وصلة في الاجتماع، فكيف إذا نظرنا إلى الأخلاق بذاتها وليس بعلاقاتها، وهذا ما سنجعله ختاماً لبيان مكانة الأخلاق في ديننا العظيم.

الأخلاق بين المسؤولية والجزاء

الأخلاق من أصول الإسلام الأصيلة، وغاياته النبيلة، ومحاسنه الجميلة، فهي – كما مر بنا – وطيدة الصلة بالإيمان والعبادات والمعاملات، وفي الوقت نفسه ترتبط الأخلاق في الإسلام بالمسؤولية والجزاء، في الدنيا والآخرة، وبعيداً عن الأقوال الفلسفية بما فيها الغموض والتعقيد فضلاً عما يكون فيها من الزيغ والتضليل، فإن المنهج الإسلامي أشد وضوحاً وأقوى دلالة وأعمق أثراً، وهذا إيضاح موجز يبرز ارتباط الأخلاق بالمسؤولية والجزاء في الإسلام:

١- الأخلاق أوامر ربانية وتكاليف شرعية

التزام الأخلاق الفاضلة والتحلي بها له قدر كبير في الإسلام وليس مجرد أمر عارض، أو اختيار وذوق شخصي، أو تقليد وعرف اجتماعي، فالأخلاق في الإسلام تكليف رباني جاءت به الآيات القرآنية كما جاءت بأصول الإيمان وأحكام الشريعة سواء بسواء، فكما جاءت الأوامر الربانية بفرائض العبادات ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٤٣)، جاءت كذلك الأوامر الربانية بالتزام الأخلاق، فالله تعالى ينادي المؤمنين بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩)، وهذا حث على الصدق ودعوة إليه وأمر به، حيث اقترن بالأمر بالتقوى في سياق النداء الإيماني العظيم، وأورد بعض المفسرين عند هذه الآية قول ابن مسعود رضي الله عنه: " إن الكذب لا يحلُّ منه جدٌّ ولا هزلٌ" [1]، وقول ابن عباس رضي الله عنهما: "مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم" [2].

وفي شأن التواضع تأتي الآيات الآمرة به مع تعليل وتصوير يرغب فيه ويحذر من ضده ، فيأتي قوله جل وعلا : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: ١٩) ، ومثله قوله

(١) رواه أحمد ، برقم (٣٨٩٦)؛ وابن أبي شيبة، برقم (٢٦١١٤)؛ وانظر: تفسير البغوي (٤ /١٠٩).

(٢) معالم التنزيل، للبغوي (٤ /١٠٩).

تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

ومن عظمة الإسلام أننا نجد لكل خلق من الأخلاق الأساسية العظيمة إطاراً منهجياً جامعاً، ونكتفي لبيان ذلك بمثال واحد وهو خلق الصبر، فقد ورد الأمر به كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، ولأن في الصبر مشقة ربطه الله – في الآيات - بالاستعانة به، فهو الذي يوفق له ويعين عليه كما في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧)، كما ورد الأمر بالصبر مقترناً بالنهي عن ضده كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، إضافة إلى مدح الصابرين والثناء عليهم كما في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، كما أوجب لهم محبته ومعيته ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، وبين الله أن عاقبة الصبر خير في الدنيا ومثوبة في الآخرة كما قال جل وعلا: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦)، كما أوضح القرآن أن أهل الصبر هم أهل العزائم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣)، وأنهم أهل الإمامة في الدين كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

وعلى سَنن القرآن جاءت أحاديث النبي ﷺ مشتملة على قدر كبير من الموضوعات الأخلاقية أمراً بالأخلاق الحسنة، وحثاً عليها، وبياناً لثمراتها الخيرة، مع التحذير من الأخلاق المذمومة، وبيان عواقبها الوخيمة، ومن أمثلة ذلك ما ورد في الحديث المشهور عنه ﷺ أنه قال: " عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا "(١).

" قال العلماء: هذا فيه حث على تحري الصدق - وهو قصده- والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب، والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به، وكتبه الله لمبالغته صدّيقاً إن اعتاده،

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٤٧٢١).

أو كذّاباً إن اعتاده " (١)، فهذا الحديث لم يقتصر على الأمر بالصدق، بل بيّن الطريق إليه والفائدة المرتبطة به في الدنيا والآخرة.

وفي شأن الترغيب في بعض الأخلاق جاء حديث الرسول ﷺ: " مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ "(٢)، فها هنا معالجة لبعض الأفهام الخاطئة التي ترتبط بالناحية المادية المحسوسة فترى أن العفو والتجاوز ضرب من الذل والهوان أو صورة من الضعف والخور، كما ترى في التواضع دناءة ووضاعة، فيأتي المصطفى ﷺ ليعزز مكانة الأخلاق، ويبرز أثرها المحمود عند الله عز وجل؛ ليكون ذلك هو المقياس، لا ما قد يتعارف عليه الناس، فالعفو عزٌ، والتواضع رفعةٌ؛ لأن الأخلاق الفاضلة لها قدرها في ميزان الله عز وجل.

ومن جهة أخرى يربط النبي ﷺ بين سوء الخلق والعاقبة الوخيمة يوم القيامة؛ ليثبت في نفس المسلم الحذر الشديد والبعد التام عن الأخلاق السيئة، حيث قال رسول الله ﷺ: " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ "(٣)، وهذا وعيد شديد، وفيه دلالة على أن حرمة أذية الجار أشدّ من تحريم أذى المسلم مطلقًا.

وسنة المصطفى ﷺ وسيرته تنقضي الأعمار وتفنى الأحبار وهي تسجل ما فيها من محاسن الأخلاق وما يتصل بها، وحسبنا ونحن نختم الحديث في هذه العجالة أن نعرج على نماذج من منهجيته ﷺ في الربط بالأخلاق الفاضلة والدعوة إليها، ففي مجال الإشادة ولفت النظر إلى بعض الأخلاق الفاضلة يقول عليه الصلاة والسلام لأَشَجّ عَبْدِ الْقَيْسِ رضي الله عنه: " إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ "(٤)، وفي بيان خطر انعدام الأخلاق يقول ﷺ: "إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ". قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: " إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "(٥).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٦٠).
(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٦٧٥٧).
(٣) رواه مسلم، حديث رقم (١٨١).
(٤) رواه مسلم، حديث رقم (١٢٦).
(٥) رواه البخاري، حديث رقم (٦٤٩٦).

وفي مجال التفصيل في دقائق الأخلاق وصورها يقول: " إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الأَمَانَةِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا "[1]، وفي جوامع ما كان يأمر به من الأخلاق يقول ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ. قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ[2]، وكل هذا غيض من فيض.

٢- الأخلاق مثوبة عظيمة ومكافأة جزيلة

المسلم حريص على الأجر، مجتهد في تحصيل الثواب والاستكثار من الحسنات، ولابد أن يدرك أن جني الحسنات ليس مخصوصاً بالعبادات من الصلوات والصدقات والتلاوة ونحوها فقط، بل التحلي بمحاسن الأخلاق له أجر عظيم وثواب جزيل، فهذا حديث المصطفى ﷺ يبين ما لحسن الخلق من الأجر والثواب حيث يقول: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ "[3]، وفي حديث آخر يبرز مثوبة حسن الخلق وثقلها وأثرها يوم القيامة كما في حديثه ﷺ القائل: " مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ "[4].

والأخلاق مذكورة في سياق أسباب دخول الجنة، وهذا ما دلت عليه الآيات وأثبتته الروايات، فالله جل وعلا يقول: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٤)، فالمتقون الذين أعدت لهم الجنان ذكرت الآية أوصافهم، فإذا هي أخلاق عظيمة، وهي السخاء والجود، في حالتي اليسر والغنى، أو الضيق والفقر، ثم كظم الغيظ والتجاوز والصفح.

وهذا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام يجعل مراتب الجنة مرتبطة بالأخلاق فيقول: " أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا،

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٢٥٩٨).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٢٦٨١).

(٣) رواه أحمد، حديث رقم (٢٥٠٥٧)؛ ورواه أبو داود، حديث رقم (٤٨٠٠).

(٤) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٧٩٩).

وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ "[1] فالجنة بمراتبها ربطت بمكارم الأخلاق، فكلما تحقق المرء بواحدة منها استحق المنزلة المعدة له في الجنة، ويكون فيها تحت زعامة أكمل الخَلق خُلقاً ﷺ.

ولعل إجابة الرسول عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تدل على الرتبة العليا للأخلاق حيث أجاب بقوله " تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ".

وثمة حديث أظهر في الترغيب في الأخلاق بذكر محاسن عاقبتها الأخروية وهو قوله ﷺ: " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا "[2] فأي رتبة أرفع ومكانة أعلى من محبة النبي ﷺ والقرب منه يوم القيامة.

٣- سوء الأخلاق عقوبة جسيمة وعاقبة وخيمة

في مقابل المثوبة تأتي العقوبة، وحسن الخُلق له الأولى، وسوء الخُلق يوقع في الثانية، وليس ترك العبادات وارتكاب الفواحش هو وحده سبب العقاب فحسب، بل سوء الخُلق له أثر كبير في استحقاق العقوبة كذلك، فقد توعد الله من اتصف بسوء الخُلق بعذاب أليم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الشورى: ٤٢).

وأذية الخَلق بسوء الخُلق من موجبات الإثم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٥٨).

ولا يمكن أن نجد بياناً أعظم في دلالة هذه الآية وتوضيح خطورة وضرر سوء الخلق وعاقبته الوخيمة من قول الرسول ﷺ لأصحابه: "أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللهِ؟" قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، قال: "أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ"، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب ٥٨)[3].

---

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٤١٦٧).

(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (٢١٥٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٠/٣١٥٣)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم (٦٧١١)؛ وانظر: تفسير ابن كثير (٦/٤٨١).

وقال تعالى في وصف من يستحق العذاب في النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر: ٤٢ – ٤٦). وتلك أسباب خلقية في سوء التعامل مع الضعفاء والمساكين.

ولإدراك خطر وسوء عاقبة الأخلاق الذميمة علينا أن نتأمل تنبيه الرسول على صفة من يدخل النار بأخلاقه القبيحة في قوله ﷺ : "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ، مُسْتَكْبِرٍ"[1] ، والعتل: الجافي الشديد الخصومة في الباطل، والجوّاظ: هو الجموع المنوع[2]. وفي الحديث تحذير وتخويف من التجبر والتكبر وسيء الأخلاق، وأنها من موجبات دخول النار.

ونختم هذا المعنى بحديث مفصل يبين أن سوء الخلق يؤدي إلى نقصان الحسنات وزيادة السيئات ودخول النار، والعياذ بالله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[3].

٤- الأخلاق منافع جليلة وتكليفات يسيرة

من محاسن المنهج القرآني ربطه بين الأخلاق ومنفعتها الفردية والاجتماعية، ومن جهة أخرى يبين القرآن أن الأخلاق مشمولة بحكمة الله ورحمته حين جعل أوامره داخلة في مجال القدرة البشرية وقائمة على اليسر والسهولة، ومن هنا فإن الأوامر الربانية في شأن الأخلاق لم ترد في صورة مطلقة سلطانها الواجب اللازم الأداء بحكم الأمر الرباني، بل جاءت ببيان الحكمة والمنفعة فهو " عندما يأمرنا أن نوفي الكيل ونزن بالقسطاس المستقيم يعقب على هذا الأمر بقوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الإسراء: ٣٥)، ولكي يسوغ قاعدة الحياء التي تطلب من الرجال أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم نجده يسوق هذا التفسير

---
(١) رواه البخاري، حديث رقم (٤٩١٨)، ومسلم، حديث رقم (٢٨٥٣).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص٢٥٧-٢٨٢).
(٣) رواه مسلم، حديث رقم (٤٦٧٨).

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ (النور: ٣٠) ، وبعد أن يأمرنا بتبين السبب قبل أن نصدر حكماً يقول: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦)، وكذلك نجد الأمر الذي يقتضينا أن نكتب ديوننا وآجال أدائها مفسراً بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ (البقرة: ٢٨٢) "[1]. فهذه التعليلات والحكم تبين منهج القرآن في كونه يساعد على الالتزام والقيام بالمسؤولية بما يبرزه من المنافع والمصالح.

وأما الوجه الآخر في التكاليف الأخلاقية فهو دخولها في عموم التشريعات التي ليس فيها تكليف بما لا يُطاق أو بما لا يُستطاع، فالله جل وعلا يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ويقول أيضاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧)، والمصطفى ﷺ يقول في شأن رفع المسؤولية والتكليف: " إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ" [2]، ويضاف إلى ذلك ما ورد من يسر الشريعة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (النساء: ٢٨).

---
(١) دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص ٥١).
(٢) رواه ابن ماجه، حديث رقم (٢٠٤٣).

خلاصة الوحدة الثانية

صلة الأخلاق بالإيمان، ومزاياها

ربطت كثير من نصوص الكتاب والسنة بين الإيمان ومكارم الأخلاق. فهناك صفات المؤمنين الجامعة بين الصفات الخلقية والإيمانية، كما أن نصوص الأحاديث النبوية أكدت على أن الأخلاق من شعب الإيمان، فضلاً عما ورد فيها من ربط كمال الإيمان بوجود أخلاق وتعاملات أخلاقية محددة، ويضاف إلى ذلك ذكر رذائل الأخلاق مرتبطاً بنفي كمال الإيمان، وكان لهذا الارتباط المنهجي بين الأخلاق والإيمان مزايا وآثار كبيرة على فهم دلالة الأخلاق، ومعرفة أهميتها، والعمل على التحلي بها والاجتهاد في التزامها في كل الظروف والأحوال. ومن هذه المزايا:

١- قدسية الفضائل الأخلاقية.

٢- استقرار وثبات الأخلاق.

٣- الترابط بين السلوك الأخلاقي والسعادة النفسية.

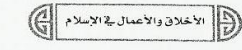
٤- التجرد في الممارسة الخُلُقية تعلقاً بالمثوبة الأخروية.

صلة الأخلاق بالعبادات، ومزاياها

من عظمة الإسلام أن جعل للفرائض العظمى والشعائر الكبرى ثمرات أخلاقية وآثاراً سلوكية. ففي الصلاة يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾. وفي الزكاة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وفي الصوم قال ﷺ: " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ". وفي الحج يقول تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾، ويقول المصطفى ﷺ: " مَنْ حَجَّ لِلَّهِ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ".

كما إن الآثار الأخلاقية التي في العبادات والفرائض تنعكس على الأخلاق بمزايا مهمة منها:

١- حضور وتأثير العنصر العاطفي في البناء الأخلاقي.



٢- تجديد وتأكيد وإحياء المعاني الأخلاقية بصفة منتظمة.

٣- امتداد الحضور الأخلاقي من الفرد إلى الأمة.

صلة الأخلاق بالمعاملات، ومزاياها

للبعد الأخلاقي حضور في النشاط الاقتصادي والمعاملات المالية، فهو يشتمل على تحريم الغش والاحتكار والربا والقمار، وغير ذلك من الأحكام.

كما أن في الإسلام أحكاماً شرعية كثيرة في مجال العلاقات الأسرية، بل فيه ما هو أكثر من ذلك، وهو جانب الأخلاق في هذه العلاقات، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُم لأَهْلِي ".

وجعل الإسلام عموم العلاقات قائمة على الأخلاق الحسنة، بقصد البر والتعاون عليه، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

ولاشك أن وجود الأخلاق في المعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية يضفي سمات ومزايا مهمة منها:

١- ضبط النوازع النفسية ومنع التجاوزات السلبية.

٢- إنسانية وأخلاقية معايير النجاح.

٣- إيجابية وانسيابية العلاقات الإنسانية.

٤- رفع كفاءة الإنتاج.

الأخلاق بين المسؤولية والجزاء

الأخلاق من أصول الإسلام الأصيلة، وغاياته النبيلة، ومحاسنه الجميلة، فهي وطيدة الصلة بالإيمان والعبادات والمعاملات، وفي الوقت نفسه ترتبط الأخلاق في الإسلام بالمسؤولية والجزاء، في الدنيا والآخرة، والمنهج الإسلامي أشد وضوحاً وأقوى دلالة وأعمق أثراً من غيره، ويبرز ارتباط الأخلاق بالمسؤولية والجزاء في الإسلام من خلال بيان الجوانب التالية:

١- الأخلاق أوامر ربانية وتكاليف شرعية.

٢- الأخلاق مثوبة عظيمة ومكافأة جزيلة.

٣- سوء الأخلاق عقوبة جسيمة وعاقبة وخيمة.

٤- الأخلاق منافع جليلة وتكليفات يسيرة.



الوحدة الثالثة

صناعة الأخلاق ومحفزاتها

- مظاهر ودلائل الأخلاق
- محفزات الأخلاق
- خصائص الأخلاق في الإسلام



مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس:

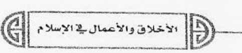
الأخلاق ليست كلها فطرية ولا كلها كسبية، بل منها ما هو فطري ومنها ما هو كسبي، والأمر وسط بينهما.

وتتجلى هذه الأخلاق من خلال مظاهر تدل عليها، وتشير إلى وجودها؛ لأن الخلق النفسي لا يُعرف إلا من آثاره، والمسلم مطلوب منه أن يتخلق بمكارم الأخلاق التي تظهر دلائلها في كلامه وسلوكه ومظهره وصحبته.

ولما كانت الأخلاق منها الفطري ومنها الكسبي، كان لا بد من محفزات لاكتساب فضائل الأخلاق التي تدفع إلى التزامها، وتعين على التحلي بها، ويحسن الاجتهاد في تحصيلها والأخذ بها.

كما يستدعي الأمر التعرف على الخصائص المهمة ذات الآثار النافعة التي تميزت بها الأخلاق في رحاب الإسلام، كالربانية والنموذجية والشمولية والانسجام.

حول هذه المعاني الرئيسة تطوف بك هذه الوحدة، فاحرص - **أخي الدارس**- على تعلمها؛ لتكون معيناً لك على التحلي بفضائل الأخلاق.



الأهداف التعليمية للوحدة الثالثة

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تعرف انقسام الأخلاق إلى وهبية وكسبية.

٢- توضِّح مظاهر ودلائل الأخلاق.

٣- تبيّن محفزات الأخلاق الدافعة إلى التزامها.

٤- تشرح خصائص الأخلاق في الإسلام.



صناعة الأخلاق ومحفزاتها

يثور السؤال دائماً عن التحلي بالأخلاق: هل هو أمر فطري؟ بمعنى أن الإنسان يُخلق وهو مفطور ومجبول على خلق معين ليس له فيه جهد، ولا له في تحصيله والتحلي به عمل واجتهاد. التصور المذكور ليس صحيحاً على إطلاقه، ولكنه يشتمل على جزء من الحقيقة؛ لأننا نرى عكسه فهناك من يكون على خُلق ثم يتغير، فربما كان متواضعاً فلما اغتنى تكبر وتجبر، وهناك من كان شديد الغضب ثم جاهد نفسه وروَّضها على التحمل وكظم الغيظ حتى صار حليماً، ولذا نجد من قال بأن الأخلاق كلها تكتسب ويمكن تعلُّمها والتربية عليها.

والحق أن الأخلاق ليست كلها فطرية ولا كلها كسبية، بل منها ما هو فطري ومنها ما هو كسبي، والأمر وسط بينهما، وقد وردت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن التعريف الاصطلاحي للخلق، والأخلاق تشتمل على النوعين. وهذا إيضاح القول وبيانه:

النوع الأول: أخلاق فطرية وَهْبِيَّة: وهي طبائع الناس الخُلُقية في أصل خلقتهم التي فطرهم الله عليها على اختلاف ما بين الناس من هذه الأخلاق والطبائع، فهذا هادئ الطبع وذاك سريع الغضب، وهذا سمح المُحيا، وذاك متجهم الوجه، وهذا كريم جواد، والآخر بخيل طماع، ورجل يحب الناس، وآخر يحسدهم ويحقد عليهم، وهكذا، وهذا أمر ملموس معروف بأن بعض الأخلاق هي جزء من خلقة الإنسان، ويشهد لذلك حديث النبي ﷺ حيث قال للأشج رضي الله عنه: **"إنَّ فيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ"**، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: **"بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا"**، قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[1].

وفي هذا السياق يستدل بعض أهل العلم بعموم قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٧ - ٨)، على أن النفس مجبولة على الخلق سيئاً أو حسناً، فهو فطرة وخلقة، وفي هذا

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٥٢٢٧)؛ وأوله في صحيح مسلم، حديث رقم (١٢٦).

الاستدلال نظر؛ لأن الآيات بعدها توضح المعنى بما يدفع هذا الاستدلال، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩ - ١٠)، وفيها دلالة على "إن مدار نجاة الإنسان في الآخرة من العقاب، وفوزه بالنعيم والسعادة الأبدية إنما هو على تزكية نفسه وتطهيرها من العقائد الوثنية الباطلة والأخلاق الفاسدة حتى تكون متخلية عن الأباطيل والشرور، متحلية بالفضائل وعمل البر والخير، ومدار الهلاك على ضد ذلك"(١).

كما أن هناك من استدل بحديث رسول الله ﷺ: "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "(٢)، باعتبار أن مرجع حسن الخلق إلى ما يتردد في الصدر، ولا ينشرح له، فهو أمر فطري؛ لكن الحديث ليس قاطعاً في هذه الدلالة، بل غاية ما يدل عليه هو " أنَّ الحقَّ والباطل لا يلتبِسُ أمرُهما على المؤمن البصير، بل يعرف الحقَّ بالنُّور الذي عليه، فيقبله قلبُه، ويَنفرُ عن الباطل، فينكره ولا يعرفه"(٣)، وهذا خاص بالمؤمن التقي النقي القلب.

النوع الثاني: أخلاق عملية كَسْبِيَّة: وهي الأخلاق الحسنة التي يكتسبها المرء ويتعلمها ويتعوَّد عليها، والاكتساب يكون بأن يعرفَ فضلها ويرغَّب فيها، كما أنه يُربى عليها ويُعوّد على التحلي بها من قِبل والديه ومعلميه، وقد يكون في طبعه الخَلْقي ما ليس متفقاً مع هذه الأخلاق الفاضلة فيحتاج إلى مجاهدة نفسه وتهذيبها واستمرار التقويم والتغيير حتى يتحلى بهذا الخلق ويتدرج فيه إلى أن يتمكن منه ويصبح من أخلاقه الثابتة بعد أن لم يكن كذلك.

ويدل على ذلك حديث النبي ﷺ : "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ "(٤). ومعنى الحديث أن "الصبر رزق من الله لا يستبد العبد بكسبه، وما يضاف إلى كسب العبد هو التصبر. فإذا حمل على نفسه التصبر أمده الله بكمال الصبر"(٥). فقد لا يكون في طبيعة الإنسان

(١) تفسير المنار. لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٥).
(٢) رواه مسلم . حديث رقم (٦٦٨٠).
(٣) جامع العلوم والحكم. لابن رجب (٢٥٣).
(٤) رواه البخاري. حديث رقم (١٤٦٩).
(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير. للمناوي (٥ /٥٧٠).

الأصلية خلق الصبر، بل ربما يكون سريع الجزع كثير التشكي، لكنه لإدراكه لفضيلة الصبر ومثوبته (يتصبَّر) أي يجاهد نفسه بحملها على الصبر، ويروضها على ترك الجزع، ويتدرج معها، حتى يتخلى عن خلق الجزع الذميم، ويتحلى بخلق الصبر الجميل.

وتتأكد دلالة ذلك في حديث النبي ﷺ : "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ"(١). فالحلم بالتحلم أي "ببعث النفس وتنشيطها إليه، قال الراغب: الحلم إمساك النفس عن هيجان الغضب، والتحكم إمساكها عن قضاء الوطر إذا هاج الغضب، (ومن يتحر الخير يعطه) أي ومن يجتهد في تحصيل الخير يعطه الله تعالى إياه "(٢).

ومن دلائل اكتساب الأخلاق ما ورد من دعوات النبي ﷺ ومنها "اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا" (٣). وكذا دعاؤه "اللهم اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ، لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ "(٤).

ويؤكد الغزالي حقيقة اكتساب الأخلاق وإمكان تعلمها والتحلي بها من خلال نظر عقلي وتمثيل عملي فيقول: " لو أن الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: "حَسِّنُوا أَخْلاقَكُم"، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن"(٥).

والخلاصة أن الخُلُق يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف حتى يصير له سجية وملكة، ومنه ما يكون جبلياً فطرياً، قال ابن القيم: " من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب "(٦).

مظاهر ودلائل الأخلاق

قبل الخوض في محفزات الأخلاق ودوافعها يحسن بنا أن نقف لنرى الصور التي تتجلى فيها الأخلاق من خلال مظاهر تدل عليها وتشير إلى وجودها؛ لأن الخلق النفسي لا يُعرف إلا من آثاره، والمسلم

(١) رواه الطبراني. المعجم الأوسط. حديث رقم (٢٧٣٨).
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير. للمناوي (٢ / ٧٢٢).
(٣) رواه مسلم. حديث رقم(٧٠٨١).
(٤) رواه أحمد. حديث رقم (٨٠٣).
(٥) إحياء علوم الدين. للغزالي (٤/ ٧٤).
(٦) مدارج السالكين. لابن القيم (٢ / ٣١٥).

مطلوب منه أن يبتعد عن الألفاظ والأعمال والمظاهر التي تؤدي إلى اتهامه بالخلق الهابط، كما جاء في بعض الآثار "من عرض نفسه للتهم فلا يَلُومَنَّ من أساء به الظن" (١).

وأبرز ما يدل على أخلاق الإنسان أربعة أمور:

الأول: الكلام

فإن الإنسان صندوق مقفل، فإذا تكلم أبان عما هو كامن داخل نفسه، ولذلك قيل في وصف اللسان بأنه: "أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير..." (٢).

وقد تعارف الناس على أن الألفاظ والعبارات التي يفوه بها الإنسان تدل على أخلاقه – غالباً – فإذا تكررت منه تلك الألفاظ ترجح أنه متصف بذلك الخلق الذي تدل عليه ألفاظه، فخلق الصدق يُعرف بكلام صاحبه، وكذلك خلق الكذب والغيبة والنميمة.

وبذاءة اللسان تدل على الوقاحة، وحسن القول يدل على الحياء وعفة النفس، وهذا ما أشار إليه بعض العرب بقولهم: "إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسنة بالفروع"(٣).

ولولا أن اللسان معبر عن الأخلاق الكامنة لما أمر الله بإقامة الحد على القاذف، ولما أوجبت الشريعة تعزير شاهد الزور، ونحو ذلك من العقوبات الدنيوية والأخروية المترتبة على عمل اللسان، حتى قال بعض أهل العلم: "وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى، قال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتُها مغارفُها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعمَ قلبه اغترافُ لسانه، أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك" (٤).

(١) ذخيرة الحفاظ، لابن القيسراني (٢/٩٣٢).
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي (ص ٤٣).
(٣) جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت (٣/٢٩١). ذكره الأصمعي عن بعض الأعراب.
(٤) الجواب الكافي، لابن القيم (ص ١٥٩).

الثاني: السلوك العملي

والمراد به الأعمال والتصرفات التي تجري من الإنسان، ودلالتها على الأخلاق بينة، فالإنفاق بسخاء دليل الكرم، والإمساك عن العطاء دليل البخل، والانفعال السريع دليل الغضب، ولين الجانب والأخذ بالأسهل دليل الرفق، كما أن القسوة والشدة دليل العنف.

ويدخل في السلوك العملي جميع أعمال الجوارح كاليد بطشاً وكتابة، وكذلك عمل القدمين، والعين، والبطن، والفرج، ولا يُستثنَى من الجوارح هنا إلا اللسان لاختصاصه الكبير في الدلالة على الأخلاق، ولكونه أسرع الجوارح حركة، وأكثرها إبانة عن أخلاق صاحبه.

الثالث: المظهر الخارجي

والمراد به هيئة الإنسان وملبسه، وما يصنعه بشعر رأسه ولحيته وشاربه، وما يضعه في أصابعه أو معصمه أو رقبته ونحو ذلك، مما له علاقة بالمظهر الذي يظهر به الإنسان أمام الآخرين، وهذا مؤشر على الخلق الكامن، وليس دليلاً مثل الكلام والتصرفات العملية.

ومن المعلوم بداهة أن لو ذهب إنسان إلى أمير أو ملك بثياب النوم أو ملابس السباحة مثلاً لطرد وعوقب؛ لما في هذا المظهر من دلالة على الاستخفاف، ولو ذهب شاب يخطب فتاة وهو يرتدي الزي الرياضي لرفض ووُبِّخ؛ لما في مظهره من دلالة على ازدراء المخطوبة وأهلها.

بل إن المظهر الخارجي هو أول إشارة تفيد عن بعض أخلاق صاحبه، وأول انطباع يرتسم في أذهان الآخرين عنه. ولخطورة المظهر الخارجي ولدلالته على الكامن من أخلاق صاحبه "لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ" (١)، وأخبر ﷺ أن "مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ" (٢)، وحذر أهل الإسلام من الألبسة الشاذة في لونها أو تفصيلها، فقال ﷺ: "مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ" (٣).

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٥٨٨٥).
(٢) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٠٣٣).
(٣) رواه ابن ماجة، حديث رقم (٣٦٠٦).

ومن أوضح الأدلة على أن المظهر الخارجي للإنسان يدل على خلقه نهي النبي ﷺ عن إسبال الرجل ملابسه إلى ما تحت الكعبين، مبيناً أن هذا من الخيلاء والكبر الذي يبغضه الله تعالى، قال ﷺ: "وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ؛ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المَخِيلَةَ"[1].

ويلحق بذلك المظاهر في المسكن والمركب، فمن خلال ما في المنزل من مواد البناء، وأنواع الطلاء، مع ما فيه من الأثاث، يمكن أن يشير إلى خلق الإسراف والتبذير، وربما البخل والتقتير، أو التواضع والبساطة، وفي التصميم ومراعاة الخصوصيات قد ترى ما يدل على التبعية والتقليد، وقد تكون هناك بصمات تبرز الأصالة والمحافظة على الهوية.

الرابع: الصاحب والصديق

هذا مؤشر على أخلاق الشخص، إذ من المعلوم – في غالب الأحوال – أن الإنسان يصاحب من يناسبه في الطباع والأخلاق، أما الصداقة فلا تكون ولا تستمر في أكثر الأحوال إلا إذا توافقت أخلاق الطرفين وتشاكلت طباعهما، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء: ٨٤).

أي كل أحد من الناس يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى من يماثله خُلقاً وطبعاً، وكل امرئ يهفو إلى من يحبه، فالنفوس الزكية ذات الأخلاق المرضية تنجذب بذاتها وهمّتها وأعمالها إلى أصحاب الصفات العلية، والنفوس السافلة تنجذب إلى من هو أدنى وأسفل، وقال بعض العلماء: "إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه هو الاعتبار بمن يحادثه ويودّه؛ لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع، وما رأيت شيئاً أدل على شيء – ولا الدخان على النار – مثل الصاحب على الصاحب"[2].

محفزات الأخلاق

بعد وضوح الرؤية بأن الأخلاق يمكن – في الجملة – اكتسابها بالتعلم والمجاهدة فإن من المناسب أن نذكر محفزات الأخلاق الفاضلة التي تدفع إلى التزامها، وتعين على التحلي بها، ويحسن الاجتهاد في تحصيلها والأخذ بها، وهذه خلاصة عن هذه المحفزات:

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٠٨٤).

(٢) الجواب الكافي، لابن القيم (ص١٠٨).

أولاً: الإيمان والجزاء

إن أعظم داع للتحلي بالأخلاق الفاضلة هو أنها جزء من الإيمان، وأنها من دلائل قوة وكمال الإيمان، كما مرَّ بنا سابقاً، فحرص المسلم على إيمانه رسوخاً وكمالاً يجعله يحرص على الخلق الحسن، والمثوبة الواردة في النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بما فيها من الأجور العظيمة والمنازل الكريمة للخلق الحسن، فضلاً عن كون الأخلاق من صفات المؤمنين التي تميزهم بسمت الفضائل والمحاسن، وهذه الأمور كلها تحفز المسلم وتعلق طموحه وأمله بأن يتحلى بسائر الأخلاق الحميدة، وذلك يشكل حافزاً عظيماً، ودافعاً كبيراً للتحلي بالأخلاق الفاضلة.

ومن جهة أخرى فإن الإيمان كما هو أعظم دافع للتحلي بالخلق الحسن، فهو – كذلك- أعظم مانع من الوقوع في رذائل الأخلاق، فالإيمان يقوي الحياء من الله فيردع صاحبه عن القبائح، ويزيد التقوى والمراقبة لله فيجتنب الفواحش.

ثانياً: الإنسانية والفطرة

إن الفطرة البشرية بما فيها من المشاعر والمعاني الإنسانية تعد مصدراً أساسياً، ومحفزاً ودافعاً ذاتياً، للتجمل بالخلق الحسن، وقد " أودع الله في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها، وتستطيع أن نسمي ذلك (الحس الأخلاقي)" [1]، لأن القرآن " علّمنا أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الأول الإحساس بالخير وبالشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٧ - ٨)، وكما وهب الله الإنسان ملكة اللغة والحواس الظاهرة فإنه زُوِّد أيضاً ببصيرة أخلاقية ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (القيامة: ١٤ - ١٥)، ولقد هدي الإنسان طريقي الفضيلة والرذيلة ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (البلد: ٨ – ٩)، حقاً ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣). ولكن الإنسان قادر على أن يحكم أهواءه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠)" [2].

ونحن نرى أناساً غير متدينين بدين معين ونرى لديهم نزعة أخلاقية مميزة في إغاثة الملهوف

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، للميداني (٧٢/١).

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص ٢٧).

ونصرة المظلوم ومساعدة المحتاج، والباعث على ذلك هو المشاعر الإنسانية التي في أصل الفطرة التي تفيض بالرحمة والشفقة أمام مظاهر العجز والفاقة، كما تثور حميتها عند وقوع الظلم على الضعيف الذي لا يملك الانتصار لنفسه.

ومن هنا فإن المحافظة على سلامة الفطرة من الفساد، وتقويتها بتحريك المشاعر تفاعلاً مع المواقف، من المحفزات والدوافع الأخلاقية المهمة ذات الآثار الإيجابية الطيبة التي نرى لها أمثلة كثيرة في واقعنا المعاصر، كما لها – كذلك – أمثلة كثيرة في التاريخ، حتى إن الفطرة الأخلاقية كانت وراء تحرك بعض الكفار في الجاهلية لإبطال حصار الشعب على الرسول ﷺ، فقد قام زهير بن أبي أمية فقال: "يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة"[1].

ثالثاً: التربية والمسؤولية

التربية الصالحة والتنشئة السليمة قوامها الأخلاق الفاضلة، والتربية على الأخلاق ذات تأثير كبير، وبصمة ثابتة في البناء الأخلاقي للأفراد، وما من شك أن للوالدين أثراً كبيراً على أبنائهم في غرس الخصال الحميدة أو اقتباس الأخلاق الذميمة، وبصمات التربية الأسرية في الصغر هي الأقوى في التأثير والأبقى في الدوام والاستمرار، والله جل وعلا بيّن عظمة مسؤولية التربية على الوالدين في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (التحريم: ٦).

وفيما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من موعظة لقمان لابنه ما يدل على أهمية الدور التربوي في صقل وصناعة الأخلاق في الأبناء، وقد حفلت تلك الوصية بالأخلاق كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ (لقمان: ١٨-١٩)، وفي ذات السياق يأتي حديث النبي ﷺ: "**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا**"[2].

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٠).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٨٩٣).

ونرى تأكيد أهمية التربية الخلقية للأطفال في مقالات العلماء، فالماوردي يبين مهمة الآباء في غرس الأخلاق في الأبناء فيقول: "فأما التأديب اللازم للأب، فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها، وينشأ عليها، فيسهل عليه قبولها عند الكبر، لاستئناسه بمبادئها في الصغر، لأن نشأة الصغير على شيء تجعله متطبعاً به، ومن أغفل في الصغر، كان تأديبه في الكبر عسيراً"[1].

ومن المفاصل التربوية المهمة التعويد على إدراك المسؤولية، وتحمل تبعتها، ولهذا أكبر الأثر على التربية الأخلاقية، واليك ما يبين الأثر الأخلاقي لذلك في هذه النقاط:

١- القاعدة في تحمل الطفل للمسؤولية أن اعتماد الطفل على نفسه يبدأ من اعتماد الأبوين عليه في بعض المسؤوليات اليسيرة، فتعويد الطفل على أن يتحمل مسؤولية أغراضه الشخصية من ترتيب ملابسه وتنظيم حجرته، يعوِّده على الجدِّ والعمل، ويبعده عن التراخي والكسل.

٢- تعزيز السلوك الحسن بالثناء والتشجيع والمكافأة، والتحذير من السلوك الخاطئ بالتنبيه والتأنيب والمعاقبة بأسلوب تربوي ملائم، ونتيجة لذلك يترسخ لدى الطفل حب الأخلاق الفاضلة، ويشعر بأثرها من خلال ممارسته الذاتية دون تدخل مباشر من والديه أو معلِّمه.

٣- تعزيز الشخصية الذاتية للصغير بإعطائه حقَّه وتقدير رأيه، كما روى سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ هُوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ، وَالْأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، قَالَ: "**يَا غُلَامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ الْأَشْيَاخَ**"، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ[2]. وبهذا يتحلى بالشخصية القوية والجرأة الأدبية، ولا يكون ضعيف الثقة بنفسه، ولا جباناً ضعيفاً.

ونستطيع القول: إن التربية الأسرية في الصغر، والتربية التعليمية في مراحل التعليم المختلفة، سيما الأولى منها، تعتبر من الدوافع الكبرى المؤثرة في التزام مكارم الأخلاق والتحلي بمحاسن الآداب، وهي من أبرز المؤثرات على المجتمعات في الصبغة الأخلاقية للأجيال الناشئة.

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص٢٨٦).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٢٣٦٦).

رابعاً: الأوضاع الاجتماعية

تعتبر مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، ومكوناً أساسياً في بناء المجتمعات، كما تمثل الصورة الحضارية للمجتمعات، والانعكاس العملي لقيمها ومبادئها، ومعلوم أن شيوع الأخلاق الفاضلة في أي مجتمع يعتبر رافداً من روافد البناء الأخلاقي لأفراده، والعكس صحيح، بل إن بعض العلماء يعدُّون المجتمع من مصادر الإلزام الخلقي، فحينما يتراضى مجتمعٌ ما على مجموعة من الأخلاق والعادات والأعراف تصبح معياراً لأفراده يحرصون على امتثالها وعدم مخالفتها.

ويمكن أن نتصور تدرُّجاً مستنبطاً من الواقع العملي في حركة المجتمع يوضح لنا كيفية الوصول إلى الخلق والعرف الاجتماعي المستقر، حيث إن تصرف الفرد يسبقه باعث يدعو إليه، إما من داخله ميلاً ومحبة، أو من خارجه طاعة واحتراماً، أو حاجة ومنفعة، فإذا أنفذ الرغبة وحقَّقَ العمل ثم كرَّره صار عادة عنده، ثم يتأثر به غيره فيقلّده، وتتسع دائرة المحاكاة وينتشر الفعل بين طوائف كبيرة من المجتمع بالتدريج، فيصبح حينئذ عادة مشهورة، ثم شيئاً فشيئاً يكون شيوع العادة مانعاً من مخالفتها، بل وتصبح المخالفة شذوذاً اجتماعياً قد يتبعه صور من العقوبة الاجتماعية.

وقد ذكر أثر السلطة الاجتماعية على الأخلاق كثير من الفلاسفة الغربيين، ومنهم الفيلسوف الفرنسي(هنري برجسون) حيث قال: " إننا نؤدي الدور الذي عيَّنه لنا المجتمع، ونتبع الطريق التي رسمها لنا، ثم نسلّم قيادنا لهذه الطريق، نترسمها كل يوم بنوع من العادة لا يكاد يخالطه تفكير، أشبه شيء بغريزة النحلة أو النملة، وذلكم هو ما يسمى عادة بالوفاء بالواجب، ولو أننا قاومنا ذلك لحظة، أو حاولنا أن نعدل من سيره فإننا لا نلبث أن نرتد إليه شئنا أو أبينا بفضل تلك القوة القاهرة للحياة الاجتماعية".

ثم يبين أن هذا لا يخضع له الجميع، بل هناك من يقاومه في حال كان الخلق والسلوك الاجتماعي خاطئاً أو سيئاً، فيقول: " أخلاق المتازين منهم هي طموح إلى المثل الأعلى، فهي نقلة على جناح الحب المبدع، الذي ينزع لا إلى توجيه سلوك الفرد وجهة أفضل فحسب، بل إلى جذب المجتمع معه وقيادته بدلاً من أن يكون مقوداً له" [1].

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد دراز (ص ٢٣).

ومن هنا نقول: إن شيوع الأخلاق الفاضلة في المجتمع يعتبر من أبرز العوامل المساعدة على التزام الأخلاق من عدة وجوه:

١- إظهار الأخلاق الفاضلة وبيان آثارها الإيجابية في صورة عملية من جميع النواحي الاجتماعية والأمنية والاقتصادية.

٢- المجتمع الأخلاقي يعبر عن سمو قيمي، ورقي حضاري، وثراء ثقافي، يصنع أحسن صورة وسمعة للمجتمع، ويدعو أفراده للأخلاق الفاضلة، ليكونوا جزءاً من هذه المنظومة؛ تعزيزاً لها ومحافظة عليها.

٣- المجتمع الأخلاقي يجعل لصاحب الخلق الحسن مكانة اجتماعية مرموقة، وسمعة حسنة، وصيتاً طيباً، وذلك يُرغِّب في تلك الأخلاق ويدعو إليها.

٤- المجتمع الأخلاقي يحاصر الأخلاق السيئة ولا يقبلها، وبالتالي يكون صاحبها في موضع الذم والرفض الاجتماعي الذي يتحاشاه كل الناس، فيزداد حرصهم على البعد عن تلك الأخلاق القبيحة والتوافق مع المجتمع بالتحلي بالأخلاق الحسنة.

ومن جهة أخرى فإن انتشار الأخلاق السيئة وعمومها في المجتمع يعتبر من أخطر مهددات المجتمعات والأمم، فهو من أسباب الانحلال السلوكي والفساد المالي والاختلال الأمني، ومن أبرز المخاطر لما تعانيه كثير من مجتمعاتنا اليوم من الضعف الأخلاقي ما يلي:

١- التأثير على المفاهيم الصحيحة في معرفة وتقييم الأخلاق، حتى يصل الأمر إلى انقلاب الموازين، فيصبح الخُلُقُ الحسنُ مذموماً، ويعدُّ عيباً يبعد الناس عنه.

٢- إفساد الحس الأخلاقي، والضمير القيمي، النَّابع من التَّدين الحق والفطرة السوية، بحيث لا تحب النفس الخلق الحسن، ولا تميل إلى صاحبه، كما لا تشمئز من الخلق السيئ، ولا تنفر من صاحبه.

٣- تقديم الأخلاق القبيحة كنموذج حسن، مع القبول والمكانة، مما يدعو إلى الترغيب فيها والدعوة إليها.

٤- شيوع الأخلاق السيئة يحاصر غيرها، ويجعل المتحلي بضدها من الأخلاق الحسنة يعيش في معاناة في حياته العامة، ويصبح شاذاً ومرفوضاً.

ومن هنا فإن الأخلاق الاجتماعية يمكن وصفها بأنها سلاح ذو حدين، ولكن الواقع المعاصر للمجتمعات غلب عليها الضعف الخلقي، وانتشرت فيها كثير من الأخلاق السيئة، وصارت هي السمة الغالبة عليها والعرف السائد فيها، ومنهج الإسلام يحمي أفراده من الانجراف مع التيار والانسياق مع الجمهور؛ لأن المعيار ليس فعل الناس، بل هو ميزان الشرع وما جاء به الكتاب والسنة.

خامساً: القدوة الحضارية

لا بد أن يدرك المسلم أنه قدوة يُمثِّل إسلامه، ويُقدِّم نموذجاً للقيم والأخلاق الإسلامية، ويعكس صورة حضارية عن الأمة الإسلامية، لاسيما إن كان يعيش في مجتمعات دياناتها وحضاراتها غير إسلامية، وقد وصفت عائشة ﷺ خلق المصطفى ﷺ بأنه "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ "[1]؛ لأنه كان يتخلق بأخلاقه ويتأدب بآدابه، فكل خلق من الأخلاق مأمور به في القرآن كان النبي ﷺ متحلياً به، وهذا يدل على أن الأصل في المسلم أن يتحلى بأخلاق القرآن ويجسدها في واقع الحياة؛ لأن القرآن دستوره، وهو كلام ربه، وهداية خالقه.

ومن جهة أخرى فإن المسلم مدعو إلى أن يعكس الصورة الخلقية المثلى لرسوله ﷺ صاحب الخلق العظيم، وهذا الالتزام الخلقي أصدق براهين الانتساب والمحبة لرسول الله ﷺ، والمسلمون الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة قدَّموا نموذجاً رائعاً لذلك قارنوا فيه بين مجتمعين وحضارتين، وأظهروا تميزهم الأخلاقي ورقيهم الحضاري بإسلامهم العظيم، كما جاء في مقولة جعفر بن أبي طالب ﷺ: "أَيُّها المَلِكُ؛ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ،حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ. فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ، مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ. وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ – وعند البيهقي زيادة :"وَكُلِّ مَا يُعْرَفُ مِنَ الأَخْلاقِ الْحَسَنَةِ" – وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ

(١) رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (١٧٥٥).

وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ. وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ. قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا" [1]، فهذا القول يكشف أن الصحابة تأثروا بالانقلاب الأخلاقي الذي جاء به الإسلام ورأوه متجسداً في رسولهم وقدوتهم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ونخلص مما سبق إلى أن استشعار مسؤولية الانتماء إلى الإسلام ديانة وشريعة، والارتباط بالرسول ﷺ رسولاً وقدوة، والانتساب إلى الأمة الإسلامية تاريخاً وحضارة، كل ذلك يدفع المسلم ويحفزه إلى الحرص على التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وأن يكون قدوة أخلاقية حضارية تدعو إلى الإسلام بلسان الحال قبل لسان المقال، وليكون قدوة مؤثرة في وسط إخوانه المسلمين ليقدموا جميعاً نموذجاً للمجتمع الإسلامي بأخلاقه وآدابه.

وفي مقابل ذلك يجتنب المسلم الأخلاق الرديئة لئلا يكون من أسباب تشويه صورة الإسلام والتنفير منه كما يحصل من بعض المسلمين سيما في الدول الأجنبية.

خصائص الأخلاق في الإسلام

الأخلاق في رحاب الإسلام تتميز عن غيرها بخصائص مهمة ذات آثار نافعة، ومن أبرزها:

١- الربانية: فالأخلاق الإسلامية ليست من نتائج اجتهاد بشري، ولا خلاصة لتجارب إنسانية، ولا ثمرة لقوانين وضعية، بل هي توجيهات وإرشادات ربانية، وأحكام وتشريعات إلهية، وردت بها آيات قرآنية كثيرة كما مر بنا، وذلك يجعل لها في نفوس المسلمين مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، وتحظى منهم بعناية فائقة، ورعاية كريمة.

ويتصل بالربانية جانب التعبد، فالمسلم يبتغي بالخلق الحسن وجه الله، ويلتمس به رضاه، ويعلم أنه متعبد لله بمجاهدة نفسه على التزام الأخلاق القرآنية، كما يعرف أنه مثاب على ذلك بالحسنات، كما هو الحال في أداء فرائض العبادات.

(١) رواه أحمد، حديث رقم (١٧٤٠). والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم (٨١).

وتلك الربانية تجعل الدافع الأخلاقي ذاتياً، فالمسؤولية الأخلاقية مسؤولية ذاتية أمام الله والضمير، والأجر فيها إلى الله تعالى، وليست لمجرد مراعاة الناس، أو للاقتصار على تحقيق مكاسب أو مصالح ذاتية وآنية على حساب الالتزام الإيماني بالأخلاق.

٢- النموذجية: فالأخلاق الإسلامية ليست مجرد تنظير محلق في الخيال غير مرتبط بالواقع، بل هي أخلاق نموذجية لها آفاقها السامية، ومثاليتها العالية، وطموحاتها البعيدة، لكنها واقعية من حيث الإمكان في تحقيقها، واليسر في تطبيقها، ويمكن أن نمثل للجمع بين الواقعية البشرية والقيمة الأخلاقية بقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٠)، وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦)، ففي الآيتين تقرير للعدل بأخذ الحق والرد بالمثل، لكن فيهما أيضاً سمو بالخلق من العدل إلى الفضل بالدعوة للعفو والصفح.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، بيان للطبيعة البشرية الواقعية التي قد تقع في المحظور، فتثبت الآية ذلك، ثم تبرز الجانب المشرق من الرجوع عن الإثم، وعدم الإصرار على الذنب، وتقدم المخرج بالاستغفار والتوبة.

والأبرز في هذا الصدد هو وجود المثل الحي للأخلاق الإسلامية، فهي متجسدة في صورة نموذجية تمثل القمة الأخلاقية في الكمال الإنساني من خلال سيرة المصطفى ﷺ صاحب الخلق العظيم، وهو الذي نُصب للأمة أسوة حسنة وقدوة صالحة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

٣- الشمولية: فالأخلاق الإسلامية ليست مقتصرة على الأخلاق الفردية، ولا محصورة في الأخلاق الأسرية، بل تشمل ذلك إضافة إلى دائرة أوسع في الأخلاق الاجتماعية، فضلاً عن تناولها للأخلاق في سائر أحوال الحياة البشرية في السلم والحرب، وفي تقلبات الطبيعة الإنسانية في الغضب والرضا، وفي جميع أنواع الصلات البشرية مع الصديق والعدو، إضافة إلى كونها تشمل التعامل مع البشر في كل أحوالهم وسائر علاقاتهم، كالآباء والأبناء، والرعية والرعاة، والعاملون وأرباب العمل، وتزيد كذلك

في تناولها للتعامل مع الحيوان والجماد والبيئة، في منظومة شاملة متكاملة ليس لها نظير، وقد اجتهد بعض العلماء وقدّموا نماذج من الآيات القرآنية التي تتناول الأخلاق الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والدينية، وأخلاق الدولة، مع تبويب وعناوين للأخلاق تندرج تحتها الآيات، وهو نموذج يستحق التأمل ويوضح هذا الشمول[1].

٤- الانسجام: فالأخلاق الإسلامية منسجمة مع الفطرة السوية ومتوافقة معها، فليس فيها سمو خلقي موهوم يعارض طبيعة النفس البشرية، فيدعوها للرهبانية والانقطاع عن الدنيا، بل نجد الرد على ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد: ٢٧)، وفي ذات المعنى وبتصريح أوضح يأتي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ومن طبيعة هذا التوافق والانسجام مع الفطرة أنه يحقق تلقائياً التوافق مع العقل الرشيد، دون معارضة مناقضة ولا غموض محير، بل نجد في الآيات القرآنية الأخلاقية خطاباً مقنعاً للعقل، وذلك بإيراد علة التزام الخلق والمصلحة والثمرة المتحققة منه، كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

---

(١) انظر: آخر كتاب دستور الأخلاق في القرآن. لمحمد دراز (ص٦٨٩ – ٧٧٨).

خلاصة الوحدة الثالثة

أقسام الأخلاق

الأخلاق ليست كلها فطرية ولا كلها كسبية، بل منها ما هو فطري ومنها ما هو كسبي، والأمر وسط بينهما، والأخلاق تشتمل على النوعين: النوع الأول: أخلاق فطرية وَهْبِيَّة: وهي طبائع الناس الخُلُقية في أصل خلقتهم التي فطرهم الله عليها، على اختلاف ما بين الناس من هذه الأخلاق والطبائع. النوع الثاني: أخلاق عملية كَسْبِيَّة: وهي الأخلاق الحسنة التي يكتسبها المرء ويتعلمها ويتربى ويتعوَّد عليها.

مظاهر ودلائل الأخلاق

الخلق النفسي لا يُعرف إلا من آثاره، والمسلم مطلوب منه أن يبتعد عن الألفاظ والأعمال والمظاهر التي تؤدي إلى اتهامه بالخلق الهابط، وأبرز ما يدل على أخلاق الإنسان أربعة أمور، هي : الكلام، والسلوك العملي، والمظهر الخارجي، والصاحب والصديق.

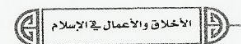
محفزات الأخلاق

للأخلاق الفاضلة محفزات تدفع إلى التزامها، وتعين على التحلي بها، ويحسن الاجتهاد في تحصيلها والأخذ بها، وهذه خلاصتها:

أولاً: الإيمان والجزاء: فهي جزء من الإيمان، ودلائل كماله، ولصاحبها أجر عظيم عند الله.

ثانياً: الإنسانية والفطرة: فالفطرة البشرية بما فيها من المشاعر والمعاني الإنسانية تعد مصدراً أساسياً، ومحفزاً ودافعاً ذاتياً، للتجمل بالخلق الحسن، وقد أودع الله في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها.

ثالثاً: التربية والمسؤولية: فالتربية الأسرية في الصغر، والتربية التعليمية في مراحل التعليم المختلفة سيما الأولى منها، تعتبر من الدوافع الكبرى المؤثرة في التزام مكارم الأخلاق، والتحلي بمحاسن الآداب، وهي من أبرز المؤثرات على المجتمعات في الصبغة الأخلاقية للأجيال الناشئة.



رابعاً: الأوضاع الاجتماعية: إذ تعتبر مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، ومكوناً أساسياً في بناء المجتمعات، كما تمثل الصورة الحضارية للمجتمعات، والانعكاس العملي لقيمها ومبادئها. فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، وشيوعها يساعد على التزام الأخلاق من عدة وجوه:

١- إظهار الأخلاق الفاضلة وبيان آثارها الإيجابية في صورة عملية.

٢- المجتمع الأخلاقي يعبر عن سمو قيمي ورقي حضاري وثراء ثقافي.

٣- المجتمع الأخلاقي يجعل لصاحب الخلق الحسن مكانة.

٤- المجتمع الأخلاقي يحاصر الأخلاق السيئة ولا يقبلها.

كما أن انتشار الأخلاق السيئة من أخطر مهددات المجتمعات والأمم، ومن أسباب الانحلال والفساد والاختلال، ومن أبرز مخاطر ما تعانيه مجتمعاتنا من الضعف الأخلاقي:

١- التأثير على المفاهيم الصحيحة في معرفة وتقييم الأخلاق.

٢- إفساد الحس الأخلاقي، والضمير القيمي، النَّابع من التَّديّن الحق والفطرة السوية.

٣- تقديم الأخلاق القبيحة كنموذج حسن.

٤- شيوع الأخلاق السيئة يحاصر غيرها ويجعل المتحلي بضدها من الأخلاق الحسنة يعيش في معاناة في حياته العامة، ويصبح شاذاً ومرفوضاً.

خامساً: القدوة الحضارية: فإن استشعار مسؤولية الانتماء إلى الإسلام ديانة وشريعة، والارتباط بالرسول ﷺ رسولاً وقدوة، والانتساب إلى الأمة الإسلامية تاريخاً وحضارة، كل ذلك يدفع المسلم ويحفزه إلى الحرص على التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وأن يكون قدوة أخلاقية حضارية تدعو إلى الإسلام بلسان الحال قبل لسان المقال، وليكون قدوة مؤثرة في وسط إخوانه المسلمين ليقدموا جميعاً نموذجاً للمجتمع الإسلامي بأخلاقه وآدابه. وفي مقابل ذلك يجتنب المسلم الأخلاق الرديئة لئلا يكون من أسباب تشويه صورة الإسلام والتنفير منه كما يحصل من بعض المسلمين سيما في الدول الأجنبية.

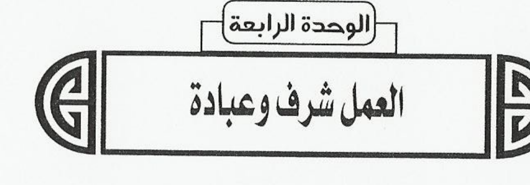
خصائص الأخلاق في الإسلام:

١- الربانية: فالأخلاق الإسلامية ليست من نتائج اجتهاد بشري، ولا خلاصة لتجارب إنسانية، ولا ثمرة لقوانين وضعية، بل هي توجيهات ربانية، وتشريعات إلهية. كما أن الربانية تجعل الدافع الأخلاقي ذاتياً، فالمسؤولية الأخلاقية مسؤولية ذاتية أمام الله والضمير، والأجر فيها إلى الله تعالى، وليست لمجرد مراعاة الناس.

٢- النموذجية: فالأخلاق الإسلامية ليست مجرد تنظير محلق في الخيال غير مرتبط بالواقع، بل هي أخلاق نموذجية لها آفاقها السامية، ومثالياتها العالية، وطموحاتها البعيدة، لكنها واقعية من حيث الإمكان في تحقيقها، واليسر في تطبيقها. والأبرز في هذا الصدد هو وجود المثل الحي للأخلاق الإسلامية، متجسدة من خلال سيرة المصطفى ﷺ صاحب الخلق العظيم.

٣- الشمولية: فالأخلاق الإسلامية ليست مقتصرة على الأخلاق الفردية، ولا محصورة في الأخلاق الأسرية، بل تشمل ذلك إضافة إلى دائرة أوسع في الأخلاق الاجتماعية، فضلاً عن تناولها للأخلاق في سائر أحوال الحياة البشرية في السلم والحرب، وفي تقلبات الطبيعة الإنسانية في الغضب والرضا، وفي جميع أنواع الصلات البشرية مع الصديق والعدو، إضافة إلى كونها تشمل التعامل مع البشر في كل أحوالهم وسائر علاقاتهم، وتزيد كذلك في تناولها للتعامل مع الحيوان والجماد والبيئة.

٤- الانسجام: فالأخلاق الإسلامية منسجمة مع الفطرة السوية ومتوافقة معها، فليس فيها سمو خلقي موهوم يعارض طبيعة النفس البشرية، فيدعوها للرهبانية والانقطاع عن الدنيا. وهو توافق وانسجام مع الفطرة يحقق تلقائياً التوافق مع العقل الرشيد، دون معارضة مناقضة، ولا غموض محير.



الوحدة الرابعة

العمل شرف وعبادة

- مفهوم الاستخلاف في الأرض
- العمل في المفهوم الإسلامي



مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس:

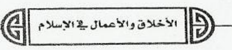
الإنسان هو المخلوق المميز بالخلافة الكبرى والمهمة العظمى التي لأجلها خلق الله المخلوقات.

وليس العمل أو الاحتراف للكسب شأناً خاصاً بحاجة الإنسان لا دخل للدِّين فيه، فالإسلام نظرته أشمل؛ إذ يُدْخل العمل في دائرته، ويُورده في تشريعاته، ويجعل له مكانته في الشرف والقدر، كما يجعل له ثمرته في الثواب والعقاب.

والمهنة نوع من أنواع العمل للكسب؛ فالنصوص الواردة في العمل تتناولها بمنطوقها ومفهومها.

وهكذا يأتي العمل في سياق حضاري عظيم، إذ هو ليس لمجرد كسب الرزق، ولكنه لعمارة الأرض، وليس لمجرد استخراج بعض الخيرات، ولكنه لتحقيق أسمى الغايات، وهو كذلك مرتبط بخَلْق الإنسان والغاية من وجوده؛ لإقامة العمران، فهو ووجود الإنسان والعمران وجهان لعملة واحدة.

فاحرص - **أخي الدارس** - على دراسة هذه الوحدة؛ للتعرف على ذلك كله.



الأهداف التعليمية للوحدة الرابعة

عزيزي الدارس:

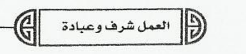
يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تعرف مفهوم الاستخلاف في الأرض.

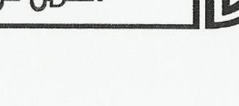
٢- تبيّن مفهوم العمل لغة واصطلاحاً.

٣- تعرف مفهوم المهنة والوظيفة، وارتباطهما بالعمل.

٤- توضّح النظرة الإيجابية المتوازنة للعمل في الإسلام.







العمل شرف وعبادة

مفهوم الاستخلاف في الأرض

جاء تكريم الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، تتويجاً لمكانته بين المخلوقات، ثم بين الحق سبحانه وتعالى في عظمة هذا الإنسان ما هو أسمى وأعلى من ذلك، حيث قرر أن الإنسان هو المخلوق المميز بالخلافة الكبرى والمهمة العظمى التي لأجلها خلق الله المخلوقات، كما في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، فتأمل دلالة الآية إذ كل ما خلقه الله في آفاق السماء وفي أنحاء الأرض مسخر للإنسان، "كالشمس للضياء، والمطر للشراب... والكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث، ونحو ذلك"(١).

وها نحن أمام المشهد الأعظم لهذا الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ومما ورد في معنى الخليفة أنه " الذي يتولى عملاً يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي، أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض"(٢)، والمهمة التي جُعلت للإنسان في هذه الأرض بعد أن سخر الله له ما خلق في السماوات والأرض بيّنها قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، "أي: جعلكم ﴿فِيهَا﴾ عُمَّاراً تعمرونها وتستغلونها"(٣)، وبمعنى أوضح " استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكّنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها"(٤).

ما أعظم هذه النعم الربانية والمنن الإلهية على الإنسان فمن خَلْقٍ فيه تشريف بنفخ الروح الإلهية، إلى تكريم فيه تفضيل على الخلائق، إلى تسخير لكل مخلوقات السماوات والأرض بأجرامها وأفلاكها

---

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٢٥ /٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١ /٣٨٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤ /٣٣١).

(٤) تيسير كلام الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (١ /٣٨٤).



وفجاجها وبحارها وأنهارها، إلى مهمة عمرانها واستغلالها والقيام بأمر الله فيها، وذلك كله لا يكون إلا بالعمل والبذل والجد والجهد، وهكذا يأتي العمل في سياق حضاري عظيم إذ هو ليس لمجرد كسب الرزق، ولكنه لعمارة الأرض، وليس لمجرد استخراج بعض الخيرات، ولكنه لتحقيق أسمى الغايات، وهو كذلك مرتبط بخَلْق الإنسان والغاية من وجوده لإقامة العمران، فهو ووجود الإنسان والعمران وجهان لعملة واحدة.

العمل في المفهوم الإسلامي

بين يدي الحديث عن العمل في الإسلام لابد لنا من تعريف العمل وبعض المصطلحات المعاصرة المرتبطة به.

١- التعاريف والمصطلحات المتعلقة بالعمل والمهن

تعريف العمل

فالعمل لغة: مصدر للفعل عَمِلَ يعْمَلُ عَمَلاً، والعمل: الفعل، والمهنة، والجمع: أعمال[١]. ونصَّ الراغبُ على أن العمل هو الفعل المقصود[٢].

والعِمَالة أُجرة العمل، كما ورد عن عمر رضي الله عنه في قوله: "إني عملت على عهد رسول الله ﷺ فعَمّلني" أي: أعطاني أجرة عملي[٣]، والعامل: هو الذي يتولى القيام بالعمل المقصود المحدد لنفسه أو لغيره.

العمل اصطلاحاً: "كل جهد بدني أو ذهني مقصود، يبذله الإنسان؛ لإيجاد منفعة اقتصادية، أو زيادة منفعة شيء موجود"[٤].

ونلاحظ في هذا التعريف أنه ينص على بذل الجهد الذي هو أساس العمل، كما يتناول التعريف الجهد البدني والذهني، وذلك لشمول العمل لهما. وأما القصد فهو أمر أساسي في العمل يخرج به الجهد غير المقصود، والمنفعة تخرج العمل التطوعي الذي فيه جهد مقصود لا يهدف إلى المنفعة، ويدخل في المنفعة

(١) لسان العرب، لابن منظور (٣١٠٧/٥)؛ تاج العروس، للزبيدي (٣٤/٨).
(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني (ص ٣٤٨).
(٣) لسان العرب، لابن منظور (٣١٠٨/٥).
(٤) مقومات العمل في الإسلام، لعبد السميع المصري (ص١٠)، بتصرف.

أعمال الإنتاج أو الخدمات ذات الجهد البدني أو المعنوي، كما أن إيجاد المنفعة يشير إلى شمول العمل للإبداع والابتكار، إضافة إلى أن الزيادة تشير إلى البناء والاستمرار.

تعريف المهنة

لغة : الحذق بالخدمة والعمل ونحوه، وقد مَهَنَ يَمْهُنُ مَهْناً إذا عمل في صنعته[١].

المهنة: مجموعة من الأعمال المتشابهة التي تنتمي إلى وحدة نوعية بحيث يستطيع الشخص الذي يمارس إحداها أن يمارس سواها من نفس نوعها بعد تدريب طفيف[٢].

فالمهنة عمل، ولكنه عمل متخصص في مجال معين، فنحن نقول: إن الهندسة مهنة، والطب مهنة؛ لأن كلاً منهما مختص بمجال معين يحتاج إلى علم ومهارة تخص هذا المجال، فالطب مثلاً في مجال الجسم البشري وحفظ سلامته وعلاج أمراضه، وهكذا.

تعريف الوظيفة

والوَظِيفةُ لغةً: من كل شيء ما يُقدَّر له في كل يوم من رزق أو طعام أو علَف أو شَراب. وجمعها الوَظائف، ووظَف الشيءَ على نفسه ووَظّفَه توظيفاً أَلزمها إياه[٣]، يُقال: له وَظِيفَةٌ من رِزْقٍ، وعليه كُلَّ يَوْمٍ وَظيفَةٌ من عَمَلٍ، والوَظِيفَةُ: العَهْدُ والشَّرْطُ، والتَّوْظِيفُ: تَعْيِينُ الوَظِيفَةِ[٤].

والوظيفة اصطلاحاً: مجموعة من الواجبات والمسؤوليات التي تتطلب تخصيص فرد للقيام بها[٥].

٢- النظرة الإيجابية المتوازنة للعمل في الإسلام

ليس العمل أو الاحتراف للكسب شأناً خاصاً بحاجة الإنسان لا دخل للدِّين فيه، فالإسلام نظرته أشمل: إذ يُدْخل العمل في دائرته، ويُورده في تشريعاته. ويجعل له مكانته في الشرف والقدر، كما يجعل له

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٤٢٤).
(٢) الشخصية المنتجة، لسيد مرسي (ص١٣)، بتصرف.
(٣) لسان العرب، لابن منظور (٩ / ٣٥٨).
(٤) تاج العروس، للزبيدي (١/ ٦١٦٤).
(٥) الشخصية المنتجة، لسيد مرسي (ص١٢).

ثمرته في الثواب والعقاب. والمهنة نوع من أنواع العمل للكسب، فالنصوص الواردة في العمل تتناولها بمنطوقها ومفهومها.

وهذه وقفات نوضح من خلالها منزلة ومكانة العمل في الإسلام، ومن ذلك:

أ- الأمر والترغيب في العمل

تكررت كلمة العمل وتصاريفها في القرآن الكريم (٣٥٩) مرة، ووردت كلمة السعي (٣٠) مرة، وكلمة الكسب (٦٧) مرة، وكلاهما وطيدة الصلة بالعمل، وقد ورد الأمر بالعمل في سياق عام يشتمل على نعمة الله عز وجل ورزقه مع سعي وعمل عبده في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥)، فهذه دعوة شاملة واسعة لاغتنام تذليل الأرض بالسعي والعمل، ودلالة قوله: ﴿ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ تدل على آفاق رحبة وآماد واسعة تشير إلى أن السعي لا يتوقف، والعمل لا يتعطل، وأن بقاع الأرض كلها لا شيء منها يستثنى في البر والبحر، في السهل والوعر، وفي كل ذلك مخبوء رزق الله سبحانه وتعالى.

ويأتي قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧٣)، ليؤكد أن من حكم خلق الله لليل والنهار أن يكون النهار لابتغاء فضله بالعمل والكد في طلب الرزق.

وها هو النداء الرباني موجه إلى الأنبياء والرسل بالعمل، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣)، وهذا مدح وثناء وتقدير للعمل يورده المصطفى ﷺ وهو يبرز مكانة أخيه داوود عليه السلام فيقول ﷺ: **"ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"**[1].

والمراد بالخيرية ما يستلزم العمل باليد من الغنى عن الناس، وفي الحديث فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، وأن التكسب لا يقدح في التوكل[2]. وعندما يقول ﷺ: " **مَا كَسَبَ الرَّجُلُ كَسْبًا أَطْيَبَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ** "[3]، يبين غايات وحكماً كثيرة للعمل "منها أن يشتغل

(١) رواه البخاري، حديث رقم (١٩٣٠).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٣٨١-٣٦٢).

(٣) رواه ابن ماجه، حديث رقم (٢١٣٨).

الكاسب به فيسلم عن البطالة واللهو، ومنها كسر النفس به فيقل طغيانها ومرحها، ومنها التعفف عن ذل السؤال والاحتياج إلى الغير، وخص داود لكون اقتصاره في أكله على عمل يده لم يكن لحاجة لأنه كان خليفة في الأرض بل أراد الأفضل"[1].

ولعل في النداء القرآني الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥)، ما يكفي للحث والحض على العمل، ويعجب المرء من منهج الإسلام في حث المسلم على العمل إلى آخر لحظة ليس من لحظات عمره بل من لحظات الحياة الدنيا كلها، وهذا ما ورد في حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ"**[2]، والفسيلة: الصغيرة من النخل[3]، ومعلوم أنها تستغرق وقتاً طويلاً حتى تثمر، ومع ذلك جاء أمر الرسول ﷺ بغرسها؛ لأن المطلوب هو العمل إلى آخر لحظة بغض النظر عن النتيجة وزمن حصولها.

ب- التوازن والتعبد في العمل

مع حض الإسلام على العمل، ورفع قدره إلا أنه – في الأصل – دين إيمان وعبادة، ومع ذلك فليس في الإسلام تعارض بين العمل والعبادة، ولا بين الدين والدنيا، بل هناك توافق وتطابق، وذلك بالجمع بينهما بتوازن معتدل يُدخِلُ العملَ في دائرة العبادة، ويجعل بعد العبادة فسحةً للعمل، فكلُّ عمل يعمله الإنسان المسلم يعتبر عبادة إذا أخلص فيه النية لله تعالى، وكلُّ عمل ينبغي أن يتوقف عندما يحين وقت العبادة المفروضة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ (الجمعة: ٩)، وبعد أداء العبادة تستأنف الحياة وتنطلق الأعمال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠)، أي: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم[4]. وفي هذا تنبيه على أن لهم ساعة من النهار يجعلونها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة، وذكر الله.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٥/ ٥٤٣).

(٢) رواه أحمد، حديث رقم (١٣٠٠٤).

(٣) لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٥١٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٠٨).

ولعلنا نستحضر في هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور: ٣٧).

ويؤكد النبي ﷺ على التوازن بين العمل والتعبد حينما مرَّ به وبأصحابه رجلٌ فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله، فقال ﷺ: "إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ "[1]. فالرسول ﷺ يبين أن من خرج من بيته طالباً لأهله وأولاده الرزق فهو مثاب مأجور إذ الخروج في هذا الأمر كالخروج في سبيل الله، أي: الجهاد[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧) يعتبر قاعدة أساسية في التوازن؛ فالغاية في الآية هي الآخرة، لكن دون إلغاء الصلة بالدنيا أو إهمالها ونسيانها بالكلية إذ يقول الله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، ولزورك عليك حقّاً، فآت كل ذي حق حقه[3].

وقصة سَلْمَانُ الفارسي مع أبي الدرداء رضي الله عنهما خير شاهد على التوازن والاعتدال بين عبادة الله وحاجات الدنيا المتنوعة، حيث قال سلمان لأبي الدرداء: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "صَدَقَ سَلْمَانُ"[4].

جـ- التنوع والتشريف

من مظاهر عناية القرآن بالعمل والتنويه بمكانه ومنزلته ما ذكر في الآيات من تنوع الأعمال والصناعات وذكرها في سياق التشريف، فالله ذكر الزراعة والحرث: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣ - ٦٤)، وذكر البناء وصناعته: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩)، والمراد الأبنية الضخمة والحصون المشيدة، وقد قال تعالى في تفصيل البناء

---

(١) رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (١٥٦١٩).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٣ /٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦ / ٢٥٣).

(٤) رواه البخاري، حديث رقم (٥٦٧٤).

الحكم القوي: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (الكهف: ٩٥ - ٩٧)، وذكر القرآن الإجارة بمقابل أي العمل للغير بأجر، وذلك في سياق قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القصص: ٢٧)، ومهنة الصيد كان لها ذكر ودلالة في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (المائدة: ٩٦)، والآيات في ذلك كثيرة.

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا "[1]، "فيه جواز الصنائع، وأن النجارة لا تسقط المروءة، وأنها صنعة فاضلة. وفيه فضيلة لزكرياء عليه السلام، فإنه كان صانعاً يأكل من كسبه"[2]، وهذا مع كونه في ذكر تنوع المهن فإن فيه شرف المهنة بنسبتها لنبي كريم وذكرها في سياق مدح وثناء، وأظهر من ذلك في التشريف والتكريم ما ذكره النبي ﷺ أنه "مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ"[3].

وفي سياق ذكر الأعمال والمهن مع ربطها بالأجر والثواب وبيان الأثر الإيجابي للعمل على الحياة والأحياء قال عليه الصلاة والسلام: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"[4]، وفي الحديث فَضِيلَةُ الْغَرْس، وَفَضِيلَة الزَّرْع.

وكان السلف من الصحابة والتابعين يؤكدون على أهمية العمل. فهذا الفاروق رضي الله عنه يقول: "تعلموا المهنة؛ فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة"[5]، ولما سئل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن المروءة؟ فقال: "العفة، والحرفة"[6]، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: "المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله"[7].

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٤٣٨٤).

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي (١١٣/٨).

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٢١٠٢).

(٤) رواه البخاري، حديث رقم (٢٣٢٠)؛ ومسلم، حديث رقم (٤٠٥٥).

(٥) سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (ص ١٦٨).

(٦) إصلاح المال، لابن أبي الدنيا (ص٢٥٦).

(٧) أعلام النساء، لعمر رضا كحالة (١١٩/٣).

ومن روائع أقوال سفيان الثوري: " عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال"[1].

ومع دلالة هذه المقولات على الأسس والمفاهيم الإسلامية إلا أننا نجد أقوالاً أكثر وضوحاً في شأن توقير العمل وتحقير الكسل، فعمر رضي الله عنه يقول: "إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني"، وفي فهم حقيقة العمل ومثوبته قال أبو قلابة لرجل: "لأن أراك تطلب معاشك أحب إلي من أراك في زاوية المسجد"[2]، وفي إضاءة كاشفة عن الفهم السليم وأهمية الرجوع إليه قال أبو سليمان الداراني: "ليس العبادة عندنا أن تصُفّ قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد"[3].

د- الإنعام والإشهاد

مفهوم العمل في الإسلام مرتبط بالتصور الشامل المبني على الاعتقاد الصحيح، فالرزق من الله، واليقين جازم بأن الرزق مقدَّر ومكتوب، وأن الله وحده هو الرزاق، فالنعم كلها منه في الأرض والسماء، وفي ذكاء العقل وقوة البدن، وفي التوفيق والتيسير لأسباب الكسب، ومع ذلك يضاف إلى التصور الصحيح أن الرزق لا يأتي بدون عمل، ولا يصل بدون جهد، وإنما يحصل ببذل الأسباب، وهو أمر مطلوب وواجب لكن ما يترتب عليه بيد الله أولاً وآخراً، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨)، ويقرر عباده على ذلك بما يكشفه من دلائل قدرته، كما في قوله جل وعلا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٣١)، والنتيجة بعد ذلك إرشاد رباني إلى مصدر الرزق الذي ينبغي أن يتوجه إليه العبد ويأتي بما يجب عليه تجاهه في قوله: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٧).

ويأتي الربط بين الإيمان والاستقامة من جهة، والرزق ورغد العيش من جهة أخرى، ليؤكد تكامل التصور في المنهج الإسلامي: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟

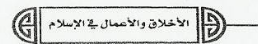
(١) الحث على الصناعة والتجارة والعمل، لأبي بكر ابن الخلال (ص٦٣).
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٦٣).
(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٦٣).

فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦)، بل إن الرزق يُطلب – مع الأسباب المادية العملية – بالصلاح والتقوى والمبادرة إلى الاستغفار من الذنوب: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح: ١٠ – ١٢)، والفهم والوعي الإسلامي في هذه الدائرة يجعل المسلم يرضى بما قسم الله له من الرزق ويسلّم لحكمة الله في تفاوت الأرزاق، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٢)، فليس الرزق ثمرة العمل، ولكنه فضل الله تعالى، والعمل وسيلة يمن الله سبحانه على عبده بالأجر والمثوبة عليها، ويؤكد هذا المعنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **"أَيُّهَا النَّاسُ؛ اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ"**[1].

ونستكمل التصور الإسلامي للعمل بعد الإقرار بأن النعم من الله، وأن الرزق بيده بالاعتقاد بأنه سبحانه وتعالى مطّلع على العمل في كل زمان ومكان، ومن ثم يجزي عليه إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٦١). " فراقبوا الله في أعمالكم، وأدّوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم"[2]، ومن هنا يكون للعمل بُعدٌ إيماني له أثر إيجابي في حسن الأداء والإتقان، لا لمجرد المقابل المادي، ولا خوفاً من المحاسبة النظامية في العمل، ولكن مراقبة لله عز وجل، وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه.

والمنهج الإسلامي يؤكد على أن عمله في دنياه من العبادة وطلب الرزق وثيق الارتباط في حس المسلم بالآخرة، مثوبة وعقوبة، ورفعة ودناءة، فالله جل وعلا يقول: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٩). والأمر في هذا الشأن يتناول كل صغيرة وكبيرة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧). "فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك. ومن كان عمل في الدنيا

(١) رواه ابن ماجه، حديث رقم (٢١٤٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (١/٣٦٧).



وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك"[1]، "وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى"[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (٢٤ / ٥٤٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (١/ ٩٣٢).

خلاصة الوحدة الرابعة

مفهوم الاستخلاف في الأرض

لقد قرر الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان هو المخلوق المميز بالخلافة الكبرى والمهمة العظمى التي لأجلها خلق الله المخلوقات. والمهمة التي جُعلت للإنسان في هذه الأرض بعد أن سخر الله له ما خلق في السماوات والأرض، هي عمارة الأرض واستغلالها والقيام بأمر الله فيها، وذلك كله لا يكون إلا بالعمل والبذل والجد والجهد.

وهكذا يأتي العمل في سياق حضاري عظيم، إذ هو ليس لمجرد كسب الرزق، ولكنه لعمارة الأرض، وليس لمجرد استخراج بعض الخيرات، ولكنه لتحقيق أسمى الغايات، وهو كذلك مرتبط بخَلْق الإنسان والغاية من وجوده لإقامة العمران.

العمل في المفهوم الإسلامي

١- التعاريف والمصطلحات المتعلقة بالعمل والمهن

العمل: لغة: الفعل، والمهنة، والجمع: أعمال.. واصطلاحاً: "كل جهد بدني أو ذهني مقصود، يبذله الإنسان، لإيجاد منفعة اقتصادية أو زيادة منفعة شيء موجود".

المهنة: لغة: الحذق بالخدمة والعمل ونحوه، واصطلاحاً: مجموعة من الأعمال المتشابهة التي تنتمي إلى وحدة نوعية بحيث يستطيع الشخص الذي مارس إحداها أن يمارس سواها من نفس نوعها بعد تدريب طفيف.

الوظيفة: لغة: من كل شيء ما يُقدَّر له في كل يوم، والوَظِيفَةُ: العَهْدُ والشَّرْطُ، والتَّوْظِيفُ: تَعْيِينُ الوَظِيفَةِ. واصطلاحاً: مجموعة من الواجبات والمسؤوليات التي تتطلب تخصيص فرد للقيام بها.

٢- النظرة الإيجابية المتوازنة للعمل في الإسلام

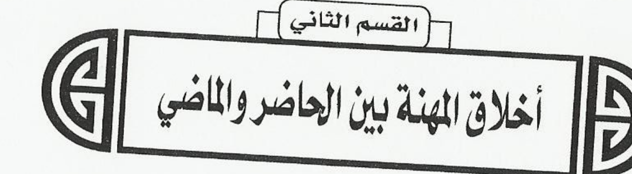
- **الأمر والترغيب في العمل:** حيث تكررت كلمة العمل وتصاريفها في القرآن الكريم (٣٥٩) مرة، ووردت كلمة السعي (٣٠) مرة، وكلمة الكسب (٦٧) مرة، وكلتاهما وطيدة الصلة بالعمل.

• **التوازن والتعبد في العمل:** الإسلام دين إيمان وعبادة، ومع ذلك فليس في الإسلام تعارض بين العمل والعبادة، ولا بين الدين والدنيا، بل هناك توافق وتطابق، وذلك بالجمع بينهما بتوازن معتدل يُدخل العملَ في دائرة العبادة، ويجعل بعد العبادة فسحةً للعمل، فكلُّ عمل يعمله الإنسان المسلم يعتبر عبادة إذا أخلص فيه النية لله تعالى، وكلُّ عمل ينبغي أن يتوقف عندما يحين وقت العبادة المفروضة.

• **التنوع والتشريف:** من مظاهر عناية القرآن بالعمل والتنويه بمكانه ومنزلته ما ذكر في الآيات من تنوع الأعمال والصناعات في سياق التشريف، كالزراعة والغرس، والحرث، والبناء وصناعته، والصيد، والإجارة بمقابل. وأخبر النبي ﷺ أنه "مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ".

• **الإنعام والإشهاد:** فالرزق من الله، واليقين جازم بأنه مقدَّر ومكتوب، وأن الله وحده هو الرزاق بل إن الرزق يُطلب – مع الأسباب المادية العملية – بالصلاح والتقوى والمبادرة إلى الاستغفار من الذنوب والوعي الإسلامي في هذه الدائرة يجعل المسلم يرضى بما قسم الله له من الرزق ويسلّم لحكمة الله في تفاوت الأرزاق، ويعلم أن الله سبحانه وتعالى مطّلع على العمل في كل زمان ومكان، ومن ثم يجزي عليه، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشراً.

القسم الثاني



أخلاق المهنة بين الحاضر والماضي

• الوحدة الأولى: أخلاق المهنة في العصر الحديث

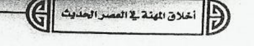
• الوحدة الثانية: أخلاق المهنة في التاريخ والحضارة الإسلامية



الوحدة الأولى

أخلاق المهنة في العصر الحديث

- أثر الأخلاق في بيئة الأعمال
- مظاهر العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال
- أسباب العناية بأخلاق المهنة
- مفهوم أخلاق المهنة
- مواصفات ومزايا مواثيق أخلاق المهنة
- نماذج من مواثيق أخلاق المهنة المعاصرة



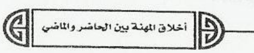
مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس

الفهم الصحيح يؤكد أن الأخلاق لها آثار إيجابية كثيرة وكبيرة على حسن الأداء الوظيفي والمهني، وقيمتها المعنوية بل والمادية ذات أثر حقيقي في المنظور القريب والبعيد، وتبث أن هناك اهتماماً ظاهراً بالأخلاق في مجالات العمل، وفي المهن التخصصية المختلفة، يتمثل في كثير من المصطلحات الرائجة في هذا الشأن، مثل: ميثاق وآداب المهنة، أخلاقيات الوظيفة والعمل، وأخلاقيات الإدارة.

ومن خلال النظر في جملة وافرة من هذه الوثائق الأخلاقية والمبادئ المهنية نجد أن أقسامها وبنودها تشمل جوانب متعددة، كمعايير الأداء المثالي في المهنة، وأخلاق مزاولة المهنة، وأخلاق التعامل مع المستفيدين من المهنة، وأخلاق التعامل مع زملاء المهنة، وداخل بيئة العمل، إضافة إلى أخلاق وضوابط المحافظة على البيئة.

وقد تم في هذه الوحدة عرض نماذج من كل ذلك، فاحرص – **أخي الدارس**– على دراستها؛ للاستفادة من ذلك كله، نفع الله بك.



الأهداف التعليمية للوحدة الأولى

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تبيّن الأثر الإيجابي للأخلاق في الأعمال.

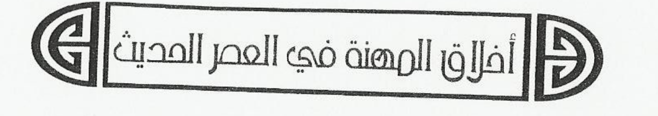
٢- تحدّد مظاهر وأسباب العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال.

٣- تحدّد مفهوم أخلاق المهنة بجوانبه الخمسة.

٤- توضّح التعريف الاصطلاحي لأخلاق المهنة.

٥- تعرّف مواصفات ومزايا مواثيق أخلاق المهنة.

٦- تشير إلى بعض النماذج المعاصرة لمواثيق أخلاق المهنة.



أخلاق المهنة في العصر الحديث

لابد لنا أن نمهد بين يدي معرفة أخلاق المهنة في العصر الحديث بعدة مقدمات مهمة تبين الربط بين الأخلاق وبيئة العمل وخصوصية المهن، كما تكشف عن المظاهر التي تبين فاعلية الأخلاق المهنية، إضافة إلى أسباب العناية المتزايدة بأخلاقيات المهنة، حتى نصل إلى تصور مفهوم أخلاق المهنة وجوانبه المختلفة.

أثر الأخلاق في بيئة الأعمال

عرفنا – فيما مضى – المعنى اللغوي والاصطلاحي للخُلُق والعمل والمهنة، وقبل الخوض في مفهوم أخلاق المهنة والعمل يحسن إيضاح الصلة العملية بينهما، ففي عصرنا الحالي يوجد - لدى بعض المسلمين وغير المسلمين- بعد عن المفهوم الصحيح الشامل للإسلام، ومن ناحية أخرى هناك طغيان للحياة المادية على حساب الجوانب المعنوية، ونتيجة لذلك يرد لدى هؤلاء سؤال عن صلة الأخلاق بالعمل والمهنة، إذ يرى بعضهم أن العمل تكفي فيه الكفاءة العلمية والعملية من حيث الأداء، وتحقيق الربح المادي وزيادته من حيث الهدف، وهذا كل شيء ولا شيء وراء ذلك، بينما الفهم الصحيح يؤكد أن الأخلاق لها آثار إيجابية كثيرة وكبيرة على حسن الأداء الوظيفي والمهني، وقيمتها المعنوية بل والمادية ذات أثر حقيقيّ في المنظور القريب والبعيد، وإليك هنا الإيجاز الذي يوضح الصلة بين الأخلاق والعمل، ويبين الأثر الإيجابي للأخلاق في الأعمال:

- الخلق الحسن يجعل سلوك صاحبه متصفاً بالثبات والتماسك، ونفسيته موصوفة بالتجانس والتوافق، وبالتالي يكون الموظف الخلوق أكثر قدرة على الإنجاز وحسن الأداء.
- الخلق القويم يجعل صاحبه متحلياً بمتطلبات الالتزام، والضبط الاجتماعي، وحسن التعامل مع الآخرين، واحترامهم، وأداء حقوقهم، ومن ثم تكون بيئة العمل في ظلال الأخلاق بيئة جِدّ وإنتاج من جهة، ودقة وإتقان من جهة أخرى.

- الخلق الفاضل يثمر الإرادة القوية والعزيمة الماضية مع الاختيار السلوكي الحسن الذي يتبناه صاحبه ويقتنع به، وذلك ينعكس إيجابياً على القوة والحيوية في الأداء الوظيفي، والقدرة على اتخاذ الاتجاه نحو الأفضل والأحسن من القرارات والإجراءات التي تخدم العمل.
- الخلق القويم يوجد الالتزام والانضباط تجاه الذات، والمحبة والتعاون تجاه الزملاء، والتقدير والاحترام تجاه الرؤساء، وذلك يشكل بيئة عمل مميزة، تعمل بروح الفريق الواحد، وتتجانس بالتعاون، وتتكامل بالترابط القوي بين العاملين، بما يحقق الأداء الفعّال والاتجاه بانتظام واستمرار نحو الأفضل.
- التعامل الأخلاقي يكسب الفرد والمؤسسة سمعة حسنة، وقبولاً جيداً لدى العملاء، بما ينعكس إيجابياً على تحقيق النجاح في الرواج والانتشار، وزيادة المبيعات.

مظاهر العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال

في العصر الحاضر هناك اهتمام ظاهر بالأخلاق في مجالات العمل، وفي المهن التخصصية المختلفة، فنحن نطالع اليوم عدداً كبيراً من المصطلحات الرائجة في هذا الشأن مثل ميثاق وآداب المهنة، أخلاقيات الوظيفة والعمل، وأخلاقيات الإدارة، ومن أبرز المظاهر المعبرة عن هذا الاهتمام ما يلي:

- تسابق معظم الشركات لإصدار مدونات أخلاقية خاصة بها. فبعد أن كانت الكفاءة هي مركز الاهتمام الوحيد، والربح هو الهدف الأساسي والمسؤولية الوحيدة للأعمال، أصبحت الأخلاقيات تحظى بالاهتمام، وتعاد صياغة الأهداف والسياسات بطريقة تبرز المسؤولية الأخلاقية لشركات الأعمال[1].
- وجود جمعيات مهنية متخصصة كثيرة وعنايتها بإصدار مواثيق تنظيمية وأخلاقية وإنسانية تتعلق بمهنها، فلكل مهنة مواثيق شرف، ومبادئ أخلاقية، ومعايير مهنية، تشكل كلها منظومة متكاملة لأخلاق المهنة والعمل.
- ظهور عدد من مؤسسات المجتمع المدني، وجمعيات النفع العام المتخصصة في العناية بأخلاق المهنة، والدعوة إلى التزام الأخلاق في الأعمال، والدفاع عن المستهلكين ضد الشركات المستغلة التي تسعى للربح بدون أخلاق ولا معايير تحافظ على الصحة والبيئة، ونحو ذلك.

(١) انظر: أخلاقيات الإدارة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص١٣).

- العناية بأخلاقيات المهنة من خلال التعليم الجامعي بتدريس هذا المفهوم كعلم مستقل أو مادة تعليمية، ففي الولايات المتحدة يوجد حالياً أكثر من (٥٠٠) مقرر تدريسي من مقررات أخلاقيات الأعمال تدرس في الجامعات بدوام كامل، وإن (٩٥٪) منها تقدم نوعاً من التدريب في هذا المجال، وهناك ما لا يقل عن (١٦) مركزاً بحثياً لأخلاقيات الإدارة والأعمال في الخدمة[1].
- مواكبة المستجدات والاستجابة للحاجات ظهرت معه أخلاقيات حديثة تتناول أخلاقيات الحاسب الآلي، وأخلاقيات الهندسة الوراثية وغير ذلك؛ لأن تطور العلوم والتقنيات ودخولها في مجالات حيوية تتعلق بخصوصيات الناس، أو بالتدخل بالهندسة والتعديل الوراثي في خصائص المنتجات الزراعية والحيوانية، بل حتى بالتدخل في صفات الإنسان الوراثية، كل تلك الثورة العلمية ظهرت فيها ممارسات غير أخلاقية، وتطبيقات غير إنسانية، واقتضى ذلك التدخل لمنع هذه التجاوزات المضرة، فوضِعَت أخلاق ومواثيق خاصة لضبط تلك التقنيات ومنع انحرافها.

أسباب العناية بأخلاق المهنة

في دراسة أعدها (سول جيلرمان) نشرها في مجلة (هارفارد للأعمال) بعنوان: لماذا يقوم المديرون الجيدون بخيارات أخلاقية سيئة؟ أشار فيها (سول) إلى أنه منذ منتصف السبعينات حتى منتصف الثمانينيات فإن ثلثي الشركات الأمريكية الخمسمائة التي تظهر في مجلة (فورتشن) والتي تعتبر من أكبر الشركات الأمريكية- وربما في العالم- كانت متورطة بدرجات مختلفة في سلوك غير مشروع.

ومن هنا ندرك تزايد الاهتمام بأخلاق العمل في الشركات، ويمكن أن نذكر – بإيجاز- أبرز أسباب هذا الاهتمام المتزايد في هذه النقاط:

أولاً: وجود الدلائل الكثيرة على أن الشركات التجارية أقل أخلاقية مما يجب، ودليل ذلك التجاوزات الأخلاقية والفضائح المالية الشنيعة التي أدت عملياً إلى انهيار شركات عالمية كبرى كانت تملك مليارات الدولار مثل (شركة إنرون للطاقة Enron). و(شركة وردكوم Worldcom)، والتي تبعها

(١) انظر: أخلاقيات الإدارة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص١٣-١٤).

• الخلق الفاضل يثمر الإرادة القوية والعزيمة الماضية مع الاختيار السلوكي الحسن الذي يتبناه صاحبه ويقتنع به، وذلك ينعكس إيجابياً على القوة والحيوية في الأداء الوظيفي، والقدرة على اتخاذ الاتجاه نحو الأفضل والأحسن من القرارات والإجراءات التي تخدم العمل.

• الخلق القويم يوجد الالتزام والانضباط تجاه الذات، والمحبة والتعاون تجاه الزملاء، والتقدير والاحترام تجاه الرؤساء، وذلك يشكل بيئة عمل مميزة، تعمل بروح الفريق الواحد، وتتجانس بالتعاون، وتتكامل بالترابط القوي بين العاملين، بما يحقق الأداء الفعّال والاتجاه بانتظام واستمرار نحو الأفضل.

• التعامل الأخلاقي يكسب الفرد والمؤسسة سمعة حسنة، وقبولاً جيداً لدى العملاء، بما ينعكس إيجابياً على تحقيق النجاح في الرواج والانتشار، وزيادة المبيعات.

مظاهر العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال

في العصر الحاضر هناك اهتمام ظاهر بالأخلاق في مجالات العمل، وفي المهن التخصصية المختلفة، فنحن نطالع اليوم عدداً كبيراً من المصطلحات الرائجة في هذا الشأن مثل ميثاق وآداب المهنة، أخلاقيات الوظيفة والعمل، وأخلاقيات الإدارة، ومن أبرز المظاهر المعبرة عن هذا الاهتمام ما يلي:

• تسابق معظم الشركات لإصدار مدونات أخلاقية خاصة بها. فبعد أن كانت الكفاءة هي مركز الاهتمام الوحيد، والربح هو الهدف الأساسي والمسؤولية الوحيدة للأعمال، أصبحت الأخلاقيات تحظى بالاهتمام، وتعاد صياغة الأهداف والسياسات بطريقة تبرز المسؤولية الأخلاقية لشركات الأعمال[1].

• وجود جمعيات مهنية متخصصة كثيرة وعنايتها بإصدار مواثيق تنظيمية وأخلاقية وإنسانية تتعلق بمهنها، فلكل مهنة مواثيق شرف، ومبادئ أخلاقية، ومعايير مهنية، تشكل كلها منظومة متكاملة لأخلاق المهنة والعمل.

• ظهور عدد من مؤسسات المجتمع المدني، وجمعيات النفع العام المتخصصة في العناية بأخلاق المهنة، والدعوة إلى التزام الأخلاق في الأعمال، والدفاع عن المستهلكين ضد الشركات المستغلة التي تسعى للربح بدون أخلاق ولا معايير تحافظ على الصحة والبيئة، ونحو ذلك.

(١) انظر: أخلاقيات الإدارة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص١٣).

• العناية بأخلاقيات المهنة من خلال التعليم الجامعي بتدريس هذا المفهوم كعلم مستقل أو مادة تعليمية، ففي الولايات المتحدة يوجد حالياً أكثر من (٥٠٠) مقرر تدريسي من مقررات أخلاقيات الأعمال تدرس في الجامعات بدوام كامل، وإن (٩٥٪) منها تقدم نوعاً من التدريب في هذا المجال، وهناك ما لا يقل عن (١٦) مركزاً بحثياً لأخلاقيات الإدارة والأعمال في الخدمة[1].

• مواكبة المستجدات والاستجابة للحاجات ظهرت معه أخلاقيات حديثة تتناول أخلاقيات الحاسب الآلي، وأخلاقيات الهندسة الوراثية وغير ذلك؛ لأن تطور العلوم والتقنيات ودخولها في مجالات حيوية تتعلق بخصوصيات الناس، أو بالتدخل بالهندسة والتعديل الوراثي في خصائص المنتجات الزراعية والحيوانية، بل حتى بالتدخل في صفات الإنسان الوراثية، كل تلك الثورة العلمية ظهرت فيها ممارسات غير أخلاقية، وتطبيقات غير إنسانية، واقتضى ذلك التدخل لمنع هذه التجاوزات المضرة، فوضِعَت أخلاق ومواثيق خاصة لضبط تلك التقنيات ومنع انحرافها.

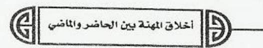
أسباب العناية بأخلاق المهنة

في دراسة أعدها (سول جيلرمان) نشرها في مجلة (هارفارد للأعمال) بعنوان: لماذا يقوم المديرون الجيدون بخيارات أخلاقية سيئة؟ أشار فيها (سول) إلى أنه منذ منتصف السبعينات حتى منتصف الثمانينيات فإن ثلثي الشركات الأمريكية الخمسمائة التي تظهر في مجلة (فورتشن) والتي تعتبر من أكبر الشركات الأمريكية- وربما في العالم- كانت متورطة بدرجات مختلفة في سلوك غير مشروع.

ومن هنا ندرك تزايد الاهتمام بأخلاق العمل في الشركات، ويمكن أن نذكر - بإيجاز- أبرز أسباب هذا الاهتمام المتزايد في هذه النقاط:

أولا: وجود الدلائل الكثيرة على أن الشركات التجارية أقل أخلاقية مما يجب، ودليل ذلك التجاوزات الأخلاقية والفضائح المالية الشنيعة التي أدت عملياً إلى انهيار شركات عالمية كبرى كانت تملك مليارات الدولار مثل (شركة إنرون للطاقة Enron). و(شركة وردكوم Worldcom)، والتي تبعها

(١) انظر: أخلاقيات الإدارة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص١٣-١٤).



انهيار شركة تدقيق محاسبي عالمية كبرى وهي (شركة آرثر أندرسون Arthur Andersen) لثبوت مساهمتها في التسبب في انهيارات تلك الشركات العالمية

ثانياً: ثمة مفاهيم جديدة تبلورت مع الزمن، وترسّخت كمعايير للتقييم، وهي تشير إلى أن الشركات وبيئات العمل وأصحاب المهن والأعمال لا يكفي أن يكون تعظيم الربح والجودة الإنتاجية هما سر قوتهم، وعامل بقائهم، واستمرارهم، وتطورهم، دون عناية كافية بالاعتبارات الخلقية. وهذه المفاهيم ظهرت ونمت بسرعة خلال العقود القريبة الماضية، وأصبحت هي السائدة في المنظومة الثقافية والفكرية لبيئات العمل ومنظمات المهن، وصارت ذات معايير متعارف عليها تؤثر بشكل مباشر على السمعة والصدقية، ومن ثم على القبول، وتسويق المنتجات، وتحقيق الأرباح، والاستمرار في التطور والنجاح.

ثالثاً: وجود الأسباب والذرائع التي تدفع نحو الفساد الأخلاقي على مستوى الأفراد والشركات أو منظومات الأعمال، فهناك – على مستوى الفرد بطبيعته البشرية – الدوافع والنوازع البشرية وما فيها من الشره والطمع وحب المال والرغبة في الملذات والأنانية وحب الذات، وهناك العوامل الاجتماعية المؤدية للانتهاك الأخلاقي بما تدعو إليه من حب المظاهر الاجتماعية والاستفادة من الامتيازات وعوامل المجاملة والمحاباة للأقارب والأصدقاء فضلاً عن المصالح المتبادلة، و هناك – كذلك – بيئة المنافسة بين الشركات والصراع على حصص أكبر من المبيعات والتفوق على المنافسين الذي يعظم هذا الهدف على حساب شرف المنافسة وأخلاقيات الكسب، سيما أن تلك المنافسات تكون – في كثير من الأحيان – بين الدول وترتبط بوجه ما بالثقافات والحضارات، وكل ذلك أثبت أن القوانين والأنظمة عاجزة وحدها عن معالجة تلك الانحرافات، وأثبت من جهة أخرى أن القيم والأخلاق المبدئية الذاتية أقوى تأثيراً وأكثر حماية.

رابعاً: التوسع الهائل في أعداد وحجم الشركات، إضافة إلى كثرة المنظمات المهنية وتشعب تخصصاتها، فضلاً عن التداخلات الكبيرة والكثيرة بين دوائر العمل في الشركات المحلية والإقليمية والعالمية، مما يستدعي ضبط السلوكيات وتنظيم العلاقات بشكل منهجي ونظامي كان إطاره الجامع والعام هو مدونات أخلاقيات العمل، ومواثيق المهن التي تعظم الجانب الأخلاقي، وتؤسس للنظم والقوانين الداخلية[1].

(1) انظر: أخلاقيات الإدارة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص١٣-١٤).

خامساً: زيادة العلم والثقافة، وثورة التقنيات والانفتاح الإعلامي في العصر الحديث أوجد لدى الشعوب وعياً كبيراً جعلهم يعرفون حقوقهم ويطالبون بها، ويدركون المخاطر الناتجة عن عدم الالتزام الأخلاقي في الشركات الاقتصادية والإنتاجية والمهن المختلفة، وتشكلت جمعيات كثيرة للدفاع عن المستهلكين، ومقاومة تجاوزات المصانع والشركات لحدود الأخلاق بما يضر بالبيئة والصحة العامة، والدعوة إلى مقاطعتها، كل ذلك شكل ضغوطاً حقيقية دفعت إلى المزيد من العناية بالأخلاق في مجال المهن والأعمال.

مفهوم أخلاق المهنة

مر بنا من قبل ذكر التعريف الاصطلاحي للخُلُق والعمل والمهنة والوظيفة، وعندما نتحدث عن (**أخلاق العمل**) و (**أخلاق المهنة**)، باعتبار التركيب والإضافة فسيكون المعنى المباشر هو: " الأخلاق الواجب توفرها في العاملين وبيئة العمل لمنشأة اقتصادية أو لمهنة معينة "، ولكن الاعتبار الاصطلاحي الواقعي تبلور في العصر الحديث في صورة علم، وتشعب في صورة مواثيق ومبادئ أخلاقية وفنية لمهن متخصصة وشركات اقتصادية، ومن خلال النظر في جملة وافرة من هذه الوثائق الأخلاقية والمبادئ المهنية نجد أقسامها وبنودها – في الجملة – تتناول الجوانب التالية:

الجانب الأول: معايير الأداء المثالي في المهنة

وهذا الجانب يتناول ممارسات ومواصفات تخصصية دقيقة تتعلق بكل مهنة من المهن، بحيث يُذكر فيه ما يلي:

- الشروط التأهيلية اللازمة لمزاولة المهنة، وهي شروط أساسية يعتبر وجودها ضرورياً للقدرة على مزاولة المهنة أو أداء الوظيفة، وبالتالي السماح لمن توفرت فيه الشروط بالعمل في تلك المهنة أو الوظيفة.
- مواصفات ومعايير الأداء المثالي للمهنة التي ينبغي الحرص عليها ومراعاتها من الناحية الفنية والتخصصية التي ترفع مستوى المنتج أو الخدمة بحيث تحافظ على سمعة حسنة وصورة ذهنية ممتازة عن المهنة.

• الممارسات والسلوكيات الخاطئة التي يجب الابتعاد عنها، وبيان خطورتها وضررها على المجتمع وعلى المهنة والمنتسبين إليها.

أمثلة:

المثال الأول: جاء في الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية ما يلي:

المادة (١٠٢): على الطبيب أن يحافظ على شرف مهنته، ويلتزم بمعايير مزاولتها، ويعمل على الارتقاء بها، وأن يساهم بصورة فعّالة في تطويرها علمياً ومعرفياً من خلال الأبحاث والدراسات وكتابة المقالات والتعليم والتدريب المستمر.

المادة (١٠٣): على الطبيب في تعامله مع المريض، أن يتجنَّب كل ما يخل بأمانته ونزاهته، وكل ما من شأنه الإساءة لمهنة الطب، وأن لا يخسر ثقة المريض باستخدام أساليب الغش أو التدليس، أو إقامة علاقات غير طبيعية معه أو مع أحد من أفراد عائلته، أو التكسُّب المادي بطرق غير مشروعة. كما أن عليه أن يتجنَّب السعي إلى الشهرة على حساب أخلاقيات المهنة وأصولها[1].

المثال الثاني: جاء في المادة (الأولى) من نظام الخدمة المدنية السعودي: الجدارة هي الأساس في اختيار الموظفين لشغل الوظيفة العامة.

وفي المادة (الرابعة) في مؤهلات شغل الوظيفة ورد ما يلي: أن يكون حسن السيرة والأخلاق، حائزاً المؤهلات المطلوبة للوظيفة[2].

الجانب الثاني: أخلاق مزاولة المهنة

وهذا الجانب يشتمل على أخلاق مخصصة يلزم التحلي بها عند ممارسة مهنة أو وظيفة ما؛ لأن هذه الأخلاق تتعلق بهذه المهنة بشكل أوضح وأظهر، وتكون الحاجة إليها أشد وأكبر، ويرد في هذا الجانب ما يلي:

• الأخلاق الخاصة بطبيعة المهنة أو الوظيفة، مع الربط والتوضيح لصلة الخلق بها، وإظهار أهمية الخلق والحاجة إليه عند الممارسة العملية.

(١) انظر نص الميثاق منشوراً بموقع (المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) انظر نظام الخدمة المدنية السعودي منشوراً بموقع (وزارة الخدمة المدنية) على الشبكة العنكبوتية.

• الأخلاق الإنسانية العامة المتعلقة بطبيعة المهنة والوظيفة، وما تقدمه للآخرين من المنتجات والخدمات.

• الأخلاق والضوابط الخاصة بمنع تقديم المصلحة الخاصة على مصلحة العمل، ومنع الانتفاع من الوظيفة والمنصب.

أمثلة:

المثال الأول: جاء في ميثاق المهنة للعاملين في مصلحة الضرائب بمصر ما يلي:

مادة (٨): في سبيل تحقيق المصلحة لرسالتها وأهدافها ومهامها الرقابية، يلتزم العاملون بالمصلحة بما يلي:

١- **النزاهة:** يلتزم العاملون بالمبادئ ومعايير النزاهة والأخلاق المؤهلة لاكتساب ثقة المتعاملين مع المصلحة فيما تقدمه لهم من خدمات.

٢- **العدالة:** يلتزم العاملون بتأدية مهامهم الوظيفية بالتعامل مع المجتمع الضريبي وفقاً لأسس العدالة والمساواة، وعليهم التعامل مع المتعاملين مع المصلحة وفقاً لمقتضيات الاحترام والجدية[1].

المثال الثاني: جاء في المادة (١١) من نظام الخدمة المدنية السعودي ما نصه: أن يراعي آداب اللياقة في تصرفاته مع الجمهور ورؤسائه وزملائه ومرؤوسيه.

الجانب الثالث: أخلاق التعامل مع المستفيدين من المهنة

وهذا الجانب يضم الأخلاق اللازمة لأصحاب المهن والموظفين في تعاملهم مع الجمهور المتلقي لخدماتهم والطالب لمهاراتهم، ويشتمل على ما يلي:

• أخلاق التعامل الخاصة بالمهنة أو الوظيفة، بمعنى أن هناك أخلاقاً يتأكد وجودها فيمن يمارس تلك المهنة على وجه الخصوص.

• أخلاق التعامل الإنساني والذوقي العامة، ذات الصلة بعموم المجتمع، والتي تعكس نموذجاً مشرقاً للمهنة والوظيفة والعاملين فيها.

(١) انظر نص الميثاق على موقع (مصلحة الضرائب المصرية) على الشبكة العنكبوتية.

أمثلة:

المثال الأول: جاء في المادة الخامسة من ميثاق مهنة التعليم السعودي[1] ما نصه:

- المعلم قدوة لطلابه خاصة، وللمجتمع عامة، وهو حريص على أن يكون أثره في الناس حميداً باقياً، لذلك فهو يستمسك بالقيم الأخلاقية، والمثل العليا، ويدعو إليها، وينشرها بين طلابه والناس كافة، ويعمل على شيوعها واحترامها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
- المعلم أنموذج للحكمة والرفق، يمارسها ويأمر بهما، ويتجنب العنف وينهى عنه، ويعوّد طلابه على التفكير السليم، والحوار البناء، وحسن الاستماع إلى آراء الآخرين، والتسامح مع الناس، والتخلق بخلق الإسلام في الحوار ونشر مبدأ الشورى.

المثال الثاني: جاء في الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية في باب (واجبات الطبيب نحو المريض):

المادة (٣): على الطبيب أن يحرص على المساواة في المعاملة بين جميع المرضى، وأن لا يفرّق بينهم في الرعاية الطبية بسبب تَبَايُن مراكزهم الأدبية أو الاجتماعية، أو بسبب مشاعره الشخصية تجاههم، أو بسبب انتمائهم الديني، أو العرقي، أو جنسهم، أو جنسيَّتهم، أو لونهم.

المادة (١٢): على الطبيب أن يعمل على تخفيف آلام المريض بكل ما يستطيعه، وما يتاح له من وسائل وقائية وعلاجية، مادية ونفسية، وعليه إشعار المريض بحرصه على العناية به ورعايته، كما أن عليه أن يستخدم مهاراته في طمأنة المريض والتخفيف عنه.

الجانب الرابع: أخلاق التعامل مع زملاء المهنة وداخل بيئة العمل

وهذا الجانب يعتني بأخلاق التعامل بين زملاء المهنة والموظفين في دائرة أو شركة واحدة، ويشتمل على ما يلي:

- الأخلاق العامة في التعاون، إضافة إلى الأخلاق المحققة للأداء الأمثل والإنتاج الأجود من خلال العمل بروح الفريق.

(١) انظر نص الميثاق على موقع (وزارة التربية والتعليم السعودية) على الشبكة العنكبوتية.

- التحذير من الأخلاق السلبية التي تسيء للزملاء، وتعيق الأداء، وتشوه سمعة المهنة، أو الشركة ومنسوبيها.

أمثلة:

المثال الأول: ورد في ميثاق مهنة التعليم السعودي ما يلي: " الثقة المتبادلة، والعمل بروح الفريق الواحد، هي أساس العلاقة بين المعلم وزملائه، وبين المعلمين والإدارة التربوية".

المثال الثاني: جاء في ميثاق المهنة لجمعية المحامين الكويتية ما نصه:

مادة (١٦): تسود علاقات المحامين ببعضهم البعض روح الزمالة، والاحترام، والتوقير، والتعامل، والثقة، والتضامن، ويتحتم عليهم أن يتعاونوا على توفير الوفاق الأخوي بينهم، و يسعون جميعهم إلى تحقيق أهداف المهنة ومثلها العليا.

مادة (١٧): لا يجوز للمحامي أن يتحدث عن زميل له، أو يعرِّض به، أو ينسب إليه ما يحطّ من قدره، أو يشكك في مقدرته وعلمه، سواء أمام الموكلين أو غيرهم[1].

الجانب الخامس: أخلاق وضوابط المحافظة على البيئة

وهذا الجانب أوسع من كل ما سبق، فهو ليس مرتبطاً بالعاملين والمهنيين، ولا بالعملاء والموردين، بل هو متعلق بالبيئة التي تشمل كل ما يحيط بالإنسان من موجودات، من ماء وهواء، وكائنات حية، وجمادات، وهي المجال الذي يمارس فيه الإنسان حياته، ونشاطاته المختلفة. ويندرج فيه ما يلي:

- الأخلاق الإنسانية والضوابط القانونية الداعية إلى المحافظة على سلامة وصحة الإنسان وكرامته.
- الأخلاق والضوابط اللازمة للمحافظة على التوازن الطبيعي في البيئة، والسلامة من التلوث لجميع مكوناتها.

أمثلة:

المثال الأول: شركة الكهرباء السعودية تجعل من مبادئها التزام المحافظة على البيئة، وتتد

(١) انظر نص (ميثاق الشرف لتقاليد وآداب مهنة المحاماة لأعضاء جمعية المحامين الكويتية) منشوراً على الشبكة العنكبوتية.

على ذلك بقولها: " نعتبر المحافظة على البيئة أحد مرتكزاتنا الأساسية عند إعداد الخطط التشغيلية والرأسمالية، حيث نراعي كافة الجوانب البيئية في عملية التخطيط على مستوى المشاريع بالإضافة إلى تعميق الشعور بالمسؤولية تجاه البيئة وسط العاملين"[1].

المثال الثاني: تعتني الهيئة الملكية للجبيل وينبع بحماية البيئة، في إطار برنامج متكامل يسري على جميع الشركات والمصانع والقطاعات التابعة لها. ومما ورد في البرنامج ما يلي:

- " تقوم الهيئة الملكية بتطبيق العديد من إجراءات حماية البيئة، بدءاً من مرحلة التخطيط. ويتم تطبيق هذه الإجراءات والسياسات من خلال البرنامج الشامل... كما يتم متابعة تطبيق هذا النظام بصفة مستمرة.
- يتم قياس وتقييم أثر الأنشطة الصناعية على الهواء والماء والتربة وصحة الساكنين في كافة مراحل التنمية، بدءاً من مرحلة التخطيط واختيار مواقع المناطق الصناعية والسكنية، وانتهاءً بالإنتاج وإمداد المرافق.
- تقوم الهيئة الملكية بوضع وتحديث معايير الصرف المسموح بها، في الهواء، والبحر، وتلوث التربة، بصفة دورية.
- يشترط على كل صناعة (قائمة أو مستقبلية) الالتزام بالمقاييس المحددة في المعدات والعمليات المستخدمة.. حيث يتم تقييمها وإصدار تصريح باستخدامها"[2].

وهكذا نرى أن المفهوم الخاص بأخلاق المهنة في العصر الحاضر صار واسعاً من جهة، كما تمتزج فيه الأخلاق والآداب بمفهومها المتعارف عليه مع ضوابط ونظم قانونية، وشروط ومواصفات علمية ومهنية، ولذا فإن تعريف أخلاق المهنة ينبغي أن يستوعب هذا الشمول الذي استقر عليه هذا المفهوم على المستوى العالمي، ومن خلال ما سبق نأتي إلى **التعريف الاصطلاحي لأخلاق المهنة**، ونعرفه بأنه: "مجموعة القيم والنظم المحققة للمعايير الإيجابية العليا المطلوبة في أداء الأعمال الوظيفية والتخصصية، وفي أساليب التعامل داخل بيئة العمل ومع المستفيدين، وفي المحافظة على صحة الإنسان وسلامة البيئة".

(١) انظر بوابة "المسؤولية الاجتماعية" بموقع (الشركة السعودية للكهرباء) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) انظر قسم "حماية البيئة" ضمن بوابة "عن الهيئة الملكية" بموقع (الهيئة الملكية للجبيل وينبع) على الشبكة العنكبوتية.

ومرادنا بـ(القيم) الصفات النفسية، والسمات السلوكية للعامل والمهني، أي الأخلاق الحسنة في العمل.

وأما (النظم) فالمراد بها الضوابط والشروط الفنية التي تحكم الأداء الوظيفي والمهني في صيغة قانونية. وكلاهما (القيم، والنظم) يعرِّف بالصواب والخطأ، ويميز بين الجيد والرديء.

وأما (المعايير) فالمراد بها المواصفات المحددة للأساليب والممارسات العملية في أداء الأعمال، وفي التعامل في بيئة العمل.

ووصفها بـ (الإيجابية) لاستبعاد الأخلاق والممارسات السلبية الضارة.

وإضافة صفة (العليا) للدلالة على المثالية المنشودة والسمو الأخلاقي المطلوب.

وكل هذه القيم والنظم بمعاييرها الإيجابية العليا لا بد من وجودها في الجوانب الخمسة التي فصلناها سابقاً.

وقد أجملها التعريف في مجال "أداء الأعمال الوظيفية والتخصصية" ليشمل الأعمال في الوظائف العامة، وفي المهن المتخصصة، وكذا في مجال" التعامل داخل بيئة العمل ومع المستفيدين" وهو الذي يشمل أخلاق العمل بين الموظفين فيما بينهم، وبينهم وبين المدراء والمسؤولين، وأما "المستفيدين" فيشمل كل من يستفيد من العمل والمهنة كالمريض في القطاع الصحي، والطالب في القطاع التعليمي، والمشتري أو المستهلك في القطاع الاقتصادي، وهكذا.

وأخيراً تناول التعريف الجانب الأكثر حداثة فيما يتعلق بـ "صحة الإنسان وسلامة البيئة".

مواصفات ومزايا مواثيق أخلاق المهنة

الميثاق الأخلاقي لأي مهنة يضم القواعد المنظمة لممارسة المهنة، و مواصفات الأداء للارتقاء بها، وتدعيم رسالتها. ورغم أهمية هذه المواثيق في تحديد الممارسات والأولويات داخل مهنة معينة إلا أنها لا تعني وجود هذه الأخلاقيات بالفعل، وهي غير كافية لتحقيق الالتزام الأخلاقي والمهني بمجرد وضعها، والطريقة الصحيحة للحكم على مهنة معينة في منشأة معينة أو اتحاد معين هو السلوك الفعلي والأداء العملي للأعضاء والمنسوبين، ومدى محافظتهم على قيم وأخلاق وشروط ميثاق مهنتهم.

وعادة ما تتميز مواثيق أخلاق المهنة بمزايا أهمها: أن يتميز الميثاق الأخلاقي للمهنة بـ:

- **الاختصار والتركيز:** وذلك يظهر في العرض في صورة عبارات محكمة موجزة.
- **السهولة والوضوح:** بحيث تكون النصوص مفهومة لمنسوبي المهنة، والمستفيدين منها، مع توظيف المصطلحات التخصصية بما يتوافق مع هذه السهولة.
- **الشمول والتصنيف:** بحيث يستوعب الميثاق التخصصات التابعة للمهنة، كما يصنف الميثاق إلى أقسام وأبواب تتعلق بالشرائح المختلفة من أهل المهنة، وزملاء المهنة، والجمهور المستفيد، ونحو ذلك.
- **الخلقية والعلمية:** بحيث تشتمل المواثيق على الدلالة على الأخلاق بمفهومها العام، ودلالتها الإنسانية والمجتمعية، مع ربطها بطبيعة المهنة أو الوظيفة، إضافة إلى المعلومات العلمية المهنية ومتطلباتها في كفاءة التأهيل، وحسن الأداء، وجودة المنتجات والمخرجات.
- **الالتزام والعقوبات:** يوضّح الميثاق الالتزامات المهنية تجاه شرف المهنة، وزملاء المهنة، إضافة إلى المنظمات والمؤسسات القائمة على شؤون المهنة، فضلاً عن المستفيدين من المهنة بكل أطيافهم على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وفي كل الأحوال يشير إلى العقوبات عند الإخلال بهذه الالتزامات.
- **التوازن والتكامل:** فالمواثيق تذكر ما لمنسوبي المهنة من الحقوق، وما يسمح لهم به من الممارسات، وفي الوقت نفسه تكمل الصورة ببيان واجباتهم تجاه المستفيدين، وذكر حقوق المستفيدين التي لهم حق المطالبة بها والحصول عليها من منسوبي المهنة.
- **المعيارية والمنهجية:** بحيث تحدد المواثيق بشيء من الدقة المواصفات الخلقية والمهنية المطلوبة، وذلك بشكل معياري يمكن ضبطه وقياسه، ويضاف إلى ذلك تشتمل المواثيق على الطريقة المنهجية التي يتم بها الحكم على وجود الالتزام أو المخالفة، وما يترتب عليهما من المكافأة والمعاقبة.

نماذج من مواثيق أخلاق المهنة المعاصرة

النموذج الأول

نقدم هذا النموذج لتوضيح مواصفات الاختصار والوضوح والجمع بين الجوانب الخلقية والعلمية

والتوازن، وهو خاص بميثاق: **(القواعد الأخلاقية المهنية والإرشادات العامة للتطبيق للجمعية الأمريكية للإدارة العامة)** ونصه:

- أنشئت الجمعية الأمريكية للإدارة العامة (ASPA) لتطوير علم ونشاط (عمليات) وفن الإدارة العامة. وهي تشجع المهنية (الحرفية) ورفع جودة الخدمة في كل مستويات الحكومة: في التربية والتعليم وفي القطاع الخيري.
- والجمعية الأمريكية للإدارة العامة تساهم وتشارك في التحليل والفهم وحل المسائل والقضايا العامة عن طريق البرامج، والخدمات، ودراسات السياسة (العامة)، والمؤتمرات، والمؤلفات.
- أعضاء الجمعية يشاركون مع جيرانهم كل المسؤوليات وحقوق المواطنة في المجتمع الديمقراطي. ومع ذلك فللجمعية رسالة ومقاصد هي: دعوة كل عضو لبذل مزيد من التضحية والالتزام.
- هناك قواعد ومعايير أخلاقية وأدبية يجب أن تقود (توجه) سلوك أعضاء الجمعية، ليس فقط لمنع وقوع الخطأ، بل لطلب الحق من خلال التوقيت المناسب في التنفيذ الفعال والنشط للمسؤوليات (الواجبات).

ولبلوغ هذه الغاية، نعترف نحن – الأعضاء – بالدور الحساس للضمير (والعقل) في اختيار أحد الخيارات، والأخذ بعين الحرص للغموض الأخلاقي، ونتعهد ونلتزم بالآتي:

١- إظهار أعلى معايير الكمال الشخصي، الصدق، الأمانة، الثبات، والجلد في كل أنشطتنا العامة: من أجل بعث وإلهام ثقة العامة واحترامهم للمؤسسات العامة.

٢- خدمة العامة، مع الاحترام، والاهتمام، واللطف، والكياسة، والاستجابة، مع الاعتراف بأن خدمة العامة مقدمة على الخدمة الذاتية (الشخصية).

٣- السعي للامتياز المهني وتشجيع التطور المهني لزملائنا وللآخرين الذين يرغبون في الانضمام لحقل الإدارة العامة.

٤- نعامل منظمتنا وواجباتنا العملية معاملة إيجابية، وندعم بشكل بناء التواصل المفتوح (الحر)، والإبداع، والإخلاص، والرحمة.

٥- أثناء أداء واجباتنا الرسمية نخدم بطريقة لا تحقق مكاسب شخصية لا نستحقها.

٦- نتجنب أي نشاط أو ممارسة تتضارب أو تتعارض مع المصلحة العامة في أداء واجباتنا الرسمية.

٧- نحترم ونحمي المعلومات التي حصلنا عليها بسبب أدائنا لواجباتنا الرسمية.

٨- نمارس سلطتنا الرسمية المنصوص عليها نظاماً قدر استطاعتنا لتطوير المصلحة العامة.

٩- نقبل كواجب مسؤولية متابعة أحدث القضايا والتطورات المثارة، وندير العمل العام مع الجدارة المهنية، والعدل، والتجرد والنزاهة، والكفاءة والكفاية.

١٠- دعم وتطبيق وتشجيع نظام الجدارة في التوظيف، وبرامج الإصلاح، والعمل الإيجابي؛ لإتاحة فرصة متكافئة في التوظيف، والاختيار، والترقية للأشخاص الأكفاء، من جميع قطاعات المجتمع.

١١- التخلص من جميع أشكال التمييز غير الشرعي، والخداع، والإدارة السيئة للمال العام، ودعم زملاء المهنة في حالة المتاعب بسبب مسؤولياتنا لتصحيح أي تمييز، أو خداع، أو إدارة سيئة، أو إساءة.

١٢- الاحترام، والدعم، والدراسة، والعمل عند الضرورة؛ لتحسين الدستور الاتحادي، ودستور الولاية، والأنظمة والقوانين التي تحدد العلاقات بين المصالح الحكومية، والموظفين، والعملاء (المستفيدين) وجميع المواطنين"(١).

النموذج الثاني

ونقدم في هذا النموذج مقتطفات من (**مدونة أخلاقيات الجمعية الأمريكية للتسويق**) لإبراز مزايا الشمولية والالتزامات والعقوبات، وهذا هو جزء من المدونة:

حقوق وواجبات الأطراف في عملية التبادل التسويقي:

إن المشاركين في عملية التبادل التسويقي يجب أن يكونوا قادرين على توقع أن:

١- المنتجات والخدمات المعروضة هي آمنة، وملائمة لاستخداماتها المقصودة.

(١) أخلاقيات المهنة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص٢٥٢-٢٥٤).

٢- الاتصالات حول المنتجات المعروضة هي غير مخادعة.

٣- كل الأطراف يعتزمون تحمل التزاماتهم المالية وغيرها بنية حسنة.

٤- وجود الطرق الداخلية الملائمة من أجل التسوية العادلة و/أو لمعالجة الشكاوى المتعلقة بالمشتريات.

إن المفاهيم أعلاه تتضمن - دون أن تكون محددة بها - المسؤوليات الآتية للمسوق:

- الكشف عن كل المخاطر الجوهرية المرافقة لاستخدام المنتج أو الخدمة.
- تحديد التعويض لأي مكون للمنتج، قد يغير المنتج مادياً، أو التأثير على قرار الشراء لدى المشتري.
- تحديد الخصائص المضافة مقابل التكلفة الإضافية.

في مجال الترويج:

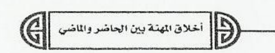
- تجنب الإعلان الزائف والمضلل.
- رفض مناورة الضغوط العالية أو تكتيكات المبيعات المتصلة بذلك.
- تجنب ترويجات المبيعات التي تستخدم الخداع أو المناورة.

في مجال التوزيع:

- عدم التلاعب بالمتاح من المنتج بغرض الاستغلال.
- عدم استخدام الإكراه في قناة التسويق.
- عدم القيام بالتأثير غير الضروري على الخيار القائم بإعادة البيع من أجل تداول المنتج.

في مجال التسعير:

- لا تعهد بتثبيت الأسعار.
- لا ممارسة للتسعير المؤذي للآخرين.
- الكشف عن السعر الكامل في كل عملية شراء.



في مجال بحوث التسويق:

- حصر البيع أو كسب الصفقة في هيئة القيام بالبحوث.
- المحافظة على الاستقامة في البحوث بتجنب تسوية أو حذف تاريخ البحث المعني.
- المعاملة العادلة للزبائن والموردين.

العلاقات التنظيمية:

يجب أن يكون المسوّقون واعين لكيفية تأثير سلوكهم على سلوك الآخرين في العلاقات التنظيمية، فعليهم ألا يطلبوا أو يشجعوا أو يقوموا بالإكراه على ما يؤدي إلى سلوك لا أخلاقي في علاقاتهم مع الآخرين، كالعاملين، والموردين، والعملاء.

١- عدم الكشف عن الهوية (Anonymity) في العلاقات المهنية.

٢- الوفاء بالتزاماتهم ومسؤولياتهم في العقود والاتفاقات المتبادلة بطريقة مناسبة.

٣- تجنب أخذ العمل من الآخرين كلياً أو جزئياً، حيث يمثل هذا العمل منافع خاصة ومباشرة، بدون تعويض أو موافقة الذي قام بالعمل أو صاحبه.

٤- تجنب المناورة لكسب ميزة في حالات معينة لتعظيم الكسب الشخصي بطريقة قد تحرم أو تضر بالآخرين.

إن أي عضو في الجمعية وجد في حالة انتهاك لأي إجراء في مدونة الأخلاقيات هذه، تعلق عضويته مؤقتاً، أو توقف نهائياً.

إن المسوقين يجب أن يقبلوا المسؤولية عن عواقب أنشطتهم، ويقوموا بكل جهد لضمان أن تعمل قراراتهم وتوصياتهم وأنشطتهم على تقديم الخدمة وإرضاء الجمهور كله: العملاء، المنظمات، والمجتمع[1].

(١) أخلاقيات المهنة في عالم متغير، لنجم عبود نجم (ص٢٦٦-٢٦٩).

خلاصة الوحدة الأولى

أثر الأخلاق في بيئة الأعمال

- الموظف الخلوق أكثر قدرة على الإنجاز وحسن الأداء.
- بيئة العمل في ظلال الأخلاق بيئة جد وإنتاج، ودقة وإتقان.
- الخلق الفاضل يثمر الإرادة القوية والعزيمة الماضية ، وذلك ينعكس إيجابياً على القوة والحيوية في الأداء الوظيفي، والقدرة على اتخاذ الأفضل والأحسن من القرارات والإجراءات التي تخدم العمل.
- الخلق القويم يشكل بيئة عمل مميزة، تعمل بروح الفريق الواحد، وتتجانس بالتعاون، وتتكامل بالترابط، بما يحقق الأداء الفعّال والاتجاه باستمرار نحو الأفضل.
- التعامل الأخلاقي يُكسِب سمعة حسنة، وقبولاً جيداً لدى العملاء، بما ينعكس إيجابياً على تحقيق النجاح في الرواج والانتشار، وزيادة المبيعات.

مظاهر العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال

- تسابق معظم الشركات لإصدار مدونات أخلاقية خاصة بها.
- وجود جمعيات مهنية متخصصة تعنى بإصدار مواثيق تنظيمية وأخلاقية وإنسانية تتعلق بمهنها.
- ظهور عدد من مؤسسات المجتمع المدني وجمعيات النفع العام المتخصصة في العناية بأخلاق المهنة، والدعوة إلى التزام الأخلاق في الأعمال.
- تدريس أخلاقيات المهنة ضمن مقررات التعليم الجامعي.
- مواكبة المستجدات ووضع أخلاق ومواثيق خاصة لضبط التقنيات الحديثة ومنع انحرافها.

أسباب العناية بأخلاق المهنة

أولاً: وجود الدلائل الكثيرة على أن الشركات التجارية أقل أخلاقية مما يجب.

ثانياً: تبلور مفهوم أن الشركات وبيئات العمل لا يكفي أن يكون تعظيم الربح والجودة الإنتاجية هما سر قوتهم، وعامل بقائهم، دون عناية كافية بالاعتبارات الخلقية.

ثالثاً: وجود الأسباب والذرائع التي تدفع نحو الفساد الأخلاقي على مستوى الأفراد والشركات أو منظومات الأعمال، كالشره والطمع، وبيئة المنافسة بين الشركات.

رابعاً: التوسع الهائل في أعداد وحجم الشركات والحاجة لتنظيم العلاقات ضمن إطار أخلاقيات العمل.

خامساً: زيادة العلم والثقافة وثورة التقنيات والانفتاح الإعلامي في العصر الحديث أوجد لدى الشعوب وعياً كبيراً جعلهم يعرفون حقوقهم ويطالبون بها.

مفهوم أخلاق المهنة

هي: "الأخلاق الواجب توفرها في العاملين، وبيئة العمل لمنشأة اقتصادية، أو لمهنة معينة".

وتتناول الوثائق الأخلاقية الخاصة بأخلاق المهنة الجوانب التالية:

الجانب الأول: معايير الأداء المثالي في المهنة: ويتناول ممارسات ومواصفات تخصصية دقيقة تتعلق بكل مهنة من المهن.

الجانب الثاني: أخلاق مزاولة المهنة: ويشتمل على أخلاق مخصصة يلزم التحلي بها عند ممارسة مهنة أو وظيفة ما؛ لأن هذه الأخلاق تتعلق بهذه المهنة بشكل أوضح وأظهر.

الجانب الثالث: أخلاق التعامل مع المستفيدين من المهنة: ويضم الأخلاق اللازمة لأصحاب المهن والموظفين في تعاملهم مع الجمهور المتلقي لخدماتهم والطالب لمهاراتهم.

الجانب الرابع: أخلاق التعامل مع زملاء المهنة وداخل بيئة العمل: ويعتني بأخلاق التعامل بين زملاء المهنة والموظفين في دائرة أو شركة أو مهنة واحدة.

الجانب الخامس: أخلاق وضوابط المحافظة على البيئة: ويتعلق بالأخلاق والنظم المطلوبة للمحافظة على البيئة التي تشمل كل ما يحيط بالإنسان من موجودات، من ماء، وهواء، وكائنات حية، وجمادات.

- **التعريف الاصطلاحي لأخلاق المهنة:** هو: "مجموعة القيم والنظم المحققة للمعايير الإيجابية العليا المطلوبة في أداء الأعمال الوظيفية والتخصصية، وفي أساليب التعامل داخل بيئة العمل ومع المستفيدين، وفي المحافظة على صحة الإنسان وسلامة البيئة".

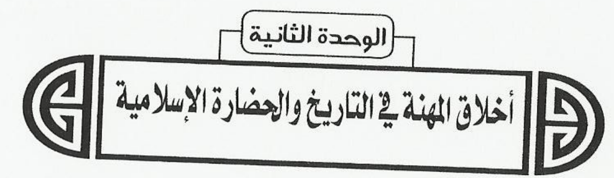
مواصفات ميثاق أخلاق المهنة

- الاختصار والتركيز.
- السهولة والوضوح.
- الشمول والتصنيف.
- الخلقية والعلمية.
- الالتزام والعقوبات.
- التوازن والتكامل.
- المعيارية والمنهجية.

الوحدة الثانية

أخلاق المهنة في التاريخ والحضارة الإسلامية

- العناية بتدوين أخلاق المهن المختلفة
- الشمول والتصنيف في أخلاق المهنة
- نظام الحسبة وأخلاق المهنة
- مزايا أخلاق المهنة في المنظور الإسلامي





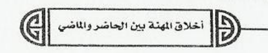
مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس

كان تاريخنا الحضاري الإسلامي سابقاً ورائداً في ميدان أخلاقيات المهنة بجوانبه المختلفة ودقائقه المتخصصة، فقد كان لأخلاق المهنة حضور قوي وظهور بارز في التاريخ الإسلامي، حيث كانت الأخلاق المهنية من مزايا الحضارة الإسلامية وصورتها المشرقة، لما للشريعة الإسلامية من دور في حياة الأمة، وهي تعطي للأخلاق مكانة عالية.

وقد ظهرت دلائل العناية الفائقة والتطبيق الفعلي لأخلاق المهنة في التاريخ الإسلامي من خلال مظاهر متعددة، تمثلت في العناية بتدوين أخلاق المهن المختلفة، وفي نظام الحسبة، الذي يمثل النموذج الحضاري الإسلامي لأخلاقيات المهنة وللجودة الشاملة الذي سبق كل هذه النظريات والممارسات بأكثر من أربعة عشر قرناً.

وقد فصّلنا لك ذلك كله في هذه الوحدة، فاحرص – **أخي الدارس** – على دراستها؛ للتعرف على ذلك كله.



الأهداف التعليمية للوحدة الثانية

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تبيّن مدى حضور أخلاق المهنة في التاريخ الإسلامي.

٢- تحدّد عوامل العناية بأخلاق المهنة في المجتمع الإسلامي.

٣- توضّح دلائل العناية والتطبيق الفعلي لأخلاق المهنة في التاريخ الإسلامي.

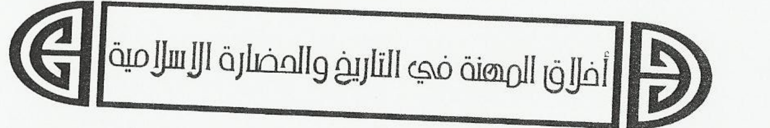
٤- تبيّن العلاقة بين نظام الحسبة وأخلاق المهنة.

٥- توضّح مجالات ومهمات الحسبة في المجتمع المسلم.

٦- تحدّد عظمة مهام الحسبة بمقارنة مهامها بالتنظيم المعاصر للدولة.

٧- تبيّن أوجه الشبه والتميز بين نظام الحسبة ونظام الجودة الشاملة المعاصر.

٨- تعدد مزايا أخلاق المهنة في المنظور الإسلامي.



أخلاق المهنة في التاريخ والحضارة الإسلامية

رغم الحداثة النسبية لمفاهيم ومواثيق أخلاق المهنة المتطورة التي تبلورت خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، إلا أننا نرى أن تاريخنا الحضاري الإسلامي كان سابقاً ورائداً في هذا الميدان بجوانبه المختلفة ودقائقه المتخصصة، فقد كان لأخلاق المهنة حضور قوي، وظهور بارز في التاريخ الإسلامي، حتى صارت أخلاق المهنة من مزايا الحضارة الإسلامية وصورتها المشرقة، وهناك عاملان أساسيان يوضحان سبب ذلك هما:

- عظمة مكانة الأخلاق في الإسلام، ومنهجه في ربطها بأصوله وأركانه، وعظمة عنايته بوجودها في جميع مجالات الحياة.
- تحكيم الشريعة الإسلامية في واقع الحياة، وجعل القرآن دستوراً للأمة ومنهجاً لحياتها، تستمد منه قوانينها، وتستند إليه في أنظمتها وآدابها، وتتم ممارسته والتزامه عملياً، ويكون التحاكم إليه قضائياً، وتقوم المراقبة لمخالفته احتساباً.

ويمكن أن نرى دلائل العناية الفائقة والتطبيق الفعلي لأخلاق المهنة في التاريخ الإسلامي من خلال هذا الموجز:

١- العناية بتدوين أخلاق المهن المختلفة

اعتنى المسلمون ببيان الأخلاق الخاصة بكل مهنة من المهن من خلال مؤلفات تبين الأخلاق الحسنة والآداب الفاضلة اللازمة لصاحب المهنة، وما يجب عليه تجنبه والاحتراز عنه من الأخلاق والممارسات السيئة، وربط ذلك بالأدلة من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال السلف واستنباطات العلماء، وذلك بصورة تخصصية تربط بين الخلق وبين طبيعة العمل أو المهنة ومتطلباتها اللازمة للنجاح وحسن الأداء، وإليك هذه الأمثلة على ذلك:

في مجال وظائف الحكم والولايات العامة:

- أدب الملوك: لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ).
- سراج الملوك: لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت:٥٢٠هـ).

في مجال مهنة التعليم:

- كتاب أخلاق العلماء: لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (ت:٣٦٠هـ).
- كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: للإمام الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ).

في مجال مهنة الطب:

- كتاب أخلاق الطبيب: للطبيب الشهير محمد بن زكريا الرازي(ت: ٣١١هـ).
- كتاب أدب الطب: لإسحاق بن علي الرهاوي (ت: ٣١٩هـ) .

٢- الشمول والتصنيف في أخلاق المهنة

تناول التراث الإسلامي كل مهنة من جوانبها المختلفة، من جهة الأطراف المرتبطة بها مثل (المرض، الطبيب، المرض) و (الطالب، المعلم، الزملاء)، ومن جهة المضامين النوعية، فالطبيب تذكر أخلاقه الشخصية الإنسانية، وأخلاقه في التعامل مع المرضى، وأخلاقه في حفظ وكتمان أسرار المرضى، وهكذا مع المعلم أو القاضي أو الحاكم، إضافة إلى التصنيف المنهجي في بيان الأخلاق حسب الأحوال، حيث ترد – على سبيل المثال – تصرفات القاضي أو الحاكم عند الغضب، وعند وجود صلة بينه وبين بعض الخصوم وهكذا، وبالمثال يتضح المقال، ولذا فنورد من كل مجال مثال:

مثال في أخلاق الساسة والحكام

أفرد الماوردي في كتابه (درر السلوك في سياسة الملوك) باباً في أخلاق الملك، ذكر فيه جملة وافرة من الأخلاق اللازمة للملوك والحكام، ومن ذلك ذكره للمشورة حيث قال في أهميتها: " وينبغي للملك ألا يمضي الأمور بهاجس رأيه، ونتائج فكره، تحرزاً من إفشاء سره، والاستعانة برأي غيره، حتى يشاور ذوي الأحلام والنهى، وأهل الأمانة والتقى، ممن قد حنكتهم التجارب فارتاضوا بها، وعرفوا عند موارد

الأمور حقائق مصادرها، فإنه ربما كان استبداده برأيه أضر عليه من إذاعة سره، وليس كل الأمور أسراراً مكتومة، ولا الأسرار المكتومة بمشاورة النصحاء فاشية معلومة"[١].

وقال في الحذر من الغضب: " ويحذر الغضب ويتجنبه؛ فإنه شر قاهر، وأضر معاند، وليس يفسد الأمور وينتقص التدبير إلا عند غلبته، وشدة فورته، فإنه مُني به فلا يُمضي فعلاً، ولا يُنفذ حكماً حتى يزول، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: " إِذَا اسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ"[٢]"[٣].

مثال في أخلاق مهنة التعليم

في كتاب (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لبدر الدين ابن جماعة (ت:٧٢٢هـ) شمولية تضم الجوانب المختلفة المتصلة بمهنة التعليم وتشمل أخلاق المعلم والطالب. وهذه مقتطفات مختارة تكشف عن عمق المادة وجودتها وشمولها، حيث ورد فيه:

أولاً: (في أدب العالم في نفسه ومراعاة طالبه ودرسه) ومن ذلك:

- دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته، وأقواله وأفعاله؛ فإنه أمين على ما أودع من العلوم، وما منح من الحواس والفهوم[٤].
- أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية، من جاه، أو مال، أو سمعة، أو شهرة، أو خدمة، أو تقدم على أقرانه.
- أن يتنزه عن دنيء المكاسب ورذيلها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً[٥].
- معاملة الناس بمكارم الأخلاق، من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم، والإيثار، وترك الاستئثار، .. والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والرفق بالطلبة، وإعانتهم وبرهم.

---

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، للماوردي (ص٧٣).
(٢) رواه أحمد، حديث رقم (١٨٠١٣)؛ والطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (٤٤٤).
(٣) درر السلوك في سياسة الملوك، للماوردي (ص٦٦-٦٧).
(٤) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لبدر الدين ابن جماعة (ص١٥).
(٥) المصدر السابق (ص١٩).

- أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمره بالأخلاق المرضية، فمن الأخلاق الرديئة: الغل، والحسد، والبغي، والغضب لغير الله تعالى، والغش، والكبر، والرياء، والعجب، والسمعة، والبخل والخبث، والبطر، والطمع، والفخر، والخيلاء، والتنافس في الدنيا، والمباهاة بها، والمداهنة، والتزين للناس[1].
- أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه، منصباً، أو نسباً، أو سناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها[2].

ثانياً: (فصل في آداب العالم في درسه)، ومما ورد فيه:

- أن يجلس بارزاً لجميع الحاضرين، ويوقر أفضلهم بالعلم والسن والصلاح والشرف، ويرفعهم على حسب تقديمهم في الإمامة، ويتلطف بالباقين، ويكرمهم، بحسن السلام، وطلاقة الوجه، ومزيد الاحترام[3].
- أن لا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة[4].
- أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه، ويسمع السؤال من مورده على وجهه، وإن كان صغيراً، ولا يترفع على سماعه فيحرم الفائدة.

وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده، أو تحرير العبارة فيه، لحياء، أو قصور، ووقع على المعنى عبر عن مراده وبين وجه إيراده ... وإذا سئل عما لم يعلمه قال: لا أعلمه، أو لا أدري؛ فمن العلم أن يقول: لا أعلم[5].

ثالثاً: (في آداب العالم مع طلبته مطلقاً في حلقته)، ومما أورد فيه من الأخلاق والآداب ما يلي:

- أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق، وخمول الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها[6].

---
(١) المصدر السابق (ص٢٣).
(٢) المصدر السابق (ص٢٨).
(٣) المصدر السابق (ص٣٣).
(٤) المصدر السابق (ص٣٩).
(٥) المصدر السابق (ص٤٢).
(٦) المصدر السابق (ص٤٧).

- أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه، وحسن التلطف في تفهيمه، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك؛ لحسن أدبه وجودة طلبه، ويحرضه على طلب الفوائد وحفظ النوادر الفرائد، ولا يدّخر عنه من أنواع العلوم ما يسأله عنه، وهو أهل له لأن ذلك ربما يوحش الصدر، وينفّر القلب، ويورث الوحشة.
- وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له؛ لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرّق فهمه، فإن سأله الطالب شيئاً من ذلك لم يجبه، ويعرّفه أن ذلك يضره ولا ينفعه، وأن منعه إياه منه لشفقة عليه ولطف به لا بخلاً عليه[1].
- أن يحرص على تعليمه وتفهيمه، ببذل جهده، وتقريب المعنى له، من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره[2].
- إذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة، يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شكره، ومن لم يفهمه تلطف في إعادته له، والمعنى بطرح المسائل أن الطالب ربما استحيا من قوله لم أفهم، إما لرفع كَلّ الإعادة على الشيخ، أو لضيق الوقت، أو حياء من الحاضرين، أو كيلا تتأخر قراءتهم بسببه[3].
- أن يُطالِب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات، ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة، والمسائل الغريبة، ويختبرهم بمسائل تبنى على أصل قرّره أو دليل ذكره، فمن رآه مصيباً في الجواب، ولم يخف عليه شدة الإعجاب، شكره وأثنى عليه بين أصحابه؛ ليبعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد. ومن رآه مقصّراً ولم يخف نفوره عنّفه على قصوره، وحرّضه على علو الهمة، ونيل المنزلة في طلب العلم[4].
- أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده، في مودة، أو اعتناء، مع تساويهم في الصفات، من سنٍّ، أو فضيلة، أو تحصيل، أو ديانة؛ فإن ذلك ربما يوحش منه الصدور، وينفّر القلب،

---
(١) المصدر السابق (ص٥١).
(٢) المصدر السابق (ص٥٢).
(٣) المصدر السابق (ص٥٣).
(٤) المصدر السابق (ص٥٤).

فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً، وأشد اجتهاداً، أو أبلغ اجتهاداً، أو أحسن أدباً، فأظهر إكرامه، وتفضيله وبيّن أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب، فلا بأس بذلك؛ لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات[1].

مثال في أخلاق مهنة الطب

في رسالة (بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم) لمحمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي (ت٧١٠هـ)، أفرد المصنف الفصل الثالث للصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الطبيب، وذلك أمر مهم في تحديد مفهوم شرف هذه المهنة، وحددها في عشر صفات تتناول المسائل الخلقية والعلمية للطبيب نجملها فيما يلي:

١- الإيمان المطلق بالله، والخوف منه، والأمانة، وفعل الخير، والابتعاد عن الإضرار بالناس.

٢- أن يحمدوا لمعلميهم ويشكروهم على ما أفادوهم من العلوم.

٣- يجب ألا يبخلوا بتعليم هذه المهنة بلا أجر، لمن أراد أن يتعلمها من المستحقين بذلك.

٤- ضرورة الاجتهاد في معالجة المرضى، وحسن التدبير، بالأغذية، والأدوية، ولا يكون الغرض من ذلك المال، بل طلب الثواب والأجر.

٥- ألا يعطي الأدوية الضارة، ولا يدل عليها.

٦- ألا يفشي أسرار المرضى التي أؤتمن عليها.

٧- أن يكون لطيف الكلام، دمث الأخلاق، طلق الوجه، ولا يفرق بين مداواة غني أو فقير.

٨- أن يكون بعيداً عن العادات والطباع السيئة، كالتلذذ، والتنعم، وشرب المسكرات.

٩- يجب أن يكون أكثر اشتغاله بقراءة الكتب الطبية والحكمية، ملازماً للبيمارستان (المستشفى)، كثير المزاولة لأعمال المرضى، والتدرب على معالجتهم مع حذاق الأطباء.

١٠- يجب ألا يأنف من المشورة، وأخذ رأي من هو أفضل منه.

ثم يقول في آخر هذه الصفحات ناصحاً: " واعلم أن الطبيب إذا واظب على هذه السيرة يرجى أن يحصل له الذكر الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، ولم يعدم مع ذلك المال والجاه".

(١) المصدر السابق (ص٥٩).

نظام الحسبة وأخلاق المهنة

تتمثل المفخرة الحضارية للإسلام والمسلمين بشكل بارز في نظام الحسبة، وهو النظام الرقابي الفعال في المحافظة على الآداب العامة، وصيانة المرافق العامة، وكفاءة الأداء المهني، وجودة المنتجات والخدمات، بالإضافة إلى حماية المصالح العامة وحقوق الناس من الغش في المواد أو التلاعب بالأسعار.

مفهوم الحسبة وتعريفها

"حقيقة الحسبة هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، والمراد بالمعروف هو: الأمر بالواجبات والمندوبات، والنهي عن المنكر: النهي عن المحرمات والمكروهات"[1].

وقد عرَّفها بعض المعاصرين بأنها "رقابة إدارية، تقوم بها الدولة، عن طريق موظفين خاصين على نشاط الأفراد في مجال الأخلاق والدين والاقتصاد... تحقيقاً للعدل والفضيلة، وفقاً للمبادئ المقررة في الشرع الإسلامي، والأعراف المألوفة في كل بيئة وزمن"[2].

ويمكننا القول بأن نظام الحسبة يقوم – بشكل عام – على حماية محارم الله تعالى أن تنتهك، من خلال رعاية حقوق الله، بأداء العبادات والانتهاء عن المحرمات، إضافة إلى صيانة مصالح الناس، عبر المحافظة على المرافق العامة، والأمن العام للمجتمع، و مراقبة الأسواق وأصحاب الحرف والصناعات، وإلزامهم في أعمالهم بمبادئ الأخلاق، وأسس الأداء الجيد في ضوء ضوابط الشرع، ومتابعة مدى التزامهم بجودة المنتجات والخدمات.

آداب المحتسب

الحسبة تنفيذ لشعيرة إسلامية عظيمة، وهي شعيرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، التي اقترنت بها خيرية الأمة في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ومن هنا حدد العلماء الشروط اللازمة والآداب المرعية في المحتسب، ومن أكثر هذه الآداب أهمية ما يلي:

(١) بغية الإربة في أحكام الحسبة، لابن الديبع الشيباني (ص٥٤).

(٢) أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، لأحمد يوسف الدريويش (ص٤٠٧).

أولاً: أن يأمر وينهى في السر إن استطاع ذلك، ليكون أبلغ في الموعظة والنصيحة.

ثانياً: أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وإعزاز الدين، وأن يكون خالص النية لا يشوبه في طويته رياء ولا مراء.

ثالثاً: أن يكون من شيمته الرفق ولين القول، و طلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، وذلك ليكون قوله أبلغ في استمالة القلوب، وإدراك المقصود.

رابعاً: أن يكون صبوراً على ما أصابه، لقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

خامساً: أن يكون عاملاً بما يأمر به، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله حتى لا يعاب عليه[١].

مجالات ومهمات الحسبة

لنقرب الصورة ونسلط الضوء على نظام الحسبة نقول: إن الحسبة كانت ولاية من الولايات المهمة في كيان الدولة الإسلامية، وهي جهاز تابع للدولة يتولى مهمات حيوية في الجانب الديني والأخلاقي، إضافة للجانب المعاشي والمدني، وكذا الجانب الاقتصادي والمالي، فهو يشمل جوانب متعددة يمكن تلخيص أبرزها فيما يلي:

أولاً: مهمات الحسبة في الجانب الديني

١- مراقبة العبادات: وذلك بأن يأخذ المحتسب المسلمين بصلاة الجمعة والجماعة، وأدائها في مواقيتها، ومعاقبة من لا يصلي بالضرب والحبس، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم في حقوق الإمامة أو خرج عن الأذان المشروع ألزمه الصواب.

٢- مراقبة الأخلاق العامة: بمنع شرب الخمور علناً أمام الناس، وفي مجالسهم العامة، ومنع السحرة والكهان من منكراتهم، وتحذير الناس منهم، ومنعهم من التعامل معهم أو الذهاب إليهم.

ثانياً: مهمات الحسبة في الجانب المدني

١- مراقبة الصناع وأرباب الحرف: من سلطة المحتسب مراقبة أصحاب المهن مهما يكن نوعها، فهو يراقب الأطباء والصيادلة، ويجبر الطبيب على دفع دية المريض إذا توفي بسبب سوء تصرفه.

(١) أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، لأحمد يوسف الدريويش (ص٤٥٨-٤٥٩).

كما يراقب الخبازين ويلزمهم بشروط لا بد منها، تتلخص في أن ترفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الأفران منافسَ واسعة يخرج منها الدخان، حتى لا يتضرر الناس، وأن ينظف الخبّاز التنّور بقطعة قماش نظيفة قبل أن يبدأ بالخبز، وأن ينظف أوعية الماء ويغطيها، وينظّف المعاجن، وما يغطى به الخبز، وما يحمل عليه.

"ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقاً يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لِقصادهم أرفق، و لصنائعهم أنفق، كما أن عليه أن يجعل لأهل كل صناعة عريفاً من صالح أهلها خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم"[١].

٢- مراقبة الأبنية والطرقات: ومن سلطة المحتسب هدم الأبنية البارزة، وأمر أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها، ومنع فتح النوافذ في الأبنية التي تشرف على غيرها، كما للمحتسب النظر في مقاعد الأسواق فيقرر منها ما لا ضرر فيه على المارة، ويمنع ما تضر به المارة، وإذا بنى قومٌ بناءً في طريق عام منع المحتسب البناء وأخذهم بهدم ما بنوه، ولو كان المبنى مسجداً؛ لأن الطرق للسلوك لا للأبنية.

٣- مراقبة النظافة والمظاهر العامة: يجب على المحتسب مراقبة نظافة الأسواق والطرقات والشوارع، ومنع الناس والمارة من إلقاء القاذورات فيها، أو رش الماء في الطرقات، بحيث يخشى منه التزحلق والسقوط. كما على المحتسب أمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين[٢].

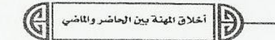
ثالثاً: مهمات الحسبة في الجانب الاقتصادي

١- مراقبة المكاييل والموازين: وذلك بأن يمنع من التطفيف في المكاييل. والبخس في الموازين، وكل معدود ومذروع، وليكن الأدب عليه أظهر، والمعاقبة فيه أكثر، لوعيد الله ونهيه عنه، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين: ١ – ٣).

٢- المنع من الغش في المعاملات والصناعات ونحوها: والغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب، وتدليس السلع، مثل أن يكون ظاهر المبيع خيراً من باطنه.

(١) أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، لأحمد يوسف الدريويش (ص٤٦٤).

(٢) الحسبة في مصر والشام في العصر العباسي الأول، بحث لهيلة محمد القصير، منشور على (موقع التاريخ) بتصرف.



٣- النظر في سوق النقد: وذلك بمنع الغش والتزييف في العملات من الذهب والفضة ونحوهما، والدقة في ملاحظة دار الضرب، وإحكام الرقابة عليها، ومعاقبة الطباعين والوزّانين إذا خانوا في عملهم.

٤- النظر في المعاملات المحرمة: فيمنع من التعامل في العقود المحرمة مثل عقود الربا والميسر، وبيع الغرر... وربا النسيئة، وربا الفضل، وآلات اللهو، وكذا الأواني التي لا تصلح إلا للخمر، ونحو ذلك من كل ما نهى الشرع عن بيعه وشرائه في الأسواق.

٥- المنع من احتكار السلع ونحوها مما يحتاج الناس إليه: فعليه أن يضرب على أيدي المحتكرين، وأن يكرههم على البيع بقيمة المثل عند الحاجة[1].

مهام الحسبة والتنظيم المعاصر للدولة

إذا تأملنا في مهام الحسبة وجدناها في غاية الأهمية في الحياة المدنية وتنظيم شؤونها، وضبط مصالحها، وهي في الحقيقة مهام كبيرة وكثيرة، ونجد هذه المهام اليوم مقسّمة على عدة أجهزة حكومية من الوزارات والهيئات المتخصصة، ويمكن أن نوضح ذلك من خلال ذكر بعض الوزارات والهيئات التي تتولى المهام الأساسية للحسبة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: هيئة المواصفات والمقاييس

وهي وطيدة الصلة بمهام الحسبة، حيث نجد في رسالة (الهيئة السعودية للمواصفات والمقاييس والجودة) ما نصه: "حماية المستهلك وضمان المصلحة العامة من خلال إصدار المواصفات القياسية ونظم الجودة وتطبيقها"، ونطالع من بين مهامها ما يلي:

- إصدار المواصفات القياسية للسلع والخدمات، التي تحدد المستويات الملائمة للجودة، وتراعي أحكام الشريعة الغراء، وتعمل على حماية المستهلك، والبيئة، والسوق الوطنية، وتدعيم الاقتصاد الوطني.
- تحديد وتوحيد طرق الاختبار، وأساليب أخذ العينات لكفالة دقة وتمثيل النتائج.

(١) أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، لأحمد يوسف الدريويش (ص٤٥٨-٤٥٩).

- إجراء الدراسات والبحوث؛ للتأكد من ملائمة المواصفات القياسية، وإيجاد الحلول الملائمة لمختلف مشاكل الجودة[1].

ثانياً: وزارة التجارة والصناعة

والصلة بالحسبة ومهام هذه الوزارة ظاهرة ومباشرة، حيث نجد من مهامها المنصوص عليها ما يلي:

- تطبيق النظام العشري للموازين والمقاييس، وفحص ومراقبة أجهزة الوزن والقياس.
- دراسة طلبات التراخيص لمحلات ومشاغل الذهب، وتسجيلها، ومراقبة دمغ المشغولات الذهبية، وفحصها، وتحليلها.
- مكافحة الغش التجاري بمختلف أنواعه، وضبط المخالفات[2].

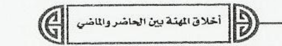
وتولي الوزارة والأجهزة التابعة لها موضوع الرقابة على الأسواق جُلّ اهتمامها وعنايتها، وتسعى جاهدة للنهوض بهذا الدور، بالتعاون مع الجهات ذات العلاقة، للتحقق من سلامة وجودة السلع، والمنتجات الغذائية الواردة إلى المملكة، أو المصنعة محلياً، ومطابقتها للمواصفات القياسية المعتمدة. كما تعمل على مكافحة أساليب الغش، والخداع، والتدليس، والتقليد، وتطبيق الأنظمة بحق المخالفين.

ويتبع للوزارة إدارة مستقلة لمكافحة الغش التجاري، ومن آليات عملها ما يلي:

- القيام بجولات تفتيشية على الأسواق، والمحلات التجارية: للتحقق من سلامة المعروض من المواد التموينية و السلع الاستهلاكية الأخرى، من حيث جودتها وصلاحيتها للاستهلاك أو الاستخدام الآدمي. وضبط المخالفات وفقاً للأنظمة المعتمدة.
- القيام بزيارات دورية مفاجئة للمصانع، وسحب عينات من المواد الخام. وخطوط الإنتاج؛ لإخضاعها للفحص المخبريّ، للتأكد من المطابقة للمواصفات القياسية المعتمدة.
- متابعة المحلات المعلنة عن تخفيضات تجارية في الأسعار: للتأكد من التزامها بالقرارات والتعليمات.

(١) طالع "مهام الهيئة" على موقع (الهيئة السعودية للمواصفات والمقاييس والجودة) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) طالع المهام في قسم "عن الوزارة" في موقع (وزارة التجارة والصناعة) على الشبكة العنكبوتية.



- متابعة المحلات المعلنة عن مسابقات تجارية، والتحقق من حصولها على الترخيص اللازم[1].

ثالثاً: وزارة الشؤون البلدية والقروية

ومعلوم أن البلديات تضطلع بمهام كثيرة متطابقة مع ما كان معمولاً به في نظام الحسبة، ومنها: إصدار تراخيص البناء، والتأكد من المواصفات الفنية لها، ومتطلبات السلامة فيها، كما تعنى بمخططات الأراضي وتنظيمها، وتوفر الخدمات العامة فيها، كما أن لها مهاماً أخرى متصلة بالتراخيص الخاصة بالمطاعم، ومراعاة جوانب النظافة، والصحة العامة. ومن المهام المنصوص عليها ما يلي:

١- وقاية الصحة العامة، وردم البرك، والمستنقعات، والقيام بأعمال الوقاية الصحية من رش وتطهير.

٢- مراقبة المواد الغذائية، والاستهلاكية، والإشراف على تموين المواطنين، وزوار وحجاج بيت الله الحرام بها، ومراقبة أسعارها، وأسعار الخدمات العامة، بالتنسيق مع الجهات المختصة.

٣- إنشاء المسالخ، وتنظيمها، والإشراف على وحدات الذبح بالمشاعر المقدسة خلال موسم الحج.

٤- الترخيص بمزاولة الحرف والمهن، وفتح المحلات العامة، ومراقبتها صحياً، وفنياً.

٥- المحافظة على السلامة، والراحة، وبصورة خاصة اتخاذ الإجراءات اللازمة، بالاشتراك مع الجهات المعنية؛ لدرء وقوع الحرائق، وإطفائها، وهدم الأبنية الآيلة للسقوط، أو الأجزاء المتداعية منها[2].

ويمكن أيضاً أن نضيف (وزارة الصحة) ودورها في التحقق من المتقدمين لمزاولة مهنة الطب من حيث أهليتهم، وكذلك المنشآت الصحية من المستشفيات، والعيادات الخاصة، وتوفر الشروط الفنية والصحية، إضافة إلى مؤهلات العاملين، وكذلك مواصفات الأجهزة الطبية[3].

(١) تجد الآليات مبسوطة في قسم "مكافحة الغش التجاري" بموقع (وزارة التجارة والصناعة) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) انظر قسم "مهام الأمانة" في بوابة «عن الأمانة» في موقع (أمانة العاصمة المقدسة) على الشبكة العنكبوتية.

(٣) انظر قسم "عن الوزارة" في موقع (وزارة الصحة) على الشبكة العنكبوتية.

ومثل ذلك يقال عن مهام (وزارة التربية والتعليم) تجاه مهنة التعليم، في التأكد من أهلية المعلمين، ومتابعة أدائهم، ووضع وتطبيق الشروط الخاصة بافتتاح المدارس والمعاهد الخاصة[1].

نظام الحسبة ونظام الجودة الشاملة المعاصر

يعد (نظام الجودة الشاملة) من أبرز التطورات المعاصرة في مجال الأعمال على مستوى الأجهزة والإدارات الحكومية، فضلاً عن الشركات التجارية والمصانع الإنتاجية، وكانت نشأته الفعلية في اليابان في منتصف القرن الماضي، ثم اعتنى الغرب بالاستفادة منه وتطويره، وتزايدت دوائر العناية به وتطويره في السبعينات والثمانينات، وتعتبر التسعينات هي العصر الذهبي للجودة الشاملة.

تعريف الجودة

الجودة في اللغة: أصلها الاشتقاقي (ج و د)، وهو أصل يدل على التسمح بالشيء وكثرة العطاء[2]. وجاد الشيء جوّده: أي صار جيداً. وأجاد: أتى بالجيد من القول والفعل[3]، والجيد ضد الرديء[4].

والجودة اصطلاحاً: "مجموعة من المزايا والخصائص الخاصة بالمنتج أو الخدمة، والتي تساهم في إشباع رغبات المستهلكين، وتتضمن: السعر، والأمان، والتوفر، والموثوقية، والاعتمادية، وقابلية الاستعمال"[5].

وعُرفت إدارة الجودة الشاملة من قبل (Baharat wakhlu) على أنها " التفوق في الأداء؛ لإسعاد المستهلكين، عن طريق عمل المديرين والموظفين مع بعضهم البعض، من أجل تزويد المستهلكين بجودة ذات قيمة، من خلال تأدية العمل الصحيح، وبالشكل الصحيح، ومن المرة الأولى، وفي كل وقت".

ويلاحظ على التعريف السابق أن تحقيق الجودة الشاملة يتطلب:

- التفوق والتميز في الأداء التنظيمي.

(١) انظر قسم "الوزارة" ضمن بوابة "الهيكل التنظيمي" على موقع (وزارة التربية والتعليم) على الشبكة العنكبوتية.

(٢) المجمل في اللغة، لابن فارس (١/٤٩٣).

(٣) لسان العرب، لابن منظور (٢/٢٥٤).

(٤) تاج العروس، للزبيدي (٤/٤٠٣).

(٥) الجودة في المنظمات الحديثة، لمأمون الدرادكة وطارق الشبلي (ص١٦).

- العمل على إسعاد وإرضاء المستهلكين.
- عمل الموظفين والمدراء مع بعضهم بروح الفريق.
- تقديم سلعة أو خدمة ذات جودة عالية.
- القيام بالعمل الصحيح، وبطريقة صحيحة، ومن المرة الأولى، وفي كل الأوقات[1].

ومن المهم إدراك أن إدارة الجودة الشاملة هي شكل تعاوني لإنجاز الأعمال، يعتمد على القدرات والمواهب الخاصة بكل من الإدارة والعاملين لتحسين الجودة الإنتاجية بشكل مستمر، عن طريق فرق العمل، ومن جهة أخرى تعتبر إدارة الجودة الشاملة بمثابة التزام شامل نحو أداء الأعمال بشكل صحيح، ويمكن تلخيص فلسفة إدارة الجودة الشاملة في أن الجودة ليست هدفاً محدداً يُحتفل به ثم ينسى، بل تعبر الجودة عن هدف متغير، وهو تحسين الجودة باستمرار، ويؤكد الباحثون المتخصصون أن الأخلاق ومنظومة القيم في كل منشأة تعتبر ركيزة أساسية في تحقيق وفعالية الجودة الشاملة[2].

باختصار شديد نقول: إن مبادئ الجودة أساساً موجودة في الإسلام بشكل واضح: فالعمل مطلب شرعي ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، والجد والقوة في أداء المهام دعوة قرآنية ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ (البقرة: ٦٣)، والمبادرة والمسارعة واغتنام الفرص واستثمار الطاقات توجيه رباني ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وهدي نبوي " **اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ** "[3].

والإتقان والإحسان والجودة في أداء الأعمال في صميم التوجيه الإسلامي، فالإحسان غاية إسلامية ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (الملك: ٢)، والإتقان سمة في عظمة خلق الله ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨)، وهو مطلب مؤكد كما ورد في حديث المصطفى ﷺ:

(١) المصدر السابق (ص١٨-١٩).
(٢) انظر: أساسيات إدارة الجودة الشاملة، لريتشارد ل. ويليامز (ص٣-٤) و (ص٢٣-٢٤).
(٣) رواه النسائي، السنن الكبرى، حديث رقم (٢٣٨١١)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم (٩٥٧٧)؛ وابن أبي شيبة، حديث رقم (٣٥٣٢٢).

" **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ** "[1]، والإحسان صفة لازمة عند كل مهمة كما نص عليه قوله ﷺ: " **إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ** "[2].

والمتابعة والمحاسبة ممارسة نبوية، تجلت في الحديث المروي عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، وفيه: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. قَالَ: " **فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ** "[3]، وفي حديث مرور الرَّسُولِ ﷺ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: " **مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ** "، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " **أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي** "[4].

وأما تحقيق حاجات الناس والمحافظة على مصالحهم بإتقان الأعمال في المنتجات والخدمات فعنوانه الوفاء بالعهود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

ونستطيع القول: إن نظام الحسبة يمثل النموذج الحضاري الإسلامي للجودة الشاملة الذي سبق كل هذه النظريات والممارسات بأكثر من أربعة عشر قرناً؛ لأن نظام الحسبة – كما نلخص مما سبق ذكره – يشتمل على:

١- تحديد مواصفات الأهلية المهنية.
٢- تحديد مواصفات المواد والأداء.
٣- تحديد مواصفات السلامة والأمان.
٤- تكوين النقابات المهنية التخصصية للتطوير.
٥- تنفيذ الرقابة الميدانية للمعالجة والتقويم.

(١) رواه أبو يعلى، المسند، حديث رقم (٤٣٢٣).
(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (١٣٢٦)؛ وأبو داود، حديث رقم (٢٤٣٦)؛ والنسائي، الكبرى، حديث رقم (٤٣٧٨).
(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٢٤٥٧).
(٤) رواه مسلم، حديث رقم (١٠٢).

و"بعد مقارنة مكونات إدارة الجودة الشاملة مع المنهج الإسلامي لإدارة الجودة، وعرض نماذج من تطبيقات هذا المنهج، يظهر جلياً أن لا تعارض بينهما بشكل عام كمنهجين إداريين للجودة، إلا أن المنهج الإداري الإسلامي وكما تم عرضه، يمتاز عن الجودة الشاملة بأمور يمكن إجمالها فيما يلي:

١- يشمل تفاعل وتعاون المنظمة التي تتبنى المنهج الإداري الإسلامي وبيئتها المحيطة، والمجتمع الذي تعمل فيه، مما يجعل التعاون في ظل المنهج الإسلامي لإدارة الجودة أكثر شمولية من إدارة الجودة الشاملة، التي تركّز اهتمامها على التعاون داخل المنشأة .

٢- إن تعاون مختلف الأطراف (داخلياً) إدارات وعاملين، و(خارجياً) المنظمة مع الموردين، المنافسين، المجتمع ...إلخ، يتم بفعالية أكبر في ظل المنهج الإسلامي؛ لأن التعاون على الخير أمر واجب على المسلمين داخل المنظمة وخارجها، على مستوى الأفراد والمنظمات.

٣- تمارس المنظمة إدارة وأفراد أنشطتها في ظل المنهج الإداري الإسلامي وفق ضوابط دينية تجعل من أداء تلك الأنشطة عملاً ينتظرون ثوابه الأخروي، وتمنع تلك الضوابط المنظمة من ممارسة نشاطات لا يقرها الإسلام، وإن كان القانون الوضعي يجيزها.

٤- يُقدّم المنهج الإسلامي الرقابة الذاتية بطريقة فعالة تزيد من استقرار الأداء، وتقلل الحاجة إلى أنظمة الرقابة الأخرى، وذلك عن طريق تنمية الوازع الديني لدى الفرد، الذي يجعله يستشعر رقابة خالقه الدائمة له.

٥- يَعتبر المنهج الإسلامي أن قيم وأخلاق العامل جزء لا يتجزأ من مواءمته وقدرته على توفير متطلبات الجودة في عمله، في الوقت الذي لا تتطرق فيه مبادئ الجودة الشاملة لهذا الأمر.

٦- يتبنى المنهج الإسلامي مبدأ رضا العملاء، ولكن بفعالية أكبر من الجودة الشاملة؛ لأن دافع المنظمة للاهتمام بالعميل هو -فضلاً عن تحقيق الأرباح- ديني يجعلها لا تطمع بأرباح زائدة على حسابه " (١).

(١) انظر: مبادئ إدارة الجودة الشاملة في ضوء المنهج الإسلامي- دراسة مقارنة، لإبراهيم محمد العجلوني (ص١٠-١١).

مزايا أخلاق المهنة في المنظور الإسلامي

١- أخلاق المهنة في الإسلام مبدئية

الأخلاق في الإسلام – كما مر بنا – مرتبطة بالإيمان والعبادة، ويمتد أثرها من الدنيا إلى الآخرة، ومن ثم فهي تستند إلى مبادئ راسخة وأسس ثابتة، ونحن نرى كل صفة خلقية وكل مطلب مهني فإذا دليله آية قرآنية أو حديث نبوي، وليس مجرد قول لعالم إداري أو اقتصادي، أما في التصور الانتهازي الذي يجعل الغاية مبرراً للوسيلة فإن الأخلاق لا تكون قائمة على المبادئ ولكنها على مذهب (مكيافيلي) الذي يرى أن التصرف اللا أخلاقي ضروري للوصول إلى الغاية، كما في قوله: " إن الرجال نادراً ما يرتقون من الموقع الأدنى إلى الموقع الأعلى بدون الخداع ".

٢- أخلاق المهنة في الإسلام كلية

الأخلاق الكلية تمثل رؤية شمولية متكاملة، فهي ذات تصور كلي لا نسبي، فالأخلاق النسبية هي أخلاق تتشكل بحسب الظرف والحال، وربما يمكن تمثيلها بالتعبير الشائع: " إذا كنت في روما فتصرف كالرومان"، وهي ليست أخلاقاً كاملة، وضمن هذا السياق يمكن أن تدخل الأخلاق الموقفية التي ترفع من درجة النسبية إلى حدود الموقف الواحد والحالة الواحدة، فالفرد يمكن أن يكون حسن الخلق في حالة وموقف وسيئ الخلق في موقف وحالة أخرى، ولعل الأخلاق الموقفية تفسر كثيراً من المواقف غير الأخلاقية التي تؤدي إلى الضرر بالآخرين.

٣- أخلاق المهنة في الإسلام إنسانية

الأخلاق الإسلامية مشبعة بالإنسانية، ففيها الرحمة بالضعفاء، والمواساة للبؤساء، والشفقة بذوي العاهات والحاجات، وبعدها الإنساني يقف حائلاً دون أن تعميها المصالح فتتجاهل الإنسان بكل معانيه وحاجاته الإنسانية.

أما الفلسفة البراجماتية (Pragmatism) – التي لها تأثير واضح في الفكر الغربي – فهي تدعو إلى " تحويل النظر بعيداً عن الأشياء الأولية، المبادئ والنواميس والفئات، الحتميات المسلَّم بها،

وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة: الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع، الحقائق". "فهي لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور"[1]، أي أنها تتبع أي مسلك تحت عنوان المنفعة. والحق أن البراجماتية لا تمثل مبدأ الغاية تبرر الوسيلة؛ لأنها أكثر سوءاً من ذلك؛ فالغايات الشريفة لا تهمها مطلقاً، والمهم هو الوسيلة الموصلة للمقصود مهما كانت الوسيلة والغاية في غاية الدناءة والبشاعة.

فما يمكن أن يوصف – براجماتياً – بأنه أخلاقي يكمن في قياس منفعته أكثر من كونه ثمرة للقيم الفاضلة. وعليه فإن الأخلاق هي مجال من المجالات التي تخضع للحسابات الاقتصادية؛ فإذا كان الحمار ناجحاً اقتصادياً فإنه جيد وصحيح أخلاقياً، وإذا كان فاشلاً اقتصادياً فإنه سيئ أخلاقياً.

(١) ماهي البراجماتية، مقال لمختار العربي، منشور على (موقع الحوار المتمدن) على الشبكة العنكبوتية.

خلاصة الوحدة الثانية

- كان لأخلاق المهنة حضورٌ قوي، وظهورٌ بارز في التاريخ الإسلامي، حتى صارت من مزايا الحضارة الإسلامية وصورتها المشرقة، وذلك لما يلي:

١- عظمة مكانة الأخلاق في الإسلام وعنايته بوجودها في جميع مجالات الحياة.

٢- تحكيم الشريعة الإسلامية في واقع الحياة، وجعل القرآن دستوراً للأمة ومنهجاً لحياتها.

دلائل العناية بأخلاق المهنة في التاريخ الإسلامي

١- **العناية بتدوين أخلاق المهن المختلفة:** من خلال مؤلفات تبين الأخلاق الحسنة والآداب الفاضلة اللازمة لصاحب المهنة، وما يجب عليه تجنبه والاحتراز عنه من الأخلاق والممارسات السيئة، وربط ذلك بالأدلة القرآنية وأقوال السلف والعلماء.

٢- **الشمول والتصنيف في أخلاق المهنة:** تناول التراث الإسلامي كل مهنة من جوانبها المختلفة، من جهة الأطراف المرتبطة بها، ومن جهة المضامين النوعية، فالطبيب تذكر أخلاقه الشخصية الإنسانية، وأخلاقه في التعامل مع المرضى، وأخلاقه في حفظ وكتمان أسرار المرضى، وهكذا..

حقيقة الحسبة

هي: الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. والمراد بالمعروف هو الأمر بالواجبات والمندوبات، والنهي عن المنكر النهي عن المحرمات والمكروهات".

آداب المحتسب

أولاً: أن يأمر وينهى في السر إن استطاع ذلك، ليكون أبلغ في الموعظة والنصيحة.

ثانياً: أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وإعزاز الدين.

ثالثاً: أن يكون من شيمته الرفق ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره ونهيه.

رابعاً: أن يكون صبوراً على ما أصابه.

خامساً: أن يكون عاملاً بما يأمر به، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله حتى لا يعاب عليه.

مجالات ومهمات الحسبة

أولاً : مهمات الحسبة في الجانب الديني:

١- مراقبة العبادات.

٢- مراقبة الأخلاق العامة.

ثانياً: مهمات الحسبة في الجانب المدني:

٣- مراقبة الصناع وأرباب الحرف.

٤- مراقبة الأبنية والطرقات.

٥- مراقبة النظافة والمظاهر العامة.

ثالثاً: مهمات الحسبة في الجانب الاقتصادي:

٦- مراقبة المكاييل والموازين.

٧- المنع من الغش في المعاملات والصناعات ونحوها.

٨- النظر في سوق النقد.

٩- النظر في المعاملات المحرمة.

١٠- المنع من احتكار السلع ونحوها مما يحتاج الناس إليه.

مهام الحسبة والتنظيم المعاصر للدولة

بعض الوزارات والهيئات التي تتولى المهام الأساسية للحسبة:

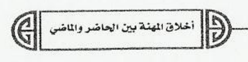
أولاً: هيئة المواصفات والمقاييس.

ثانياً: وزارة التجارة والصناعة.

ثالثاً: وزارة الشؤون البلدية والقروية.

نظام الحسبة ونظام الجودة الشاملة المعاصر

الجودة لغة: يدل على التسمح بالشيء وكثرة العطاء. وأجاد: أتى بالجيد من القول والفعل.



الجودة اصطلاحاً: "مجموعة من المزايا والخصائص الخاصة بالمنتج أو الخدمة والتي تساهم في إشباع رغبات المستهلكين وتتضمن: السعر، والأمان، والتوفر، والموثوقية، والاعتمادية، وقابلية الاستعمال".

متطلبات تحقيق الجودة الشاملة

- التفوق والتميز في الأداء التنظيمي.
- العمل على إسعاد وإرضاء المستهلكين.
- عمل الموظفين والمدراء مع بعضهم بروح الفريق.
- تقديم سلعة أو خدمة ذات جودة عالية.
- القيام بالعمل الصحيح، وبطريقة صحيحة، ومن المرة الأولى، وفي كل الأوقات.

نظام الحسبة يمثل النموذج الحضاري الإسلامي للجودة الشاملة لأنه يشتمل على

١- تحديد مواصفات الأهلية المهنية.

٢- تحديد مواصفات المواد والأداء.

٣- تحديد مواصفات السلامة والأمان.

٤- تكوين النقابات المهنية التخصصية للتطوير.

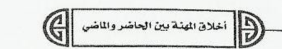
٥- تنفيذ الرقابة الميدانية للمعالجة والتقويم.

المنهج الإداري الإسلامي يمتاز عن الجودة الشاملة بأمور يمكن إجمالها فيما يلي

١- يشمل تفاعل وتعاون المنظمة مع بيئتها المحيطة والمجتمع الذي تعمل فيه.

٢- إن تعاون مختلف الأطراف داخلياً وخارجياً يتم بفعالية أكبر في ظل المنهج الإسلامي؛ لأن التعاون على الخير أمر واجب على المسلمين داخل المنظمة وخارجها، على مستوى الأفراد والمنظمات.

٣- تمارس المنظمة إدارة وأفراد أنشطتها وفق ضوابط دينية تجعل من أداء تلك الأنشطة عملاً ينتظرون ثوابه الأخروي.



٤- يُقدم المنهج الإسلامي الرقابة الذاتية عن طريق تنمية الوازع الديني لدى الفرد، الذي يجعله يستشعر رقابة خالقه الدائمة له.

٥- يعتبر المنهج الإسلامي أن قيم وأخلاق العامل جزء لا يتجزأ من مواءمته وقدرته على توفير متطلبات الجودة في عمله، في الوقت الذي لا تتطرق فيه مبادئ الجودة الشاملة لهذا الأمر.

٦- يتبنى المنهج الإسلامي مبدأ رضا العملاء من منطلق ديني يجعلها لا تطمع بأرباح زائدة على حسابه.

مزايا أخلاق المهنة في المنظور الإسلامي

١- أخلاق المهنة في الإسلام مبدئية: فهي تستند إلى مبادئ راسخة، وأسس ثابتة من القرآن والسنة.

٢- أخلاق المهنة في الإسلام كلية: الأخلاق الكلية تمثل رؤية شمولية متكاملة، فهي ذات تصور كلي لا تتشكل بحسب الظرف والحال.

٣- أخلاق المهنة في الإسلام إنسانية: فلا تعميها المصالح فتتجاهل الإنسان بكل معانيه وحاجاته الإنسانية.

القسم الثالث

أخلاق المهنة الأساسية والتخصصية

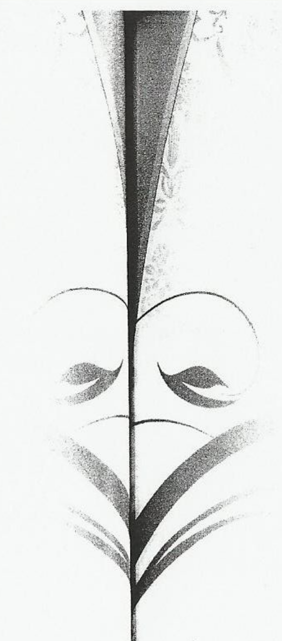
- الوحدة الأولى: أخلاق المهنة الأساسية
- الوحدة الثانية: أخلاق المهن التخصصية
- الوحدة الثالثة: الطريق إلى أخلاق المهنة

الوحدة الأولى



أخلاق المهنة الأساسية

- أخلاق المهنة الأساسية، أصولها، وأهميتها، وترابطها
- الأخلاق الأساسية الأربعة، معناها، وأهميتها، وآثارها، وعلاقتها بالوظائف والأعمال
- أولاً: خلق القوة
- ثانياً: خلق الأمانة
- ثالثاً: خلق الحفظ
- رابعاً: خلق العلم



مبررات دراسة الوحدة

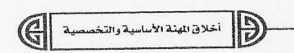
عزيزي الدارس:

هناك جملة من الأخلاق العامة الأساسية التي لا بد من توافرها في أي مهنة وأي عامل، أياً كانت درجته ومكانته، وجملة أخرى من الأخلاق المختصة بمهن معينة، أو بدرجة وظيفية معينة.

هذه الأخلاق هي جوهر (الخريطة الأخلاقية) للإنسان، فإن الأخلاق عموماً، وأخلاق العمل على وجه الخصوص، قابلة للتعديل والتثبيت والاكتساب والفقدان؛ لدخولها تحت إرادة الإنسان وقدرته، ومن خلال ذلك تتكون لدى الإنسان (خريطة أخلاقية) تستقر عليها عدة أنواع من الخبرات والمنظومات الأخلاقية السلبية أو الإيجابية، وينبني داخلها الكثير من المعاني والمفاهيم، ومن خلال هذه الخريطة الأخلاقية تتحدد كثير من السلوكيات والممارسات في الواقع.

ولما كانت عنايتنا بالخريطة الأخلاقية في مجال الإدارة والأعمال أدنى من عنايتنا وانشغالنا بالاستهلاك والترف واللهو والمناصب والماديات والمظاهر، ظهرت أمراض إدارية، ومهنية، ووظيفية، واجتماعية، تستند إلى فقدان هذه الأخلاق الأربعة أو ضعفها.

فاحرص - **أخي الدارس** - على دراسة هذه الوحدة؛ للتعرف على ذلك كله.



الأهداف التعليمية للوحدة الأولى

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

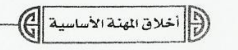
١- تحدّد أخلاق المهنة الأساسية، وأصولها، و أهميتها، وترابطها.

٢- تبيّن أقسام الناس في القوة والأمانة.

٣- تبيّن أقسام الناس في الحفظ والعلم.

٤- تعرف الأخلاق الأساسية بأصولها الإسلامية وارتباطاتها الإدارية.

٥- توضّح علاقة كل خُلق من الأخلاق الأساسية بالوظائف والأعمال.





أخلاق المهنة الأساسية

كتب المهتمون بقضية أخلاق المهنة جملة من الأخلاق التي يرونها مهمة في هذا المجال، وكل يضع الأولويات بحسب علمه وخبرته وتقديراته الخاصة غالباً، ولذلك تتفاوت قائمة الأخلاق طولاً وقصراً، والذي ينبغي في هذا المقام – في نظرنا – عدم السرد؛ لأن هناك جملة من الأخلاق العامة الأساسية التي لا بد من توافرها في أي مهنة وأي عامل، أياً كانت درجته ومكانته، وجملة أخرى من الأخلاق المختصة بمهن معينة أو بدرجة وظيفية معينة، وهذا لا يعني أنه يمكن إزاحة شيء من الأخلاق الفاضلة أو تركه مثل قطعة الغيار يستعمل وقت تعطل الآلة، ولكن المقصود أن هناك أسبقية وأولوية لأخلاق معينة، بحيث لا يمكن تصور وجود عمل جيد ناجح إلا بوجودها مثل (الأمانة)، وهناك أخلاق مختصة بمنزلة وظيفية كخلق القوة للقائد العسكري، والبصيرة والفراسة للقائد السياسي، والرأفة والتودد للعالم والداعية والمحتسب.

أخلاق المهنة الأساسية، أصولها، و أهميتها، وترابطها

بالتأمل في آيات القرآن العظيم التي فيها إشارة إلى أخلاق العمل نجد أن أظهرها أربعة أخلاق، ذكرت في آيتين، إحداهما متعلقة بالترشح لعمل وزاري، والأخرى متعلقة باستئجار راعٍ للغنم، أما الأولى فقول يوسف عليه الصلاة والسلام لملك مصر: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٥)، وأما الثانية فقول ابنة شعيب لأبيها في شأن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦). ويشبه هذين الوصفين ما قاله العفريت لسليمان عليه السلام بشأن عرش بلقيس: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٩).

إذن نحن أمام أربع صفات خلقية لابد منها لصاحب أي عمل ومهنة وهي:

١- **الحفظ:** والمراد به القدرة على إدارة الذات، والعمل بدقة، وتحمل المسؤولية ويمكن تسميتها ب (الكفاءة العملية).

٢- العلم: والمراد به إدراك الأمر المتعلق بالعمل الذي يقوم به إدراكاً جيداً، ويمكن تسمية ذلك (الكفاءة العقلية أو الفكرية).

٣- القوة: والمراد بها الجدارة في التأهيل، والجد في التنفيذ، والضبط والانضباط، ويمكن تسميتها بـ (الكفاءة التأهيلية).

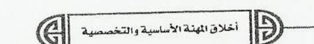
٤- الأمانة: والمراد بها رعاية الحقوق، وأداؤها على الوجه الصحيح، ويمكن تسميتها بـ (الكفاءة النفسية).

وقد يظن ظانٌّ أنها صفات مكررة، وهي ليست كذلك، وإن ظهر بينها شيء من التشابه؛ لما بين الصفات الفاضلة من وشائج وصلات، وسوف يتبين أهمية كل صفة من هذه الصفات في مجال أخلاق المهنة من خلال شرحها وبيان أهميتها. وهذه الأخلاق الأربعة (الحفظ، والعلم، والقوة، والأمانة) هي في ميدان الأعمال والكسب والإدارة والسياسة من الأخلاق الكلية التي تنضوي تحتها مفردات كثيرة من الأخلاق الكريمة، وهي بذلك تعد أصولاً لأخلاق المهنة، ويتبين ذلك بما يلي:

١- أنها تتضمن حفظ الحقوق وأداءها على الوجه الأكمل، وهذا أصل من أصول مكارم الأخلاق، وكيف يتحقق ذلك على الوجه الصحيح إلا إذا كان كلٌّ من المسؤول والمدير والموظف والعامل، حفيظاً، عليماً، أميناً، قوياً، ونقيض ذلك الطمع، والاستئثار، والبخل، والشره، والتفريط، والخيانة، وكلها رذائل خلقية تناقض هذا الأصل، وتتولد من الجهل، أو التفريط، أو الضعف، أو قلة الأمانة.

٢- أنها تتضمن معرفة الواجب والقيام به، ومعرفة الحقوق ونسبتها لأهلها، والاعتراف بما لهم من حقٍّ، وهذه المعرفة ومقتضاها من الكليات العامة للأخلاق، ونقيض ذلك الجهل، والجحود، وغمط الناس، والكبر، والأنانية، والظلم، وهذا الأصل مبنيّ على العلم الصحيح، والحفظ، وعدم الإهمال، وقوة النفس، والعقل، والقلب، المفضية إلى أداء ما أؤتمن عليه الإنسان.

٣- أنها تتضمن العدل مع النفس ومع الآخرين، فيتحمل المسؤولية ويؤدي ما يجب عليه، ويقنع بما وهبه الله للآخرين، فلا اعتراض ولا حسد، ولا بغي ولا شحناء، وبالعدل والإنصاف تستقيم الحياة،



وتستقر المجتمعات، وتنجح الأعمال، والعكس بالعكس، ولا يتم هذا الأصل إلا بعلم نافع، وحفظ مسؤول، وقوة ذاتية تدفع سفاسف الأفكار وتوافه الأخلاق، وأمانة يَعِفُّ بها عما ليس له به حق، ويؤدي ما عليه أو لديه من حق لغيره.

٤- أنها تتناول السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي، فالعلم يدفع الجهل الذاتي ويحقق النمو الاجتماعي، والحفظ يمنع من إهمال حق النفس وحق الغير، والقوة تقاوم الوهن الشخصي والإهمال الاجتماعي، والأمانة تقتضي مراعاة حق الله وحق النفس وحقوق الآخرين.

٥- أنها جميعاً تستند إلى المبادئ الكبرى (الحق، والخير، والجمال) في حين أن بعض الفضائل الخلقية تستند إلى واحد أو اثنين من هذه المبادئ، فخلق الستر - مثلاً - يستند إلى الجمال، وخلق العطف يستند إلى الخير، وخلق الشهادة بالحق يستند إلى الحق، أما الأخلاق الأربعة (الحفظ، والعلم، والأمانة، والقوة) ففي كل واحد منها صلة واضحة بالكليات الثلاث العظمى وهي: (الحق، والخير، والجمال).

٦- إن دين الإسلام يتضمن أربعة أمور هي: العقيدة، والشعيرة (العبادات)، والشريعة، والأخلاق. ومن المعلوم أن العقائد والشعائر والشرائع، منها ما هو أصول ومنها ما هو فروع، فكذلك الأخلاق[1].

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أصول كل الأخلاق وفروعها، وإنما بصدد الحديث عن أصول أخلاق العمل، وهي هذه الأخلاق الأربعة: (الحفظ، والعلم، والأمانة، والقوة).

فإنه متى وجدت هذه الأخلاق في عامل أو موظف أو مدير فإنه - في الغالب - سيكون جيداً في عمله، مثمراً في أدائه، مفيداً في عطائه، عالياً في قدراته، مؤدياً لواجبه، مدركاً لما يلزمه، قادراً - إذا اجتهد - على تتبع كل أصل من هذه الأصول وما يتفرع منه من أخلاق وظواهر سلوكية، ليضمها إلى ذلك الأصل، ويلحقها بتلك الفضيلة الخلقية، فتتكون لديه عناصر خلقية مترابطة قابلة للنمو كلما اعتنى بها وحافظ عليها. إذ شأن الأخلاق المكتسبة كشأن المهارات العضلية، فما دام العضو صحيحاً فإن لديه قابلية لاكتساب المهارة، ثم يصبح بالتعليم والتدريب حائزاً على تلك المهارة، وكذلك الأخلاق الأربعة بالنسبة للعمل هي بمثابة

---

(١) انظر إلى مسألة تقسيم الأخلاق إلى أصول وفروع في كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٤٧١-٧٦٤) و(٢/١-٥٨٦)؛ وكتاب الأخلاق الفاضلة، لعبد الله الرحيلي (ص٨٠-٨٤).

البذور للأشجار، فإذا وجدت وتمت رعايتها والعناية بها تصاعدت ونمت وأثمرت أخلاقاً أخرى وقيما سلوكية.

٧- إن هذه الأخلاق هي جوهر (الخريطة الأخلاقية) للإنسان، فإن الأخلاق عموماً، وأخلاق العمل على وجه الخصوص، قابلة للتعديل والتثبيت والاكتساب والفقدان؛ لدخولها تحت إرادة الإنسان وقدرته، ومن خلال ذلك تتكون لدى الإنسان (خريطة أخلاقية) تستقر عليها عدة أنواع من الخبرات والمنظومات الأخلاقية السلبية أو الإيجابية، وينبني داخلها الكثير من المعاني والمفاهيم، ومن خلال هذه الخريطة الأخلاقية تتحدد كثير من السلوكيات والممارسات في الواقع، وعلى ضوئها يلغي الإنسان أو يهمش بعض الأمور، ويؤكد على أمور أخرى يراها مهمة وجوهرية، فالموظف المرتشي – مثلاً – لا يرى إلا فضائل اكتساب المال ووفرته، وتبعاً لذلك يهمش قضية النزاهة والأمانة.

و (الخريطة الأخلاقية) للإنسان من الأسباب ذات التأثير الكلي الشمولي، ولها أبعاد كثيرة، ومن حسن حظ الإنسان أن الله كرمه بأن أعطاه القدرة على تكوينها وتغييرها وتحريرها من النقص والعيب، متى أراد الإنسان ذلك وسعى فيه، ولكنها – على كل حال – ذات نظام إدراكي مركب وعميق وفاعل ومؤثر في السلوك العملي.

وفي تقديرنا أن (الخريطة الأخلاقية) في مجال الأعمال لابد أن تتكون من الأضلاع الأربعة (العلم، والحفظ، والقوة، والأمانة) التي متى انعدم واحد منها في إنسان اهتزت خريطته الأخلاقية، وتشوشت رؤيته، واضطربت ممارسته العملية، وأسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان هو اهتزاز خريطته الأخلاقية حينما يتحدى الواقعُ هذه الخريطة، ولعل الذي قصر بنا – في هذا العصر – عن ركب الحياة المتقدمة الكريمة هو أن عنايتنا بالخريطة الأخلاقية في مجال الإدارة والأعمال كان دون عنايتنا وانشغالنا بالاستهلاك والترف واللهو والمناصب والماديات والمظاهر، ومن هنا ظهرت أمراض إدارية، ومهنية، ووظيفية، واجتماعية، تستند إلى فقدان هذه الأخلاق الأربعة أو ضعفها، وهي قاعدة الفضائل الأساسية في الإصلاح التربوي، والإداري، والوظيفي، والمهني، و هي من الأصول العامة لتقويم أخلاق العاملين وتنميتها وتهذيبها، أياً كانت الدرجة الوظيفية أو المهنية لذلك العامل.

٨- الأخلاق الأربعة مجتمعة لها آثار إيجابية كبرى تشكل منظومة متكاملة مترابطة، وفي الرسم التالي إيضاح للأخلاق الأربعة مجتمعة، وما يتضمنه كل خلق من آثار إيجابية صاعدة حين يعمل به، أو آثار سلبية هابطة حين يهمل ذلك الخلق:

البيان التفصيلي لأصول أخلاق المهنة

أولاً: القوة والأمانة

نقدم هنا خلاصة في إيضاح التلازم بين خلقي القوة والأمانة، وأثر ذلك في العمل: قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

هذه الآية الكريمة تتضمن خلاصة المؤهلات الإدارية التي يجب وجودها في من يتولى عملاً، أو يمارس مهنة، أو يتحمل مسؤولية، أو يتولى وظيفة صغيرة كانت أو كبيرة، وهذه المؤهلات الأساسية كما جاء في نص الآية هي القوة والأمانة.

والقوة هنا تعني: القدرة والإرادة المنتجة للكفاءة والمهارة، وهي قدرة العامل على العمل، وكفاءته في أداء المهمة الموكلة إليه، ومهاراته العملية في حقل المسؤولية المناطة به.

والأمانة هنا تعني: الحفاظ على ما عُهد به إليه ورعايته، والحذر من الإخلال والتقصير والتفريط فيه، وصدق الالتزام بالمبادئ، وخاصة في حقل العمل الذي يقوم به، وأخلاق المؤسسة التي يعمل فيها، وسلوكيات المهنة التي ينتمي إليها.

وهاتان الصفتان هما القاعدة الأساسية التي بهما تُعرف الجودة في الأداء المهني وممارسات القائمين على الأعمال، وهما الميزان الذي توزن به الكفاءة والجودة والتميز، سواء أكان العمل مسؤولية أسرة، أو مهنة تعليم، أو إدارة مؤسسة أو دولة أو وزارة، أو حتى رعاية الغنم، وهي الوظيفة التي قام بها موسى ﷺ، بعد أن وصفته بنت شعيب بهذا الوصف، أي أن هاتين الصفتين لا بد من تحققها في كل من يتولى عملاً صغيراً كان أو كبيراً.

ولا بد من العلم بأن المسؤولية في الإسلام كما أنها شخصية فهي في الوقت ذاته موزعة، يحمل كل عاقل مكلف جزءاً منها بحسب وظيفته ودوره، فالفرد مسؤول عن ذاته، ولا بد أن يقوم بهذه المسؤولية بقوة وأمانة، وذلك يستدعي تنمية ذاته وزيادة قدراته وتقوية كفاءاته، فإذا أصبح الفرد زوجاً أو زوجة وجب القيام بهذه الوظيفة بقوة وأمانة أيضاً، بحيث تكون لكل منهما القدرة والمهارة والكفاءة للقيام بمسؤولية الحياة الزوجية، وإذا أصبح موظفاً لزمه أن يؤدي عمله بقوة وأمانة وكفاءة، وهكذا إلى ما شاء الله من الأعمال والوظائف والمهام، وبطبيعة الحال فكلما عظمت الوظيفة كبرت المسؤولية، ووجب عليه من أوصاف القوة والأمانة ما يتناسب مع عظم المسؤولية وضخامة العمل.

أقسام الناس في القوة والأمانة

إذا نظرنا إلى الناس على ضوء هذين المقياسين وجدنا أنهم ينقسمون إلى أربعة أقسام:

قوي أمين	أمين غير قوي
قوي غير أمين	لا قوي ولا أمين

الأمانة

القوة

القسم الأول: من يمتلك القوة والأمانة

فمن كان كذلك فهو أفضل المهنيين وأجود العاملين، لحيازته على القوة وتمكنه من أسباب الكفاءة، وحصوله على المهارات المطلوبة في العمل الموكل إليه، ولحيازته أيضاً على أوصاف الأمانة، التي هي سلوك نفسي رادع عن اقتراف القبائح، وصفة نفسية تجعل صاحبها في مقام النزاهة، وفي درجة من القيم الأخلاقية الذاتية تقوم مقام الرقيب، فصاحبها حي الضمير مستيقظ الوجدان في كل زمان ومكان، يؤدي دوره لأنه واجب عليه، ويقوم بعمله على أكمل وجه، سواء رآه الآخرون أو لم يروه، وضعوا عليه آلية رقابية أم لم يضعوا.

القسم الثاني: من يمتلك القوة، أما الأمانة فهي ضعيفة فيه أو مفقودة

فهذا قد يُمدَح لامتلاكه القدرة والكفاءة والقوة على أدائه لعمله، ولكنه يُذَم لضعف أمانته، ويُخشى عليه، ويُخشى منه، وفي ذلك يقول أحد الولاة القدماء: " اللهم أعنّي على جلد الفاجر وضعف الثقة".

وهذا الصنف من الناس يوشك أن يكون قاسياً عنيداً، أو محتالاً مراوغاً؛ لما لديه من مؤهلات

القوة الذاتية أو العملية، ولكن لضعف أو انعدام أمانته ينزلق في تصرفات طائشة وأعمال غير لائقة، وما لم تكن عليه رقابة قوية وفعالة فسوف يكون سبباً للمشكلات، ومضيعاً للمهمات.

القسم الثالث: من يمتلك الأمانة ولكنه ضعيف أو منعدم القوة

فهذا لديه السلوك الجميل والأخلاق الراقية والتقوى والالتزام، والنزاهة والعفة عن الحقوق والأموال والمصالح العامة، ولكنه يفتقد القدرة والكفاءة، ومثله يختل به العمل، ويسوء الأداء المهني، وتضيع المصالح المرجوة من الأعمال والوظائف.

فيجب عليه أن يكمّل نفسه، وأن يتعلم المهارات اللازمة للعمل المسؤول عنه، أو عليه أن يتخلى عنه لغيره، وقد قال النبي ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ "[1].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: "هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحه، ويندم على ما فرط. وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم، تظاهرت به الأحاديث الصحيحة، كحديث سبعة يظلهم الله"[2].

القسم الرابع: من افتقد القوة والأمانة

وهذا يحتاج إلى الرعاية والعناية، والتربية والتهذيب، وإعادة التأهيل في مجالي القوة والأمانة، وحري أن يبقى تحت الملاحظة، ويُسعَى في تقويمه وتأديبه حتى يكتسب الأمانة، ويُسعَى في تعليمه حتى يكتسب الكفاءة والمهارة في الأمور التي لا بدّ له منها، ويجب أن تخفف مسؤولياته إلى أضيق نطاق حتى يتم تأهيله، أو يبقى تحت الرعاية، والحجْر الصحيّ عن المسؤوليات العامة؛ لأن مثله لا يؤدي العمل على الوجه الصحيح النافع، ولا يحفظ الحقوق، ولا يرعى المصالح، ولا يتورع عن الاختلاس والتلاعب.

ثانياً: الحفظ والعلم

وننتقل الآن إلى إيضاح التلازم بين خلقي الحفظ والعلم، وأثر ذلك في العمل بإيجاز:

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٤٨٢٤).

(٢) شرح صحيح مسلم، للإمام النووي (١٢/٢١٠).

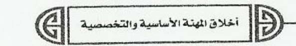
ذكر الله تعالى في القرآن أن يوسف عليه السلام قال لعزيز مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

وهاتان الصفتان هما الأصل في الكفاءة العملية والعقلية، فالحفيظ لديه ضبط وتحمل لمسؤولية العمل الموكل إليه، والعليم لديه إدراك لعمله وفهم وبصيرة فيه.

فهما صفتان تتعلقان بكل الأعمال والوظائف.

والمراد بقوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ "الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه"[1]، وبمعنى أوضح أي: "حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء، والمنع والتصرف، في جميع أنواع التصرفات "[2]، وبالجملة فهما يدلان على أمر داخلي، وهو حسن الضبط والدقة، وآخر خارجي، وهو حسن التصرف والخبرة، بحيث يكون " شديد الحفظ.. فلا يضيع منه شيء، أو يوضع في غير موضعه، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به"[3].

وإذا نظرنا إلى العاملين والإداريين على ضوء هاتين القيمتين وجدنا أنهم ينقسمون إلى أربعة أقسام كما في الرسم التالي:



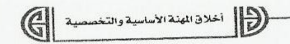
حفيظ عليم	عليم غير حفيظ
حفيظ غير عليم	لا عليم ولا حفيظ

الحفظ

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١٢/٨٢).

(٢) تفسير السعدي (ص٤٠٢).

(٣) تفسير المراغي (١٣/٦).



القسم الأول: الحفيظ العليم

وهذا من أفضل العاملين؛ لتوفر الكفاءتين الفكرية والعملية فيه، وهو بذلك قادر على تحمل المسؤولية والعمل بحكمة وبصيرة.

القسم الثاني: الحفيظ غير العليم

فهو جيد من جهة حفظه، وعدم إهماله، وضبطه، وشعوره بالمسؤولية، ولكن الخلل يدخل عليه من جهة ضعف عمله، وفهمه، وقلة خبرته في تصريف الأمور، ووضعها في نصابها ومكانها الملائم، وهذا قد يقوده إلى التخبط والعشوائية والطيش والتسرع، والاتكال على غيره، والاستسلام لمن قد يظن فيهم المعرفة والإدراك، ولذلك قيل في علم القيادة والإدارة: "عظمة القائد في مقدرته على الاستعانة برجاله دون أن يستسلم لهم".

القسم الثالث: العليم غير الحفيظ

وهذا يستفاد من عمله وخبرته، ومهاراته الفكرية والتدريبية، فهو حسن التصرف، قوي النظر، ولكن يُتوقَّع منه الإهمال، وعدم المبالاة، وضعف الأداء، وقلة اكتراثه بالعمل والإتقان والإنجاز، والتهرب من تحمل المسؤولية، وكراهيته للمساءلة والنقد.

القسم الرابع: لا عليم ولا حفيظ

وهذا أردأ أنواع العاملين، وأسوأ أصناف المديرين، وجدير بأن يُبعَد عن مجال المسؤوليات، مع السعي في تأهيله حتى يكتسب الكفاءة الذهنية التي ترفع عنه الجهل والسفه، ويكتسب الكفاءة العملية التي تزيل عنه داء الإهمال والتفلّت، فإن تم ذلك له وإلا وجب أن يبقى بعيداً عن أية أعمال أو مسؤوليات ذات طبيعة عامة.

الأخلاق الأساسية الأربعة: معناها، وأهميتها، وآثارها، وعلاقتها بالوظائف والأعمال

بعد بيان أهمية هذه الأخلاق الأربعة إجمالاً نأتي إلى شيء من التفصيل لكل واحد من هذه الأخلاق:

أولاً: خلق القوة

المراد بالقوة هنا: "تمكّن الإنسان من أمر معنوي أو حسي، وتوافر العزم والقدرة والاستطاعة لديه"[١]، وهي عكس الضعف.

فعندما يكون الإنسان ثابت القلب في الملمات فهو صاحب قوة نفسانيّة، وعندما يكون ثاقب الفهم عميق الإدراك فهو صاحب قوة عقليّة، وهذه كلها قوى معنويّة، وعندما يكون دقيق العمل حسن الأداء لما يقوم به فهو صاحب قوة حسيّة.

والقوة في مجال الأعمال تحتاج إلى قوة القلب والعقل والبدن، وليس المراد بالقوة الشدة والصلابة والقسوة، بل المراد بها: الجدارة، والضبط، والانضباط، والعزيمة الصادقة، والثبات، وعلو الهمة، والحرص على ما ينفع، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلاَ تَعْجِزْ**.."[٢] الحديث.

فسعادة الإنسان ونجاحه هو في قوته "وحرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو: بذل الجهد واستفراغ الوسع... ثم قال: (ولا تعجز)؛ فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز"[٣].

والقوة أمر مطلوب في الشخصية العاملة، وهي أصل لإمكانية أداء العمل ونجاحه وتقوم على ركنين هما: (الإرادة والقدرة).

فالأول: الإرادة، وعكسها الكسل، الناتج عن عدم الإرادة أو ضعفها.

والثاني: القدرة، وعكسها العجز، الناتج عن عدم الاستطاعة أو ضعفها.

وبذلك ندرك السر العظيم في الدعاء النبوي الكريم الذي كان يقوله النبي ﷺ، ومنه "**اللَّهُمَّ**

---

(١) هذا تعريف منتخب من عدة تعريفات، انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٤١٩)؛ والتعريفات، للجرجاني (ص ١٧٩-١٨٠).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٦٩٤٥).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (ص ١٩).

إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ..."[1]، فإنه متى حصل العجز والكسل ضعفت قوة الإنسان، وتراخى أداؤه أو تلاشى، وتحققت أسباب ضعف الإنتاجية وفقر الإنجاز.

والقوة المطلوبة في الأعمال هي القدرة التي معها حكمة؛ لأن القدرة إن لم يكن معها حكمة كانت مفسدة، كما يفعل أصحاب الفساد والظلم والجهل عندما يكون لأحدهم قوة وظيفية أو مالية ليست مقترنة بالحكمة والعبودية لله تعالى، فتصبح حينئذ باباً للشر والفساد، والظلم والعدوان[2].

والقوة في الوظائف والأعمال الحياتية تختلف باختلاف المهن والأعمال، والمهمات والمناصب والإدارات، قال شيخ الإسلام: " القوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها... والقوّة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الإحكام"[3].

وقد يكون الإنسان صالحاً في نفسه، صادقاً، طيب التعامل، حسن النية، ولكنه لا يصلح لعمل ما لكونه ضعيفاً ضعفاً معنوياً، كشدة الغضب، أو قلة الخبرة، أو العجلة والتسرع، أو به ضعف حسي كالإعاقة التي تمنعه عن أداء عمل معين يقتضي السلامة من تلك الإعاقة الجسدية، ولذلك قال النبي ﷺ: " يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ "[4]، قال النووي: "هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية"[5].

ومن تأمّل إدارة النبي ﷺ واختياره للرجال أدرك أنه كان يختار لكل مهمة صاحب القوة والجدارة فيها، فإنّه لما أراد دعوة أهل اليمن أرسل معاذاً رضي الله عنه لما يتصف به من قوة علمية، وفي السفارة للملوك كان يرسل دحية الكلبي رضي الله عنه لجودة منطقه وحسن طلعته، وفي الحروب ولى خالداً رضي الله عنه لقوته الحربية وخبرته العسكرية.

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢٨٢٣)؛ ومسلم، حديث رقم (٧٠٤٨).

(٢) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (١/١٨٧).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨/٢٥٣).

(٤) رواه مسلم، حديث رقم (٤٨٢٤).

(٥) شرح صحيح مسلم، للنووي (١٢/٢١٠).

"وبهذا مضت سنة رسول الله ﷺ؛ فإنه كان يولي الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه، كما ولى خالد بن الوليد من حين أسلم على حروبه لنكايته في العدو، وقدّمه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار مثل عبد الرحمن بن عوف، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمرو "[1].

ومن هذا الباب أيضاً قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لأنزعنّ فلاناً عن القضاء، ولأستعملنّ على القضاء رجلاً إذا رآه الفاجر فَرِقَه"[2].

ومن أدلة القرآن العظيم على أهمية خلق القوة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، "فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة... والقوة في كل ولاية بحسبها..."[3].

وقوله تعالى عن طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧)، والمقصود أن في جسمه قوة على الحرب، وهم في حاجة إلى ذلك[4]، فطالوت مع وفرة العلم أعطي قوة جسدية "ولهذا حمل بعضهم البسطة فيه هنا على الجمال أو القوة، لا على المقدار كطول القامة..."[5].

والمقصود أن القوة من الصفات المهمة في أخلاق العمل؛ فإنها دالة على قوة الإرادة، وصدق العزيمة، والنشاط، وعلو الهمة، ولذلك أمر الله بها فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٦٣).

وقال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٥)، وقال تعالى لنبيه يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢)، وأمر جل وعلا عباده المسلمين باتخاذ القوة فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وقد فسر علماء التفسير القوة في بعض الآيات تفسيراً يتسق مع المقصود هنا، فمن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٦٣)، بأن المراد بالقوة: (الحزم، والطاعة، والجد)[6].

وهذه المعاني تتفق مع ما تتطلبه أخلاقيات العمل، فمن اتصف بصفة القوة في عمله كان جديراً

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١/١٠٦).

(٢) رواه البيهقي، السنن الكبرى (١٠/١٠٨)؛ ومعنى (فرقه): أي هابه وخاف منه.

(٣) السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية (ص١٥).

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني (١/٢٦٤).

(٥) روح المعاني، للألوسي (٢/١٦٧).

(٦) تفسير ابن كثير (١/١٠٥-١٠٦).

أن يكون جاداً، وحازماً، وطائعاً، ومجتهداً. وهذه ثمرات هذه الصفة المهمة التي يدل وجودها على جودة المتصف بها، ويدل توافرها في عمل أو وظيفة على جدية وجودة هذه المؤسسة، وإعداد العاملين وتأهيلهم لهذا الخلق دليل وعي، ومؤشر يقظة، وصمام أمان، من الأخطار والأخطاء الإدارية والمهنية التي تتوالد في غياب الجد والحرص والاجتهاد.

ومما يناسب صفة القوة أو يندرج تحتها: العزم، والعفة، والثبات، وقوة الإرادة، والنشاط، وعلو الهمة، والحزم، والنبل، والجدية، والإخلاص، والشجاعة.

ومما يضادها: الإهمال، والتواني، والضعف، والوهن، والتخاذل، وهبوط الهمة، والتهاون، والجبن، والكسل، والتخلي عن المسؤولية، والتفريط.

ثانياً: خلق الأمانة

الأمانة هي: رعاية الحقوق وأداؤها على الوجه الصحيح.

والأمانة في الإسلام جاء الأمر بها كثيراً، وجاءت نصوص القرآن والسنة بمدح أهلها، والنهي عن ضدها وهي الخيانة، وذم أهلها.

وإذا تتبعنا النصوص الواردة فيها وجدناها واسعة الدلالة، تشير إلى معانٍ عديدة وتشتمل على قضايا مختلفة، يجمعها أمران هما: (رعاية الحقوق، وأداء الحقوق)، وإيضاح ذلك بما يلي:

١- رعاية الحقوق:

أي صونها، ومعرفة قدرها، والاهتمام بها، بحيث تستقر رعاية الحقوق في وجدان الإنسان، وتصبح معلماً من معالم خارطته الأخلاقية الذاتية، وتهيمن على إدراكه ومشاعره، ويدخل تحت ذلك كل ما يلزم الإنسان صونه من حقوق الله، وحقوق النفس، وحقوق الآخرين.

فالصلاة – مثلاً – أمانة، وهي حق لله تعالى، وكذلك الصيام، والزكاة، والحج، وتحكيم شريعة الله، وتعلم العلم الواجب أمانة، وهي من حقوق النفس، وكذلك حفظ السمع، والبصر، وسائر الحواس من التلف، وحفظها أيضاً عن معصية الله.

والولاية، والإدارة، والقضاء، أمانة، وهي من حقوق الآخرين، وكذلك رعاية حق الوالدين، والأرحام، والأبناء، والجيران، والأصدقاء، وكذلك حفظ الودائع، والأموال، والأعمال التي توكل إلى الإنسان، أو يؤتمن عليها.

فصون الحقوق ورعايتها أصل في الأمانة، ومستقر ذلك الضمير الحي، كما أخبر النبي ﷺ: "**أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ**" (١).

فالأمانة في أصلها خلق في عمق قلب المؤمن، يغذيها الفهم الصحيح للقرآن والسنة، فإذا مات الضمير الإنساني، ورُفِعت الأمانة منه فأي فائدة ترجى منه حتى ولو كان تالياً للقرآن، فكم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه؟! وأي نفع يرتجى من قارئ للسنة وهو مخالف لها؟!.

واليوم يرى العالم كله سوء الأوضاع في كثير من مجتمعات المسلمين، وفي إداراتهم وأعمالهم – إلا من رحم الله – حتى لا تكاد تسمع إلا الشكوى، من التلاعب، والغش، والخداع، والرشوة، والاحتكار، والظلم، والإهمال، والتفريط في المصالح العامة، ومعظم المسلمين يقرأ القرآن ويسمعه، ويسمع الحديث النبوي، وترى تزاحمهم على أبواب الجوامع يوم الجمعة، وفي رمضان، وأيام الحج، ولم يغن ذلك عنهم شيئاً في ممارساتهم العامة، وسلوكياتهم العملية، وأعمالهم الوظيفية، إلا من رحم الله تعالى، وقليل ما هم.

وفي هذا برهان واضح على أن العلم بنصوص الوحي لا يغني عن العمل بها، والتغني بفضائل الإسلام ومحاسن أخلاقه لا يقنع أحداً ما دامت الألسن تقول شيئاً طيباً والضمائر قد خلت منه، وكيف للأمانة أن تَثْبُت في قلوب تنكر الحق، أو تكرهه، أو تخاف منه. أو تستكبر عنه، وتعمل أعمالاً تدل على ذلك. وتسلك مسالك تشهد بفقدان أصحابها للأمانة.

ولذلك ورد في حديث حذيفة ﷺ الإخبار عن نزع الأمانة وانحسارها تدريجياً من القلوب، وتسربها من الضمائر. حيث قال مخبراً عن النبي ﷺ: ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ، قَالَ: "**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ**"(٢).

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٧٢٧٦)؛ ومسلم، حديث رقم (٣٨٤).

(٢) ينام النومة: أي يغفل غفلة قلبية عن الخير والصلاح، قال في فتح الباري (٣٩/١٣): "كنى عن ضعف الإيمان بالنوم".

فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ[1]، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ[2]"، إلى أن قال: "فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ"[3].

٢- أداء الحقوق على الوجه الصحيح:

صون الحقوق ورعايتها أصل في الأمانة، وقاعدة ذلك القلب والضمير الحي، ودليل وجودها أداء الحقوق لأصحابها كاملة غير منقوصة، ووضع كل شيء في المكان الجدير به، وأداء الواجب كاملاً في العمل الذي يناط بالإنسان.

ويندرج تحت هذا: أداءُ حق الله تعالى، وإعطاءُ كل ذي حق حقه، وحفظُ الودائع والأسرار، ووضعُ الإنسان المناسب في العمل المناسب له، والقيامُ بالأعمال والوظائف، وإدارتُها بأفضل وأكمل ما يكون القيام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

ووصف سبحانه عباده المؤمنين المفلحين، وذكر صفاتهم الدالة على نجاحهم وفلاحهم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨).

كما نهى جل وعلا عن الخيانة وهي نقيض الأمانة، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

ووصف الله تعالى جبريل أفضل ملائكته بالأمانة، والقوة، فقال عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ١٩ – ٢١).

(١) الوكت: الأثر اليسير في الجلد، مثل اللون الذي يحدث في جلد الإنسان مغايراً للونه الأصلي. انظر شرح صحيح مسلم، للنووي (١٦٨/٢).

(٢) المجل: نقط تظهر في اليد عند استخدام الإنسان للفأس ونحوه مدة طويلة. انظر شرح صحيح مسلم، للنووي (١٦٩/٢).

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٧٢٧٦)؛ ومسلم، حديث رقم (٣٨٤).

ووصف عدداً من الأنبياء -وهم من صفوة البشر- بالأمانة وهم: هود، ونوح، وموسى، عليهم الصلاة والسلام، وفي كل هذا تنويه بأهمية الأمانة ومنزلتها.

ولعظم شأن الأمانة وضخامة مكانتها، خطب النبي ﷺ فقال في خطبته: "لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ"[1].

وأمر ﷺ بالتزام الأمانة في كل حال، حتى مع الذي يخون، حيث قال ﷺ: "أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ"[2]؛ لأن الأمانة صفة أهل الإيمان، وطريق النجاح، وسُلّم الوصول إلى كل مأمول في الدنيا والآخرة. وعكسها الخيانة التي هي صفة أهل النفاق ومنزلق الدمار والخراب، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: "آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[3].

وذكر بعض أهل العلم أن فقد الأمانة هو السبب الأعظم لحالة المسلمين المتردية فقال: "واليوم، وقد ارتفعت الشكوى من سوء الأوضاع في مجتمعنا الحاضر، حتى لا تجد راضياً يتحدث إليك عن مجتمعه حديث المطمئن إلى سعادته، الواثق بحقه، فهل تجدون لذلك سبباً يجمع أسباب اضطرابنا كلها إلا وصفاً واحداً، وهو ترك الأمانة"[4].

وهذا يعني أن الرجل الفاضل التقي، حسن السيرة، صادق السريرة، وافر العلم، قد لا يصلح أن تسند إليه المناصب؛ لأنها أمانة، ومن مقتضياتها أن نضع كل شيء في مكانه الصحيح، وأن نصطفي للأعمال أفضل الأشخاص قدرة على القيام بها على سَنَن الأمانة الأقوم، ومتى حصل التغاضي عن هذا الشرط – لمحاباة أو رشوة أو غيرها – فقد حصلت الخيانة، وتحققت أسباب الفساد الإداري والوظيفي والاجتماعي، فعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يا يزيد؛ إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، ذلك أكثر ما أخاف عليك، فقد قال رسول الله ﷺ: "مَنْ وَلِيَ مِنْ

(١) رواه أحمد، حديث رقم (١٢٤٠٦)؛ وابن حبان، حديث رقم (١٩٤).

(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (١٢٤٦)؛ وأبو داود، حديث رقم (٣٥٣٦).

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٣٣)؛ ومسلم، حديث رقم (٢٢٠).

(٤) أخلاقنا الاجتماعية، لمصطفى السباعي (ص١٠٧).

أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ "[1].

إن خلق (الأمانة) هو أساس المشاريع التنموية الكبرى، ولا يمكن تغطيته بالادعاءات، ولا بالشعارات البراقة، ولا يمكن الاستغناء عنه بمظاهر النمو المادي، كالمباني الشاهقة، والمراكز الفاخرة، والمخططات العمرانية، ونحو ذلك، ولا يمكن إيجاد بديل عن الأمانة بزيادة القوانين والنظم والقرارات؛ لأن هذه القضايا عبارة عن تطوير مادي، وهي ليست بشيء في معيار التطور الحقيقي، إذا كانت مسلوبة القيم، فاقدة المضمون الإنساني القويم، خالية من الأمانة، مبنية على التعالي والتفاخر والرياء، مهمشة لأوامر الله ونواهيه، بالتأويل الباطل، أو الجهل القاتل، أو التغافل المقصود.

لقد حذرنا الله تعالى من ذلك، ونبهنا على خطورة هذه المسالك، وبين لنا ما يؤدي إليه فقدان الأمانة من المهالك، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ١٢٣ – ١٤٠).

وخلق الأمانة ليس مطلباً إسلامياً فحسب، بل هو مطلب إنساني تنشده كل العقول السليمة والفطر القويمة، ويسعى في تأكيد أهميته وضرورة وجوده علماء الإدارة والاقتصاد من غير المسلمين في عصرنا هذا[2]، وهو ذات المطلب الذي طلبه نصارى نجران قديماً من النبي ﷺ حيث قالوا للرسول ﷺ: ابْعَثْ مَعَنَا

(١) رواه أحمد، حديث رقم (٢١)؛ والحاكم، حديث رقم (٧٠٢٤).

(٢) انظر على سبيل المثال: (المؤسسة الأخلاقية)، لجيمس فوركاد؛ و(العادة الثامنة)، لستيفن كوفي الذي تحدث فيه عن كيفية الانتقال من الفاعلية الذاتية إلى النبالة المؤسسية، وخص الضمير والقلب والبعد الروحي بجزء مهم من كتابه هذا؛ و(البقاء للأصلح)، لريك براندون ومارتي سلدمان، وهو يتحدث عن الأساليب الأخلاقية لتحقيق النجاحات الشخصية والمؤسسية؛ و(مديرون مخادعون)، لجان ليبمان بلومان، والذي يحاول فيه الإجابة عن سؤال: كيف نتعامل مع الفساد الإداري؟ وكيف نحول القيادة السامة إلى قيم سامية؟ كل هذه الكتب ملخصة في نشرة (خلاصات) الصادرة من الشركة العالمية للإعلام العلمي (شعاع)، القاهرة، في الأعداد (٣١٩، ٢٨٨، ٢٩٧، ٣١٠).

رَجُلاً أَمِينًا، وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلاَّ أَمِينًا، فَقَالَ: " لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ "[1] فبعث أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

إن الأمانة واجبة في حقّ كل صاحب عمل، صغيراً كان العمل أو كبيراً، وهي في حق الكبراء، والمدراء، والرؤساء، وأصحاب الولايات الكبيرة، أوجب وأهم، والإخلال بها من قبلهم ولو جزئياً أفحش وأقبح، وأخطر وأعظم أثراً، وأكثر ضرراً؛ لما يترتب على ذلك من فساد كبير، يمتد ضرره، ويتمادى خطره، ويقود إلى الدمار والبوار والتخلف؛ لأن هذه الفئة هي التي تقود وتوجه وترسم المثل والقدوة.

ومما يناسب صفة الأمانة أو يندرج تحتها: الصدق، والورع، والقناعة، والعفاف، والعدل، والكسب الحلال، والإحسان، والتواضع، والمراقبة، واليقظة الذاتية، وتقوى الله، وتذكر الموت وما وراءه.

ومما يضادّها: الخيانة، والإضاعة، والإهمال، والجشع، والظلم، والمداهنة، والرشوة، والمحسوبية، والاغترار بإمهال الله، والتفاخر، والرياء، والغفلة، والغرور.

ثالثاً: خلق الحفظ

جاء في قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

والحفيظ هو الذي لا يضيع الأمور، والحفظ عكس الإهمال، وهو صفة في النفس تطلق على الضبط، وجودة الفهم، والتذكر، وضد ذلك النسيان، وتطلق كذلك على ضبط النفس من الوقوع في الرذائل، وضد ذلك الإهمال والتفلت، وهذا ما يعرف في هذا العصر بمصطلح (إدارة الذات).

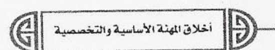
ويستعمل الحفظ في كل تفقد، وتعهد، ورعاية[2]، وهو ما يعرف في الأداء المهني أو الإداري بلفظ (المسؤولية)، وهي " الشعور بأداء الواجب، والإخلاص في العمل "[3].

ولا يستقيم عمل مهما كانت درجته إلا بوجود هذا الخلق؛ لأن انعدامه يعني الضياع والاعوجاج والخسارة، ولذلك استدل يوسف عليه السلام على جدارته الإدارية بالحفظ والعلم، ولم يستدل بنسبه مع

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٤٣٨٠)؛ ومسلم، حديث رقم (٦٤٠٧).

(٢) انظر: مفردات القرآن، للراغب الأصفهاني (ص١٢٤).

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لمجموعة من المختصين (٣٤٠١/٨).



أنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم، كما أخبر النبي ﷺ، ولم يقل: إني جميل مليح، مع أنه أوتي جمالاً فائقاً، وإنما قال: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وهو بذلك يشير إلى صفات أخلاقية مؤهلة، حين أشار إلى أنه متمكن من التصرف مع عدم الغفلة[2].

إن الأعمال المالية والسياسية والإدارية " في حاجة إلى الحفظ، والصيانة، والقدرة على إدارة الأمور بالدقة... وفي حاجة إلى الخبرة، وحسن التصرف، والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب، وفي سني الجدب على السواء"[3].

و الحفيظ في القرآن يأتي بمعنيين:

أحدهما خاص: وهو ما سبق ذكره، أي بمعنى التدبير، وحسن الإدارة، وحفظ العمل الذي يقوم به من الضياع، وإقامته على أحسن وجوه المصالح، وهو المقصود بقول يوسف ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

والثاني عام: يراد به حفظ الإنسان لما استودعه الله إياه من حقه ونعمته[4]، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (ق: ٣١ – ٣٢).

وغير خافٍ أن من حفظ حق الله، بطاعته فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، وحفظ نعمة الله عليه، فسوف يكون – في أغلب الأحوال – حافظاً لعمله الموكل إليه، ومهنته القائم بها، ووظيفته المكلف بأدائها، وبهذا يتجلى أثر الإيمان في أخلاق العمل، ويتضح مقدار الترابط في الإسلام بين التعاقد، بوصفه علاقة اتفاقيات وحقوق، وعالم القيم الإيمانية، بوصفه ارتقاء إنسانياً، ومسلكاً حضارياً، متجاوزاً للحدود والقيود المادية، أي غير مرهون بالعقد، والنظام، والرقابة، والمحاسبة، كما تحكي هذه الطرفة الإدارية:

قال المدير للموظف: لماذا لا تعمل؟

قال الموظف: لأنني لم أرك وأنت قادم!!

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢١٦/٩).

(٢) انظر: روح المعاني، للألوسي (٣٨/١٣).

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢٠٠٥/٤).

لا ريب أننا في حاجة إلى التدريب والإدارة والضبط، ولكن حاجتنا إلى المدير والموظف والعامل (الحفيظ) أشد، ولذلك كانت توصية أحد الإداريين صريحة حين يقول: "عندما تبحث عن مدير محترم، ركز على المبادئ والشخصية الداخلية، لا على المظاهر والشخصية الخارجية، فكّر في المستقبل، وابحث عن الطبع لا عن التطبع... لا شك في أن التدريب وتنمية المهارات أمور ضرورية، إلا أنها لا تغني عن سمو وتوازن الشخصية الداخلية، لأن الأقنعة المزيفة تسقط، وألوان المكياج المؤقتة تزول، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)"[1].

إن الإداري والعامل (الحفيظ) لديه الاستعداد أن يلزم نفسه أولاً بالمقتضيات الأخلاقية والمهنية، والتي تؤدي إلى نجاح العمل، وهذا يعني أنه يتحمل (المسؤولية) أخلاقياً وعملياً، أي أنه يعي مسؤوليته عن نفسه، وعمله، والعاملين معه، والمراجعين، أو العملاء – بحسب حدود صلاحياته – وهذه المسؤولية تعني استعداده لتحمل نتائج أعماله، وقبوله بمبدأ الثواب والعقاب المنوطين بتصرفاته، وكل من قبل عملاً، وامتهن مهنة، والتزم بوظيفة فلابد أن يكون (حفيظاً) أي مسؤولاً مسؤولية أخلاقية ملزمة له.

وعلى هذا النمط الإداري الواضح جرى العمل أيام عز المسلمين وقوتهم واجتماعهم، قبل أن تحل المحاباة حياتهم، وتخف منزلة المسؤولية في إداراتهم وأعمالهم، وقبل أن يعتادوا على التفريط والتهاون، ومن أمثلة ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه موت خالد بن الوليد رضي الله عنه استرجع مراراً –أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون– ونكس رأسه، وأكثر الترحم عليه وقال: " كان والله سداداً لنحر العدو، ميمون النقيبة، فقال له علي: فلم عزلته؟ قال: عزلته لبذله المال لأهل الشرف وذوي اللسان. قال: فكنت عزلته عن المال وتركته على الجند. قال: لم يكن ليرضى. قال: فهلّا بلوته"[2]، أي أن علياً رضي الله عنه كان يرى موافقة عمر رضي الله عنه على عزل خالد رضي الله عنه عن المال للسبب الذي ذكره عمر. ولكنه كان يرى أن يبقى على قيادة الجند. وكان عمر رضي الله عنه يظن أن خالداً لا يرضى بذلك، وعلياً يرى أن يختبره بذلك، وهذا كله يدل على مقدار حفظهم، وتحملهم للمسؤولية، وتقديرهم لحقوقها.

(١) المختار الإداري، عدد (٤٥) سبتمبر (٢٠٠٥). مقال الافتتاحية، لنسيم الصمادي.

وقد عبّر الأوائل عن هذا الخلق بالنزاهة، ومن ذلك ما جاء في ترجمة بعض قضاة المسلمين في بلاد الأندلس السليبة: "وولي قضاء الجماعة بغرناطة إلى أن مات، وكان من سراة القضاة، وأهل النزاهة، شديدي التحري، صابراً على الضعيف، شديداً على أهل الجاه، فاضلاً، وقوراً"[1]، ونحو ذلك في ترجمة أخرى جاء فيها أن المترجم له "ولي ولايات أبان فيها عن أمانة ونزاهة..."[2]، ومثل هذا كثير في تراجم القضاة وبعض الولاة، مما يدل على أهمية (النزاهة) وهي جزء من (المسؤولية).

وها هي فاطمة بنت عبد الملك زوج الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز تذكر بعض حال زوجها بعد أن ولي الخلافة وتحمل المسؤولية قالت: "دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه، يده على خده، سائلة دموعه، فقلت: يا أمير المؤمنين؛ ألشيء حدث؟، قال: يا فاطمة؛ إني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكيت"[3].

ولا يمكن أن يستقيم عمل من الأعمال، ولا أن تنهض أمة من الأمم، إلا إذا قام كل من المدير والموظف، والحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة بمسؤولياته، وحفظ العمل المتعلق به، وسار به أحسن سير، وتحمل تبعات إخفاقه وتقصيره، وهذا المبدأ الأخلاقي العام هو ما بينه النبي ﷺ في قوله: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[4]، وهو مندرج تحت عموم قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢ – ٩٣) ، والحديث عن (الحفظ) وما يندرج تحته من معانٍ على رأسها (المسؤولية)[5] أوسع مما يسمح به هذا المختصر.

ومما يضادّ خلق الحفظ: الإهمال، والإمعية، والتخاذل، والتفريط، والتهاون، والاتكالية، والجبن، والتهرب من المساءلة، وكراهية النقد.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢١٩/٢٠)، في ترجمة محمد بن عياض بن محمد، المتوفى سنة ٦٥٥هـ.
(٢) المصدر السابق (٢٤٥/٢٢)، في ترجمة ابن الجباب، المتوفى سنة ٦٢١هـ.
(٣) المصدر السابق (١٣٢/٥).
(٤) رواه البخاري، حديث رقم (٨٩٣).
(٥) انظر الكلام عن المسؤولية، وما يتعلق بها، ومراجع ذلك، في كتاب نضرة النعيم (٣٤٠٠/٨-٣٤٠٨).

رابعاً: خلق العلم

والمقصود بالعلم هنا: إدراك العمل الذي يقوم به العامل إدراكاً يحصل به الإتقان.

والعلم في مجال الأعمال نوعان: (نظري يُتعلم، وعملي يُكتسب) فالنظري هو: المعرفة الذهنية المكتسبة بالدراسة والقراءة بحيث يكون لدى صاحب العمل معلومات عن طبيعة العمل، والفرص المتاحة، والعوائق، والإمكانات الموجودة، ونحو ذلك من المعلومات، أما العلم العملي فهو: الخبرة والمهارة المكتسبة بالممارسة.

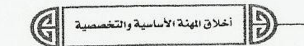
والعلم النظري أساس للعملي، لأن الإنسان – غالباً – يبدأ بإزالة (الجهل) عن نفسه، بإدراك ذهني جزئي، ثم يتطور حتى يعلم الشيء على وجه أفضل، إما بالتعليم والتعريف والإيضاح، أو بالتدريب والممارسة.

والعلم شرط أساسي لنجاح الأعمال، كما أن الجهل سبب رئيسي لفساد الأعمال، واندثار المؤسسات، وفناء الدول.

ولأهمية العلم وأثره الكبير في الأعمال نجد سيلاً من الكتب الإدارية المهتمة بتعليم فنون الإدارة وصنوف الأعمال، وكيفية التدريب لزيادة فاعلية العاملين، وتجنب أخطائهم.

والعلم في أصله مختص بالإدراك العقلي، وإدخاله في مجال الأخلاق من باب أنه مكتسب ضروري لضبط الأعمال، وإتقانها، واستثمار نتائجها على الوجه الأمثل، والموظف أو العامل الجاهل بعمله داء لابد من معالجته. أما المدير الجاهل فبلاء عظيم، ووجوده مدمّر للمؤسسة التي يديرها، وإن تغطى بالدعاية الإعلامية، أو بالحذلقة اللفظية، أو بجموع الخبراء والمستشارين، وليس هناك أسوأ من رئيس يكتفي بمعلوماته السابقة، فلا يتابع التطور العلمي الذي يجري بسرعة، فيبقى جامداً ويسبقه مرؤوسوه، ويبدو عند الضرورة جاهلاً ضائعاً غير أهل للاحترام، قال نابليون: "إن القيام بمهنة لا نتقنها، خداع، وسرقة، واحتيال"[1].

(١) لمحات في فن القيادة. لـ ج كورتوا (ص ٩١).



والعلم أساس لا يُستغنى عنه، وصفة لابد من وجودها، وبه تقوم الأعمال الدنيوية والأخروية وتستقيم، وبعدمه تندثر وتزول، وهو القائد الحقيقي للعمل، والمرشد للسلوك الأصوب.

والجهل سبب لتدمير الأعمال، وبوار الديار، وحلول الفساد في المؤسسات والأعمال؛ وذلك بسبب تولي أهل الجهل والسفه أعمالاً ليسوا أهلاً لها، وهو ما حذّر منه النبي ﷺ ووصفه بتولي الرويبضة[1]، ومضمون هذه التحذيرات النبوية "يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها... فإنه إذا صار الحفاة، العراة، رعاة الشاة، وهم أهل الجهل والجفاء، رؤساءَ الناس، وأصحاب الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان؛ فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا"[2].

و الأمم المتقدمة مادياً أدركت أهمية العلم، وخطورة الجهل، فلم تسند الأعمال إلا إلى من لديه بصيرة، وفهم، وعلم، ودراية، وتدريب، وتجريب في كبير الأعمال وصغيرها، ولحقت الجهالات الأمم المتخلفة فقادتها إلى التخلف، والضعف، والتبعية، والاستسلام للعدو، والخضوع لثقافته وسياسته.

وقد قال النبي ﷺ محذراً من هذه المصيبة الأخلاقية المدمرة: " مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ، وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللهَ، وخانَ رَسُولَهُ، وخانَ الْمُؤْمِنِينَ "[3]. ونبه علماء الإسلام إلى خطورة الجهل والجهال، وبين بعضهم أنه يلزم من تولية الجاهل والفاسق والفاجر وترك العالم القادر فساد كثير[4].

العلم والمعرفة أساس من أسس نجاح أي عمل، ودعامة من دعائم الإتقان، وركن من أركان الأهلية، في حين أن الجهل أول أسباب الفشل والجرعة السامة القاتلة للتنمية والتطور والنجاح.

قد يتولى جاهل أمراً من الأمور، وهو يدرك قصوره وجهله، فهذا لا شك أنه خطر على العمل، لكن ربما يستدرك نقصه ويحاول ترقيع ذاته، لعل وعسى.

1) كما جاء في الحديث الذي أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار، عن النبي ﷺ أنه قال: "إن أمام الدجال سنين خوادع، يكثر فيها المطر، ويقل فيها النبت، ويُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة". قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: "من لا يؤبه له"، وفي رواية: "الفويسق يتكلم في أمر العامة".

2) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص41). وانظر عن غلبة الجهلة وترئيسهم: فتح الباري، لابن حجر (13/287).

3) رواه الحاكم، حديث رقم (7023).

4) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (31/288).

وأخطر من ذلك جاهل يظن نفسه فاهماً مدركاً حصيفاً، فهذا – في الغالب – مريض لا يرجى برؤه، ووباء إذا حلّ في عمل أفسده، وإذا تولى إدارة كان ضرره أكبر من نفعه.

ومما يؤكد أهمية العلم في ميدان العمل ومنزلته في أخلاقيات أية مهنة ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم، حيث بين في ثلاث آيات أهمية العلم لمن يتولى عملاً، وخاصة العمل القيادي، الآية الأولى: حين قدّم يوسف عليه السلام مؤهلاته لتولي الوزارة قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 55)، والآية الثانية: حين وصف الله بعض أنبيائه قال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (ص: 45)، وكلام العلماء في تفسير هذه الآية يدور حول أن المراد بالأيدي: القوة والعزم، والأبصار: المعرفة والبصر بالحق وكمال إدراكه، والآية الثالثة في قصة طالوت واستنكار بني إسرائيل توليه الملك وهو فقير غير ذي نسب فيهم ولا حسب، فأخبرهم نبيهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 247).

قيل بأن طالوت كان رجلاً دباغاً يعمل الأدم، أي: الجلود[1]، ولم يكن من بيت نبوة ولا ملك في بني إسرائيل[2]، ولكن الله اصطفاه واختاره لما عنده من العلم، وهو قوة في العقل والإدراك، ولما عنده من القوة الجسدية المؤهلة للقيادة والحرب، وقد رد الله على بني إسرائيل الذين استبعدوا ذلك فكأنه يقول لهم: "لا تستبعدوا تملكه عليكم لفقره وانحطاط نسبه... لأن العمدةَ وفورُ العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية... وفي تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماء إلى أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية، بل لا يكاد يكون بينهما نسبة لاسيما ضخامة الجسم..."[3].

(1) انظر: تفسير الطبري (2/106).

(2) انظر: المصدر السابق (2/602).

(3) روح المعاني، للألوسي (2/167).

خلاصة الوحدة الأولى

أخلاق المهنة الأساسية

هناك أربع صفات خلقية لابد منها لصاحب أي عمل ومهنة وهي: (القوة، والأمانة، والحفظ والعلم). وهي في ميدان الأعمال والإدارة والسياسة من الأخلاق الكلية التي تنضوي تحتها مفردات كثيرة من الأخلاق الكريمة، وهي أصول أخلاق المهنة، ويتبين ذلك مما يلي:

١- أنها تتضمن حفظ الحقوق وأداءها على الوجه الأكمل، وهذا أصل من أصول مكارم الأخلاق.

٢- أنها تتضمن معرفة الواجب والقيام به، ومعرفة الحقوق ونسبتها لأهلها، والاعتراف بما لهم من حقٍّ، وهذه المعرفة ومقتضاها من الكليات العامة للأخلاق.

٣- أنها تتضمن العدل مع النفس ومع الآخرين، وبه تستقيم الحياة، وتستقر المجتمعات، وتنجح الأعمال.

٤- أنها تتناول السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي.

٥- أنها جميعاً تستند إلى المبادئ الكبرى (الحق، والخير، والجمال) في حين أن بعض الفضائل الخلقية تستند إلى واحد أو اثنين من هذه المبادئ.

٦- إن دين الإسلام يتضمن: العقيدة، والشعيرة، والشريعة، والأخلاق. وكما أن العقائد والشعائر والشرائع، منها ما هو أصول ومنها ما هو فروع، فكذلك الأخلاق. وهذه الأخلاق الأربعة هي أصول أخلاق العمل.

٧- إن هذه الأخلاق هي جوهر (الخريطة الأخلاقية) للإنسان. وتعتبر (الخريطة الأخلاقية) للإنسان من الأسباب ذات التأثير الكلي الشمولي، وهي في مجال الأعمال لابد لها أن تتكون من الأضلاع الأربعة (العلم، والحفظ، والقوة، والأمانة) التي متى انعدم واحد منها في إنسان اهتزت خريطته الأخلاقية، وتشوشت رؤيته، واضطربت ممارسته.

٨- الأخلاق الأربعة مجتمعة لها آثار إيجابية كبرى تشكل منظومة متكاملة مترابطة.

أقسام الناس في القوة والأمانة

القسم الأول: قوي أمين، يمتلك القوة والأمانة.

القسم الثاني: قوي غير أمين، يمتلك القوة، والأمانة ضعيفة فيه أو مفقودة

القسم الثالث: أمين غير قوي، يمتلك الأمانة ولكنه ضعيف أو منعدم القوة.

القسم الرابع: لا قوي ولا أمين، افتقد القوة والأمانة.

أقسام الناس في الحفظ والعلم

القسم الأول: الحفيظ العليم، تتوفر فيه الكفاءتان الفكرية والعملية.

القسم الثاني: الحفيظ غير العليم، جيد من جهة حفظه، وعدم إهماله، وضبطه، وشعوره بالمسؤولية، ويدخل الخلل عليه من جهة ضعف عمله، وفهمه، وقلة خبرته.

القسم الثالث: العليم غير الحفيظ، حسن التصرف، قوي النظر، ولكن يُتوقَّع منه الإهمال، وعدم المبالاة، وضعف الأداء، وقلة اكتراثه بالعمل والإتقان والإنجاز، والتهرب من تحمل المسؤولية، وكراهيته للمساءلة والنقد.

القسم الرابع: لا عليم ولا حفيظ، وهذا أردأ أنواع العاملين، وجدير بأن يُبعَد عن مجال المسؤوليات، مع السعي في تأهيله حتى يكتسب الكفاءة الذهنية، والعملية.

مفهوم الأخلاق الأساسية

أولاً: خلق القوة:

وهي " تمكن الإنسان من أمر معنوي أو حسي، وتوافر العزم والقدرة والاستطاعة لديه".

والقوة في مجال الأعمال تحتاج إلى قوة القلب والعقل والبدن، وليس المراد بالقوة الشدة والصلابة والقسوة، بل المراد بها: الجدارة، والضبط، والانضباط، والعزيمة الصادقة، والثبات، وعلو الهمة، والحرص على ما ينفع.

والقوة أصل لإمكانية أداء العمل ونجاحه وتقوم على ركنين هما: (الإرادة والقدرة).

فالأول: الإرادة، وعكسها الكسل، الناتج عن عدم الإرادة أو ضعفها.

والثاني: القدرة، وعكسها العجز، الناتج عن عدم الاستطاعة أو ضعفها.

ثانياً: خلق الأمانة:

وهي "رعاية الحقوق وأداؤها على الوجه الصحيح".

والنصوص الشرعية الواردة فيها تشير إلى معانٍ عديدة، يجمعها أمران هما: (رعاية الحقوق، وأداء الحقوق)، وإيضاح ذلك بما يلي:

١- **رعاية الحقوق:** أي صونها، ومعرفة قدرها، والاهتمام بها، بحيث تستقر رعاية الحقوق في وجدان الإنسان، وتهيمن على إدراكه ومشاعره، ويدخل تحت ذلك كل ما يلزم الإنسان صونه من حقوق الله، وحقوق النفس، وحقوق الآخرين.

٢- **أداء الحقوق على الوجه الصحيح:** وقاعدة ذلك القلب والضمير الحي، ودليل وجودها أداء الحقوق لأصحابها كاملة غير منقوصة، ووضع كل شيء في المكان الجدير به، وأداء الواجب كاملاً في العمل الذي يناط بالإنسان.

ثالثاً: خلق الحفظ:

وهو عكس الإهمال، وهو صفة في النفس تطلق على الضبط، وجودة الفهم، والتذكر، وضد ذلك النسيان، وتطلق كذلك على ضبط النفس من الوقوع في الرذائل، وضد ذلك الإهمال والتفلت، وهذا ما يعرف في هذا العصر بمصطلح (إدارة الذات).

ويستعمل الحفظ في كل تفقد، وتعهد، ورعاية، وهو ما يعرف في الأداء المهني أو الإداري بلفظ (المسؤولية)، وهي " الشعور بأداء الواجب، والإخلاص في العمل ".

ولا يستقيم عمل مهما كانت درجته إلا بوجود هذا الخلق؛ لأن انعدامه يعني الضياع والاعوجاج والخسارة.

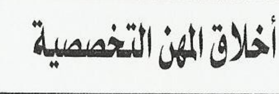
رابعاً: خلق العلم:

والمقصود بالعلم هنا: " إدراك العمل الذي يقوم به العامل إدراكاً يحصل به الإتقان ".

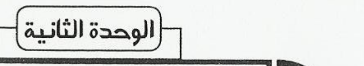
وهو في مجال الأعمال نوعان: (نظري يُتعلم، وعملي يُكتسب) فالنظري هو: المعرفة الذهنية المكتسبة بالدراسة والقراءة، أما العملي فهو: الخبرة والمهارة المكتسبة بالممارسة.

والعلم النظري أساس للعملي، لأن الإنسان – غالباً – يبدأ بإزالة (الجهل) عن نفسه، بإدراك ذهني جزئي، ثم يتطور حتى يعلم الشيء على وجه أفضل، إما بالتعليم والتعريف والإيضاح، أو بالتدريب والممارسة.

والعلم أساس لا يستغنى عنه، وبه تقوم الأعمال الدنيوية والأخروية وتستقيم، وبعدمه تندثر وتزول، وهو القائد الحقيقي للعمل، والمرشد للسلوك الأصوب. والجهل سبب لتدمير الأعمال، وبوار الديار، وحلول الفساد في المؤسسات والأعمال.

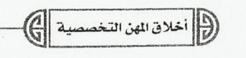


الوحدة الثانية



أخلاق المهن التخصصية

- العلاقة بين النظم واللوائح، والمعايير الأخلاقية في الأعمال
- الفرق بين المسؤولية النظامية القانونية والمسؤولية الأخلاقية
- الإدارة الأخلاقية
- نماذج من أخلاق المهنة التخصصية



مبررات دراسة الوحدة

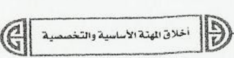
عزيزي الدارس:

لكل مهنة ووظيفة أخلاقيات يجب أن تكون حاضرة في ثقافتها ونظامها، بحيث يدرك الجميع في ميادين العمل أنهم لا يذهبون إلى العمل من أجل الحصول على المال، أو الجاه، أو غير ذلك من المآرب الدنيوية المشروعة، بل لكي يعيش الحياة المهنية ملتزماً بمواثيقها، ومتحلياً بأخلاقها، ومراعياً لجانبها الإنساني المتجاوز لحدود المادة والمكاسب الدنيوية.

وقد أثبتت الاستفتاءات أن الأخلاق ستصبح عما قريب من أهم المعايير التي تقاس على أساسها المؤسسات وقيمة علاماتها التجارية... واتضح أن التزام الشركة بالمبادئ التي تبعدها عن الشبهات والمشكلات الأخلاقية يكون له مردود إيجابي ومالي، وبالتالي فهناك أسباب وجيهة لالتزام الشركات بمبادئ الأخلاق.

ولما كان لكل مجال من مجالات الحياة أخلاق مهنية تبرز أكثر من غيرها فقد بيّنا أهم الأخلاق في بعض المجالات المهمة في حياتنا.

فاحرص – **أخي الدارس** – على دراسة هذه الوحدة؛ للتعرف على ذلك كله.



الأهداف التعليمية للوحدة الثانية

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- توضّح العلاقة بين النظم واللوائح، وبين المعايير الأخلاقية في الأعمال.

٢- تعرف الفرق بين المسؤولية النظامية القانونية والمسؤولية الأخلاقية.

٣- تعرف أهمية وجود الإدارة الأخلاقية في المؤسسات والمنظمات والشركات.

٤- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال التربوي والتعليمي.

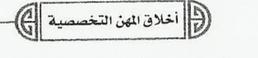
٥- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال الطبي والصحي.

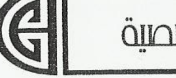
٦- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال القضائي.

٧- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال الإعلامي.

٨- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال التجاري.

٩- تذكر أهم أخلاق المهنة في المجال الهندسي.





أخلاق المهن التخصصية

العلاقة بين النظم واللوائح،والمعايير الأخلاقية في الأعمال

بعد ذكر أصول أخلاقيات العمل الأربعة التي لا بد من وجودها وهي: (العلم، والقوة، والحفظ، والأمانة) ينبغي الإشارة إلى أن هناك أخلاقيات أخرى للمهنة ينبغي أن يلتزمها العامل بحسب عمله، وبناء على ذلك يمكن القول: إن لكل مهنة ووظيفة أخلاقيات يجب أن تكون حاضرة في ثقافتها ونظامها، بحيث يدرك الجميع في ميادين العمل أنهم لا يذهبون إلى العمل من أجل الحصول على المال، أو الجاه، أو غير ذلك من المآرب الدنيوية المشروعة، بل لكي يعيش الحياة المهنية، ملتزماً بمواثيقها، ومتحلياً بأخلاقها، ومراعياً لجانبها الإنساني المتجاوز لحدود المادة والمكاسب الدنيوية، وهذا لا يحدث بشكل صحيح إلا حينما نبذل المزيد من الجهد في مواجهة التحديات المادية، والانحرافات الأخلاقية المسممة للمؤسسات والأعمال والمجتمعات، ونعيش بقيمنا، ونمارس أخلاقنا في حياتنا العملية.

إن نظرية الالتزام بالنظام واحترام اللوائح من الأمور تتكرر في بيئة العمل، إما لأجل الضبط ومنع التسيب، أو لمواجهة التهرب وعدم تحمل المسؤولية، ولكن هذه النظرية وحدها لا تكفي، بل لا بد معها وربما قبلها من التزام النظرية الأخلاقية؛ لأن القيم والأخلاق أكثر سمواً من اللوائح والنظم التي يضعها الناس، ثم يستعملونها وفق أهوائهم ومصالحهم، ويحتالون عليها بآلاف الحيل، أما الأخلاقيات متى ما وجدت، وطُبِّقت، وأصبحت حاضرة في الأعمال؛ فإن أصحابها هم الذين يتمسكون بالفضائل التي توجه أعمالهم نحو الأفضل والأجود.

الفرق بين المسؤولية النظامية القانونية والمسؤولية الأخلاقية

١- المسؤولية الأخلاقية مسؤولية ذاتية أمام الله والضمير، والأجر فيها إلى الله تعالى، أما المسؤولية القانونية فإنها مسؤولية شخص أمام شخص آخر. لذلك كان نطاق المسؤولية الأخلاقية أوسع من نطاق المسؤولية القانونية، لأن دائرة الأخلاق أوسع من دائرة القانون.

٢- المسؤولية الأخلاقية لا يشترط لقيامها والتزامها حدوث ضرر للغير، أما في نطاق المسؤولية القانونية فإن الضرر يعد ركناً من أركان هذه المسؤولية، بمعنى أنك إذا عملت عملاً يقتصر ضرره عليك وليس فيه ضرر على الآخرين فلا مسؤولية عليك أمام القانون، أما من الناحية الأخلاقية فهذا الضرر محظور أخلاقياً وأدبياً.

٣- المسؤولية الأخلاقية أعظم شأناً وأقوى تأثيراً من اللوائح والنظم؛ لأن الأخلاق مبادئ راسخة لا تتغير؛ لأنها مستمدة ومرتبطة بالعقيدة والمبدأ الثابت، أما اللوائح والقوانين فقابلة للتغيير بتغير الأحوال والزمان والمكان، فالأخلاق مطلقة ثابتة، بعكس النظم الإدارية واللوائح فهي نسبية متغيرة.

٤- القوانين واللوائح هي مجموعة تعليمات إدارية أو عرفية تنظم سير الأعمال؛ بينما الأخلاق مجموعة مبادئ في النفس والقلب تحكم تصرفات الفرد وتضبط علاقات المجتمع.

٥- المسؤولية الأخلاقية تنظرُ إلى الأعمال والدافع إليها، وتراعي البواعث في حكمها، أما المسؤولية القانونية فلا تنظر إلا إلى الأعمال الخارجية بغض النظر عن بواعثها.

٦- الأخلاق - في أصلها - متكاملة منسجمة، أما النظم واللوائح والقوانين فقد تتعارض أو تتناقض.

ولا يعني هذا التهوين من شأن القوانين المنظمة للأعمال، ولكنه يعني أنها وحدها لا تكفي، فالضعف البشري يؤكد وجوده من خلال تحايل الفاسدين أخلاقياً على الأنظمة والقوانين مهما كانت صرامتها، ولا فكاك من ذلك إلا بالتركيز على الأخلاقيات والمبادئ وتمحيصها قبل الحكم على شخصية أيّ موظف بل أيّ مدير أو مسؤول على وجه الخصوص.

والمؤسسات والشركات الضخمة - أياً كانت - حالها حال الموظف البسيط يجب أن تتحمل مسؤوليتها الأخلاقية، وتضع مصلحة البشر في أعلى منزلة، ولا يتم ذلك إلا حينما تلتزم المؤسسة بأخلاقيات العمل، وتسعى جاهدة - وبكل صدق وأمانة - في فعل الشيء الصحيح، واحترام مصلحة الناس في كل الأحوال، وبذلك لن تحصل المؤسسة على كامل حقوقها فقط، بل ستجني ثمرات ثقافتها الأخلاقية النبيلة، وستسهم بوضوح في ترسيخ هذه الثقافة في المجتمع.

ولنأخذ على ذلك مثالاً من واقع ما حصل في بعض المؤسسات الخدمية التي كانت في بداية أمرها مؤسسة حكومية بيروقراطية تحتوي على مجموعة من الموظفين فيهم الكثير من الكسالى المتباطئين، وفيهم مجموعة من الإداريين المختلسين الجشعين، وحينما تحولت إلى شركة من شركات القطاع الخاص ووضعت لنفسها قيماً ومعايير أخلاقية عملية رأى الناس كيف حصل التحول في تعامل الموظفين وفي توافر الخدمات وغير ذلك؛ مما يعني أن أخلاقيات العمل أمر مهم جداً، وهي لا تتحقق بمجرد الأماني والمطالبات؛ لأن الدفاع عن المبادئ والتغني بها أسهل بكثير من الالتزام بها، والسؤال المهم هنا هو: كيف نتمكن من غرس أخلاقيات العمل، بحيث تصبح جزءاً من الممارسة اليومية للعامل وللمؤسسة بكاملها؟ حتى نتجاوز عقدة (كثرة القرارات الموازية لقلة الإنجازات) ومشكلة (كثرة الشعارات التي يقابلها القليل من الإبداعات) وإشكالية (كثرة اللوائح والتنظيمات المقترنة بكثير من التسيب والإهمال).

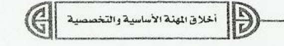
إن لدينا منجماً ضخماً من الأخلاقيات في ديننا، ومع ذلك فلا مفر من توطين أخلاقيات المهنة في كل مجالات العمل، بحسب طبيعة المؤسسة والمهنة، ولا مناص من بناء الخلق القويم بين الموظفين في المنظمة في جميع القطاعات الحكومية والأهلية والخاصة.

ولتأكيد السمو الأخلاقي وأهميته وأثره في المهن والأعمال نبين أن الله جل وعلا لم يكلفنا ببلوغ النجاح، ولكنه طلب منا أن نحسن أعمالنا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢)، وأخبرنا رسوله إلينا وهو الصادق المصدوق ﷺ: **"إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ"**(١).

الإدارة الأخلاقية

إذا كانت الوظائف والأعمال والمؤسسات في حاجة إلى إدارة قانونية، ومعايير، وصلاحيات إدارية فهي حاجة إلى نوع من (الإدارة الأخلاقية) التي تُوجد و تطبّع أخلاقيات كل مهنة بحسب نوعيتها، وتجيب على أسئلة العمل كما تجيب الإدارة القانونية، التي من مهامها المعروفة الإجابة على مدى قانونية القرارات والخطط والبرامج، وهل هي سليمة من الناحية القانونية؟ وهل فيها انتهاك لسياسة المنظمة أو قوانينها ولوائحها؟.

(١) رواه البيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم (٤٩٢٩)؛ وأبو يعلى، المسند، حديث رقم (٤٣٨٦).



الإدارة الأخلاقية يجب أن تكون لديها الإجابة على مدى صدقية القرارات وعدالتها، ومدى توافقها مع هوية الأمة وطموحاتها، وهل هي متوازنة في تحقيق مصالح الأطراف المعنية؟ وهل ستلحق ضرراً بأي منهم؟ وما هي ردة الفعل الأخلاقية داخل المنظمة وخارجها إذا نشرت هذه القرارات وذاعت بين الناس؟، ومثل هذا يقال عن الأعمال المخطط لها والمراد إنجازها، وعن الموظفين والإداريين وما يتعلق بهم من جودة أداء وحسن تعامل، أو ترقيات وعقوبات، وما يتعلق بالعملاء والمراجعين، ومدى ثقتهم بالمنظمة، واحترامهم لها، وشعورهم بأنها تفعل الشيء الصحيح، وتراعي مصالح الناس في كل الظروف.

"وقد أثبتت الاستفتاءات أن الأخلاق ستصبح عما قريب من أهم المعايير التي تقاس على أساسها المؤسسات وقيمة علاماتها التجارية... واتضح أن التزام الشركة بالمبادئ التي تبعدها عن الشبهات والمشكلات الأخلاقية مثل الخيانة وعدم الوفاء بالوعود، يكون له مردود إيجابي ومالي... هناك أسباب وجيهة لالتزام الشركات بمبادئ الأخلاق، ومعظم هذه الأسباب يتلخص في كلمة واحدة هي (الثقة)، يريد الموظفون أن يُعاملوا باحترام، وأن يُكافؤوا على إسهاماتهم بعدل، فهم يحترمون أمانة زملائهم ومديريهم... أما العملاء فيريدون أن تتعامل معهم المؤسسات بالعدل والحق، وأن يثقوا بها..."[1].

نماذج من أخلاق المهنة التخصصية

١- في المجال التربوي والتعليمي

يجب التركيز على خلق القدوة، والألفة، والاستقامة، والرأفة، وحسن السمت؛ وذلك لأن المعلم ليس مجرد آلة ناطقة بالمعلومات، بل هو مع قيامه بالتعليم والتفهيم يجب أن يكون مربياً لشخصيات طلابه، وقادراً على الارتقاء بهم، عقلياً، ونفسياً، وسلوكياً، وعاطفياً، وهذا لا يتم إلا حينما يكون رؤوفاً بهم، مستقيماً في ذاته، محبوباً عندهم، ناصحاً لهم، حريصاً عليهم، تتمثل فيه الأسوة الحسنة[2].

فالمعلم يتعين عليه التحلي بمحاسن الأخلاق: لأنه قدوة لطلابه، فأبصارهم شاخصة إليه، ونفوسهم متأثرة به، فهو نموذجهم الحي للشخصية المرغوبة، وكما قيل: (عندما توظّف المعلم فإنك

(١) المختار الإداري، العدد (٣٩)، مارس، (٢٠٠٥م)، ص ٨، مقال مترجم بعنوان (أخلاق العمل).

(٢) للتوسع انظر: علاقة أخلاقيات العمل بالتعليم، في كتاب الوجيز في أخلاقيات العمل، لأحمد بن داود المزجاجي (ص ٧٨-٨٤).

توظف أخلاقه معه)، وتتأكد أهمية القدوة في المعلم؛ لأنه مسؤول عن التربية الخلقية لطلابه، وهو المنوط به غرس الأخلاق الحسنة في نفوسهم، ورعايتها، وتنميتها في سلوكهم.

ومن الأخلاق المهمة للمعلم: الصبرُ والحلم؛ لأنه محتاج أن يصبر على تعليم طلابه باختلاف مستوياتهم في الفهم والإدراك، وأن يعظُم صبره على الطلاب محدودي القدرات في الفهم والإدراك، ولا يتضجر من كثرة الأسئلة أو طلب الإعادة، وعليه أن يحلُم ولا يغضب، ويغلّب جانب العفو والمسامحة على جانب العتب والمعاقبة، فالحلم ضبط للنفس وكظم للغيظ، وقد قال المصطفى ﷺ: "الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطاً النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"[1].

٢- في المجال الطبي والصحي

ربما يكفينا ذكر قَسَم الطبيب للتعرف على أبرز أخلاق مهنة الطب؛ لأننا نجد اليمين التي يقسمها الطبيب عند تخرجه ومباشرته لمهنة معالجة المرضى، تكاد تكون يميناً أخلاقية بحتة، كما هو واضح في نصها التالي:[2]

"أقسم بالله العظيم:

١- أن أراقب الله في مهنتي.

٢- وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال، باذلاً وسعي في استنقاذها من الموت والمرض والألم والقلق.

٣- وأن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عورتهم، وأكتم سرهم.

٤- وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلاً رعايتي الطبية للقريب والبعيد، والصالح والخاطئ، والصديق والعدو.

٥- وأن أثابر على طلب العلم، وأسخره لنفع الإنسان، لا أذاه.

(١) رواه الترمذي، حديث رقم (٢٥٠٧).

(٢) نص هذه اليمين مما أُقرّ في المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي، كما ورد في الدستور الإسلامي لمهنة الطب (ص ٤٥)، نقلاً عن كتاب الوجيز في أخلاقيات العمل، لأحمد بن داود المزجاجي (ص ٢٤٢).

٦- وأن أوقّر من علّمني، وأعلّم من يصغرني، وأكون أخاً لكل زميل لي في المهنة الطبية، في نطاق من البر والتقوى.

٧- وأن تكون حياتي مصداق إيماني، في سري وعلني، نقياً مما يشينني أمام الله، ورسوله، والمؤمنين.

والله على ما أقول شهيد".

وهذا القسم – كما هو ملاحظ – يتضمن مجموعة من الأخلاقيات التي تلزم الطبيب وهي: مراقبة الله، وصيانة حياة الناس، والبذل، وحفظ الكرامة، وستر العورة، والسرية، والرحمة، والمثابرة، والنفع، والتوقير، والتعلم والتعليم، والاستقامة الإيمانية.

ومن أبرز الأخلاق في الميدان الطبي والصحي بشكل عام: الاحترامُ والمواساةُ، ومن منطلق التكريم الإلهي لجنس البشر وجب على العاملين في المجال الطبي أن يتعاملوا مع المرضى على أساس إنسانيتهم، فيقدرونهم، ويحترمونهم، ويعطونهم حقوقهم التي قرّرها الشرع، ونظّمتها الأنظمة المعمول بها.

ولذلك فمن حق المريض ومن احترام إنسانيته أن يعرف ما له وما عليه، وأن يُعامَل معاملة حسنة تليق به كإنسان، فضلاً عن أن تكون معاملة بين مسلم وأخيه المسلم، وقد بيّن النبي ﷺ أن من علامات الإيمان أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، فقال ﷺ: **"فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ"**[1].

ومن حق المريض إدخال الطمأنينة على قلبه، وزيادة أمله في الشفاء، وتعليق قلبه ورجائه بالله تعالى القادر على كل شيء، فلقد "علق ابن القيم على قول النبي ﷺ **"لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ"**[2] فقال: في هذا الحديث تقوية لنفس المريض والطبيب، وحثّ على طلب الدواء؛ فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء، يزيد تعلق قلبه بروح الرجاء، ويرد من حرارة اليأس"[3].

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٢٢٠٤).

(٣) أدب الطبيب في ظل الإسلام، لمحمد نزار الدقر، بحث منشور في أكثر من موقع على الشبكة العنكبوتية.

ومن أدب الطبيب الدعاء لمريضه، وفي هذا مواساة له بالكلمة الطيبة، كقوله: معافى، أو عافاك الله، أو بدعاء مأثور. فقد كان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: **" لا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ "**[1]، ففي الدعاء للمريض تذكير له بخالق الداء والدواء، حتى تبقى نفسه هادئة مطمئنة، بالالتجاء إلى الله، والتوكل عليه[2].

٣- في المجال القضائي

يوجد في بعض كتب الفقه عناية بهذا المجال، ويأتي غالباً تحت عنوان (آداب القاضي)، ويذكرون فيها ما يجب على القاضي التحلي به من أخلاق، وما يستحب، وما يحرم عليه، وما يكره[3]، ونشير هنا إلى بعض الأخلاقيات الواجب وجودها في القاضي وهي: العدل، والبصيرة، والأناة، والقناعة، والنزاهة، والهيبة، والحلم، والخشية.

فإنه إذا تحلى بالعدل استقامت أحكامه، وقضى بالقسط، وأنصف بين الخصوم، وبالبصيرة يُرزَق الفراسة والفطنة، ويتمكن من التثبت، وكشف اللبس والاحتيال، وبالأناة يسلم من الطيش، والنزق، والعجلة، وبالقناعة يستعلي على حيل أهل الرشوة وأرباب الإغواء الدنيوي، ويستغني بقناعته فيكون له الشرف والمهابة، وبالنزاهة يتعفف وتعظم درجته وتُقبَل أحكامه، وبالهيبة ينقمع الظالم، ويخاف المعتدي والفاجر، والفاحش البذيء، وبالحلم يكظم غيظه، ويدفع عن نفسه صولة الغضب، ويحسن سمته، ويصيب في رأيه، وبالخشية من الله يستقيم على جادة الحق، ويُرزَق التوفيق، ويسلم من رعونات النفس، ومن شياطين الجن والإنس.

٤- في المجال الإعلامي

يجب العناية القصوى بإيجاد خلق الصدق في كل الإعلاميين، كما لابد من وجود الحياء، والأدب،

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢٤٢٠).

(٢) أدب الطبيب في ظل الإسلام، لمحمد نزار الدقر، بحث منشور في أكثر من موقع على الشبكة العنكبوتية.

(٣) انظر على سبيل المثال: سنن البيهقي الكبرى، كتاب آداب القاضي (٨٦/١٠)؛ وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني الحنفي (٣/٧)؛ وشرح منتهى الإرادات، لمنصور البهوتي الحنبلي (٤٨٣/٦)؛ ومجموع فتاوى ابن تيمية، باب آداب القاضي (٤١٧/٣٧)؛ والفتاوى السعدية، باب آداب القاضي (٦٠٧/١)، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي؛ وفتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، باب آداب القاضي (٣٣٢/١٢).

والإنصاف، والإصلاح، وتعظيم الحرمات، وتكريم الإنسان، والنزاهة، والستر، والغيرة، والمروءة، والعزة.

ولخطورة الإعلام وشدة أثره يجب التأكيد على الأخلاقيات اللازمة للإعلامي والمحاسبة عليها، وكسر طغيان العرف القائل بأن الإعلام فوق المساءلة، وإبطال المفهوم غير الأخلاقي القائل بأن المهنية الإعلامية أهم من الأخلاق المثالية، كما يقول بعضهم، كما أنه لابد من لجم سطوة الإعلام، حتى لا تستشري سطوته، ويتحول إلى قوة طاغية تحت مسمى السلطة الرابعة، يتحكم بها الكبراء والأقوياء من أصحاب القوة المادية أو السياسية، وكذا أصحاب الأحزاب، والمذاهب، وفئات المصالح، وجماعات الضغط المختلفة التي تسخر الإعلام لخدمة أهدافها وتحقيق مصالحها، على حساب المصلحة العامة، والهوية، والأخلاق، وحاجات الضعفاء والمهمّشين، ورغبات الأكثرية الصامتة، أو المشتغلة بلقمة عيشها.

هذا المأزق الأخلاقي الإعلامي الذي يوشك أن يكون من المُسلّمات، يحتاج إلى معالجات عديدة، منها تثبيت أخلاقيات العمل الإعلامي، وإلزام الإعلاميين بفضائلها:

ففضيلة الصدق يجب أن تسكن ضمير كل إعلامي؛ ليسلم الناس من شرور التلفيق، ومخاطر إخفاء الحقيقة أو بعضها، و يتخلص المجتمع من جناية الأكاذيب، وقد أخبر النبي ﷺ برؤيا رآها -وهي وحي من الله- أنه رأى رجلاً يُشرشَر شدقه ومنخره، وعينه إلى قفاه، ففسر له الملَكُ ذلك، فقال: " **وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ..** "[1].

والحياء قرين الإيمان، كما في الحديث الصحيح، قال ﷺ " **إِنَّ الْحَيَاءَ وَالإِيمَانَ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ** "[2]، فإذا زال الحياء من نفس إنسان استولى عليه الهوى، وظهرت عليه علامات الوقاحة، وزالت عنه الأنفة والشهامة، ورحل النبل من نفسه، ولم تعد لديه حساسية من الإساءة أو البذاءة، بل ربما سمّم المجتمع بوقاحته ولؤمه.

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٧٠٤٧).

(٢) رواه الحاكم، المستدرك، حديث رقم (٥٨)؛ والبخاري، الأدب المفرد، حديث رقم (١٣١٣).

والأدب – أدب النفس وليس أدب الدرس – يحمل على القول الجميل، والفعل الحسن، والعفة، ورقي النفس، والحيطة من الزور، والكتابة الدعائية الباطلة، ويوجب الترفع عن الأعمال الهابطة، والبرامج الرخيصة التي تتاجر بالغرائز والشهوات.

والإنصاف به يعدل في أقواله وأفعاله، ويسلم من رذيلة الظلم والعدوان، ويحفظ حقوق الناس، ويكتسب الاعتدال والتوسط، وفي الحديث القدسي " **يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا** "[1].

والإصلاح الحقيقي – وليس المدّعى أو المزيَّف – يجعل الإعلامي حريصاً على النفع بكل أنواعه المشروعة، بعيداً عن الضرر والضرار، متحرياً للخير دالاً عليه، محباً للناس، ساعياً في ما يحقق مصالحهم، متعاوناً مع غيره على البر والتقوى، والنفع والرقي، مسارعاً في الخيرات، كارهاً للفساد والمفسدين، والهابطين والمثبطين، وما لم يكن كذلك فهو إصلاح دعائي مزور، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١١ – ١٢).

وتعظيم الحرمات تحمل الإعلامي على حفظ حدود الله، وحفظ حقوق الخلق، والحرص على أعراض المسلمين وأخلاقهم، ومراقبة الله تعالى في أعماله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (الحج: ٣٠).

وتكريم الإنسان يجعله يخرج من دوامة السلوك المادي، ومستنقع الممارسات النفعية الانتهازية، ويجعله يرى كل الأبعاد الإنسانية في الإنسان، وخاصة الروحية والغيبية والأخلاقية، وهي التي يحاربها الفكر المادي بسلاح النسبية والتغيير والصيرورة، أو يهمشها جانباً، لحساب الجسد والقوة، والشهوة ورأس المال.

والنزاهة تجعل العمل الإعلامي سبباً في الألفة والرحمة، والبشارة بالخير والتطوير الصائب، والنهضة الحقيقية، وتجعل من الإعلامي إنساناً شريفاً أعلى من دنس الشهوات الفاسدة، وأرفع من رجس الشبهات الطائشة، كما أخبر النبي ﷺ " **إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ، يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَيَبْغَضُ سَفْسَافَهَا** "[2].

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٦٧٣٧).

(٢) رواه الحاكم، حديث رقم (١٥١).

والستر هو الخلق المؤدي إلى نشر العفاف، وتقوية الفضيلة، ودفن الرذيلة، وعدم إشاعة الفاحشة ودواعيها، وتعزيز الطهارة الاجتماعية والترابط والتآزر، والله تعالى يحب هذا الخلق الرفيع،كما اخبر بذلك نبيه ﷺ: بأن الله " سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ والسَّتْرَ... "[1]، فإذا فقد إعلامي هذا الخلق رخصت همته، فأضحى يبحث عن الفضائح، وينبش في القبائح، وقلّت شهامته وعفته، فأطلق لنفسه العنان في إفشاء الأسرار، وكشف العيوب، وتصيد الأخطاء، تحت بهرج ما يسمى بالخبطة الإعلامية، وفي أكثر الأحوال فإن هذا الصنف إنما يتسلط على الضعفاء وأصحاب الهفوات النادرة من الفضلاء أو المستورين، ويحابي الأقوياء أصحاب الضرر المتعدي، والإصرار على الفساد والعناد، ولو أن المشتغل بالإعلام تدرّب على أخلاقيات مهنته والتزم بها قناعة وديناً، أو أُلزم بها نظاماً وقضاء؛ لأمكنه أن يدرك شناعة تتبع العورات، ومفاسد نشرها بين الناس، فإن نبينا ﷺ أخبرنا بأنه " **مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ** "[2].

والغيرة هي التي تحمل الإعلامي على الإخلاص لأمته، ومجتمعه، ومصالحهم وأعراضهم، وحاضرهم، ومستقبلهم، وانعدام الغيرة أو ضعفها تجعله يبيع ضميره في سوق النخاسة العولمي، فيصير على أمته ومجتمعه عدواً وحزناً، فلا يكاد يلتفت لسيادة أمته، أو استقلال وطنه، أو سلامة الشرف والعرض، بل بعضهم وصل به الحال إلى اعتبار هذه المعاني مجرد شعارات جوفاء تنافي المنفعة العصرية والمصلحة الحضارية!!، وقد امتدح النبي ﷺ خلق الغيرة لما حدّثه بعض الصحابة رضي الله عنهم عن غيرة سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه فقال: " **أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ** "[3].

٥- في المجال التجاري

وهذا مجال واسع يشمل جميع المناشط التجارية الفردية والجماعية، ويدخل تحته الشركات الكبيرة، والمؤسسات الصغيرة، والتجارة الفردية.

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٠١٢)؛ والنسائي، حديث رقم (٤٠٤).
(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (٢٠٣٢).
(٣) رواه البخاري، حديث رقم (١٠٨)؛ ومسلم، حديث رقم (٣٨٣٧).

وقد وردت نصوص شرعية عديدة متعلقة بأخلاقيات التجارة، سأورد بعضها لإيضاح بعض أخلاق العمل التجاري، وبعض الصفات الحسنة التي على التاجر أن يتحلى بها، أو الصفات السيئة التي عليه أن يتخلى عنها، فمن ذلك:

١- **وجوب الإيفاء:** وضده التطفيف الذي حرمه الله، وهذا يشمل أموراً كثيرة منها: تحريم التلاعب بالموازين والمقاييس والمواصفات بيعاً وشراء، ومنها وجوب إعطاء العامل أجره بلا نقصان ولا مماطلة، ولا بخس لحقه كاستغلال حاجته، وجعله يعمل عملاً كثيراً مقابل أجرة قليلة، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ – ٣).

وفي موعظة شعيب عليه السلام لأهل مدين قال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٤ – ٨٥).

٢- **الصدق والتبيين في حال البيع والشراء**، وضد ذلك التدليس والغش، بكل أنواعه، وكتمان عيوب السلعة.

قال ﷺ: " **الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا** "[1].

وقال ﷺ: " **مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا** " وفي رواية: " **مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي** "[2].

وقال ﷺ: " **التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ، مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** "[3].

وقال ﷺ: " **يا مَعْشَرَ التُّجَّارِ؛ ألا إن التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ، إلا مَنِ اتَّقَى وَبَرَّ وَصَدَقَ** "[4]، وفي رواية "... **إلا من صَدَقَ وَوَصَلَ وَأَدَّى الأَمَانَةَ** "[5].

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢٠٧٩)، ومسلم، حديث رقم (٣٩٣٧).
(٢) كلا اللفظين رواهما مسلم، حديث رقم (٢٩٤).
(٣) رواه الترمذي، حديث رقم (١٢٠٩).
(٤) رواه ابن جرير الطبري، في تهذيب الآثار، حديث رقم (١٣٣٩).
(٥) المصدر السابق نفسه، حديث رقم (١٣٤٢).

٣- الكسب الحلال: وهذا يندرج تحته كل الوظائف والأعمال والمهن، و يخص التجارة منه أشياء كثيرة منها: اشتراط أن تكون السلعة أو الخدمة حلالاً في الشرع، وكل ما نُص على حرمته فلا يجوز الاتجار به، وكل ما ثبت ضرره على جسد الإنسان، أو عقله، أو خلقه، أو دينه، أو ماله، فلا يجوز الاتجار به.

ويندرج تحت هذا الأصل جميع البيوع والعقود والمناشط المالية والتجارية والإعلامية الفاسدة.

ومن أمثلة ما نص الشرع على النهي عن الاتجار به ما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ " نهى رسول الله ﷺ عن ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ "[١].

ومن أدلة تحريم الاتجار بأي شيء حرمه الله تعالى قول النبي ﷺ: " **لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا، وإن الله عَزَّوَجَلَّ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ** "[٢]، وفي رواية بلفظ: " **إذا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ** "[٣].

ومن أمثلة ما ثبت ضرره على الإنسان، وهو يعد من السلع المحرمة، وكسبه من الكسب الحرام (الدخان، والمخدرات، وأفلام الفساد والانحلال، ومسابقات اليانصيب، وسائر أنواع المسابقات القائمة على القمار) وغير ذلك من أنواع المكاسب المحرمة التي كثر تداولها في هذه الأزمنة.

٦- في المجال الهندسي

الهندسة مهنة متعددة التخصصات، وهي تعتمد التوازن الدقيق، والنسب المدروسة، والتكامل المتناسق، مع الأداء الفعال والتحمّل المطلوب، ومن ثم فإنها تتطلب العناية بخلق الأمانة بلا تساهل أو تفريط، والدقة والانضباط بلا تهاون أو تخليط، والصبر والأناة بلا عجلة أو عشوائية، و"ترتبط مهنة الهندسة والخدمات التي يقدمها المهندسون بشكل كبير بالتقدم الحضاري، وحماية وتسخير الموارد الطبيعية لخدمة المجتمع، والرفع من مستوى معيشته، لذا يصبح من الضروري أن يقدّم المهندسون خدماتهم المهنية وفقاً لقواعد ومعايير أخلاقية تتوخى الصدق والأمانة والإتقان"[٤].

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢٢٣٧).
(٢) رواه أحمد، حديث رقم (٢٢٢١)، وأوله عند البخاري، برقم (٣٤٠٠) بلفظ (فجملوها فباعوها).
(٣) رواه ابن حبان، حديث رقم (٤٩٣٨).
(٤) انظر: أخلاقيات ممارسة مهنة الهندسة، على (موقع الهيئة السعودية للمهندسين) على الشبكة العنكبوتية.

ومن هنا فإن الأخلاق قاعدة أساسية في مهنة الهندسة، وهناك تركيز على بعض الأخلاق لأهميتها الكبرى في مجال العمل الهندسي؛ و"لما كان العدل، والنزاهة، والصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وحفظ السر، والتناصح، وإتقان العمل، والابتعاد عن إيذاء الغير في مجملها هي مكارم الأخلاق والقيم التي يدعو إليها الإسلام، ويحث على التمسك بها، والالتزام بتطبيقها في الحياة اليومية، فقد راعت الهيئة السعودية للمهندسين فيما أعدته من قواعد وأخلاقيات ممارسة المهنة، هذه الأسس والمبادئ والقيم "[١].

وقد جاء في وثيقة (أخلاقيات ممارسة مهنة الهندسة) ما يلي:

القاعدة الخامسة:

- يحرص المهندس عند تقديم أفكاره و آرائه و قراراته أن تكون بطريقة موضوعية وصادقة، وفي مجال تخصصه وخبراته المهنية.
- على المهندس أن يكون موضوعياً، وصادقاً، ومستقلاً في اتخاذ قراراته الهندسية في مجال تأهيله العلمي والعملي فقط، بحيث لا يلزمه في ذلك إلا الاعتبارات العلمية والمهنية، مع الاستفادة من كافة الخبرات التخصصية المتوفرة، والاستعانة بزملائه لإنجاز الأعمال خارج مجال تخصصه.
- على المهندس عند مثوله أمام المحاكم أو اللجان الرسمية، كخبير، أو لتقديم شهادة فنية أن يعرض وجهة نظره الهندسية، مبنية على خبرة، ودراية، ومعرفة بالحقائق، مراعياً في ذلك النزاهة، والصدق، وشرف المهنة.
- على المهندس عدم إصدار أية تقارير، أو انتقادات، أو تعليقات حول موضوعات هندسية، إذا كان ذلك بدافع مادي، أو معنوي لحساب جهة أو جهات ذات مصلحة، إلا إذا سبق ذلك تصريح واضح بالجهة أو الجهات التي يتحدث نيابة عنها.
- على المهندس أن يتحلى بالتواضع، والاعتدال، عند عرضه لأعماله وكفاءته، وعليه تجنّب أي تصرف يؤدي إلى تقديم مصلحته الخاصة على حساب أمانة ومكانة وكرامة المهنة.

(١) انظر: أخلاقيات ممارسة مهنة الهندسة، على (موقع الهيئة السعودية للمهندسين) على الشبكة العنكبوتية.

- في حال تعارض القيم والمبادئ مع الخدمات المهنية يحدد المهندسون أولوياتهم وفق التالي:
  - تفضيل القيم الإنسانية على اعتبارات الطبيعة.
  - تفضيل الموضوعات المتعلقة بحقوق الإنسان على إنتاج واستغلال التقنية.
  - تفضيل الرفاهية العامة للمجتمع على المصالح الخاصة.
  - تفضيل السلامة والأمن على الأداء الوظيفي والمكاسب المادية للحلول الفنية[1].

(١) انظر: أخلاقيات ممارسة مهنة الهندسة، على (موقع الهيئة السعودية للمهندسين) على الشبكة العنكبوتية.

خلاصة الوحدة الثانية

العلاقة بين النظم واللوائح،والمعايير الأخلاقية في الأعمال

إن نظرية الالتزام بالنظام واحترام اللوائح من الأمور تتكرر في بيئة العمل، إما لأجل الضبط ومنع التسيب، أو لمواجهة التهرب وعدم تحمل المسؤولية، ولكن هذه النظرية وحدها لا تكفي، بل لا بد معها وربما قبلها من التزام النظرية الأخلاقية؛ لأن القيم والأخلاق أكثر سمواً من اللوائح والنظم التي يضعها الناس، ثم يستعملونها وفق أهوائهم ومصالحهم، ويحتالون عليها بآلاف الحيل، أما الأخلاقيات متى ما وجِدت، وطُبِّقت، وأصبحت حاضرة في الأعمال؛ فإن أصحابها هم الذين يتمسكون بالفضائل التي توجه أعمالهم نحو الأفضل والأجود.

الفرق بين المسؤولية النظامية القانونية والمسؤولية الأخلاقية

١- المسؤولية الأخلاقية مسؤولية ذاتية أمام الله والضمير، والأجر فيها إلى الله تعالى، أما المسؤولية القانونية فإنها مسؤولية شخص أمام شخص آخر.

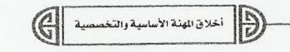
٢- المسؤولية الأخلاقية لا يشترط لقيامها والتزامها حدوث ضرر للغير، أما في نطاق المسؤولية القانونية فإن الضرر يعد ركناً من أركان هذه المسؤولية.

٣- المسؤولية الأخلاقية أعظم شأناً وأقوى تأثيراً من اللوائح والنظم؛ لأن الأخلاق مبادئ راسخة لا تتغير؛ أما اللوائح والقوانين فتتغير بتغير الأحوال والزمان والمكان.

٤- القوانين واللوائح هي مجموعة تعليمات إدارية، أو عرفية، تنظم سير الأعمال؛ بينما الأخلاق مجموعة مبادئ في النفس والقلب تحكم تصرفات الفرد وعلاقات المجتمع.

٥- المسؤولية الأخلاقية تنظرُ إلى الأعمال والدافع إليها وتراعي البواعث في حكمها، أما المسؤولية القانونية فلا تنظر إلا إلى الأعمال الخارجية بغض النظر عن بواعثها.

٦- الأخلاق – في أصلها – متكاملة منسجمة، أما النظم واللوائح والقوانين فقد تتعارض أو تتناقض.



الإدارة الأخلاقية

الإدارة الأخلاقية يجب أن تكون لديها الإجابة على مدى صدقية القرارات وعدالتها، ومدى توافقها مع هوية الأمة وطموحاتها، وهل هي متوازنة في تحقيق مصالح الأطراف المعنية؟ وهل ستلحق ضرراً بأي منهم؟ وما هي ردة الفعل الأخلاقية داخل المنظمة وخارجها إذا نشرت هذه القرارات وذاعت بين الناس؟

وقد أثبتت الاستفتاءات أن الأخلاق ستصبح عما قريب من أهم المعايير التي تقاس على أساسها المؤسسات وقيمة علاماتها التجارية... واتّضح أن التزام الشركة بالمبادئ التي تبعدها عن الشبهات والمشكلات الأخلاقية مثل الخيانة وعدم الوفاء بالوعود، يكون له مردود إيجابي ومالي...

نماذج من أخلاق المهنة التخصصية:

١- **في المجال التربوي والتعليمي:** يجب التركيز على خلق القدوة، والألفة، والاستقامة، والرأفة، وحسن السمت.

ومن الأخلاق المهمة للمعلم: الصبرُ والحلم؛ لأنه محتاج أن يصبر على تعليم طلابه باختلاف مستوياتهم في الفهم والإدراك، وأن يعظُم صبره على الطلاب محدودي القدرات في الفهم والإدراك، ولا يتضجر من كثرة الأسئلة أو طلب الإعادة، وعليه أن يحلُم ولا يغضب، ويغلّب جانب العفو والمسامحة على جانب العتب والمعاقب.

٢- **في المجال الطبي والصحي:** قَسَم الطبيب يتضمن مجموعة من الأخلاقيات التي تلزم الطبيب وهي: مراقبة الله، وصيانة حياة الناس، والبذل، وحفظ الكرامة، وستر العورة، والسرية، والرحمة، والمثابرة، والنفع، والتوقير، والتعلم، والتعليم، والاستقامة الإيمانية.

ومن أبرز الأخلاق في الميدان الطبي والصحي بشكل عام: الاحترامُ والمواساةُ، فيتعاملوا مع المرضى على أساس إنسانيتهم، فيقدرونهم، ويحترمونهم، ويعطونهم حقوقهم. ولذلك فمن حق المريض ومن احترام إنسانيته أن يعرف ما له وما عليه، وأن يُعامَل معاملة حسنة تليق به كإنسان، فضلاً عن أن تكون معاملة بين مسلم وأخيه المسلم.

ومن حق المريض إدخال الطمأنينة على قلبه، وزيادة أمله في الشفاء، وتعليق قلبه ورجائه بالله تعالى القادر على كل شيء.

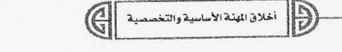
ومن أدب الطبيب الدعاء لمريضه، وفي هذا مواساة له بالكلمة الطيبة، كقوله: معافى، أو عافاك الله، أو بدعاء مأثور.

٣- **في المجال القضائي:** ومن الأخلاقيات الواجب وجودها في القاضي: العدل، والبصيرة، والأناة، والقناعة، والنزاهة، والهيبة، والحلم، والخشية.

فإنه إذا تحلى بالعدل استقامت أحكامه، وقضى بالقسط، وأنصف بين الخصوم، وبالبصيرة يُرزَق الفراسة والفطنة، ويتمكن من التثبت، وكشف اللبس والاحتيال، وبالأناة يسلم من الطيش، والنزق، والعجلة، وبالقناعة يستعلي على حيل أهل الرشوة وأرباب الإغواء الدنيوي، ويستغني بقناعته فيكون له الشرف والمهابة، وبالنزاهة يتعفف وتعظم درجته وتُقبَل أحكامه، وبالهيبة ينقمع الظالم، ويخاف المعتدي والفاجر، والفاحش البذيء، وبالحلم يكظم غيظه، ويدفع عن نفسه صولة الغضب، ويحسن سمته، ويصيب في رأيه، وبالخشية من الله يستقيم على جادة الحق، ويُرزَق التوفيق، ويسلم من رعونات النفس، ومن شياطين الجن والإنس.

٤- **في المجال الإعلامي:** يجب العناية القصوى بإيجاد خلق الصدق في كل الإعلاميين، كما لابد من وجود الحياء، والأدب، والإنصاف، والإصلاح، وتعظيم الحرمات، وتكريم الإنسان، والنزاهة، والستر، والغيرة، والمروءة، والعزة.

ويجب التأكيد على الأخلاقيات اللازمة للإعلامي والمحاسبة عليها، وكسر طغيان العرف القائل بأن الإعلام فوق المساءلة، وإبطال المفهوم غير الأخلاقي القائل بأن المهنية الإعلامية أهم من الأخلاق المثالية، كما يقول بعضهم، كما أنه لابد من لجم سطوة الإعلام، حتى لا تستشري سطوته، ويتحول إلى قوة طاغية تحت مسمى السلطة الرابعة. يتحكم بها الكبراء والأقوياء من أصحاب القوة المادية أو السياسية، وكذا أصحاب الأحزاب، والمذاهب، وفئات المصالح، وجماعات الضغط المختلفة التي تسخر الإعلام لخدمة أهدافها وتحقيق مصالحها، على حساب المصلحة العامة، والهوية، والأخلاق، وحاجات الضعفاء والمهمّشين، ورغبات الأكثرية الصامتة، أو المشتغلة بلقمة عيشها.



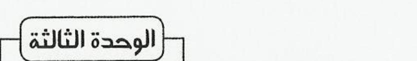
٥- **في المجال التجاري:** ومن أخلاقيات العاملين في المجال التجاري: وجوب الإيفاء، وضده التطفيف الذي حرمه الله، وهذا يشمل أموراً كثيرة منها: تحريم التلاعب بالموازين والمقاييس والمواصفات بيعاً وشراء، ووجوب إعطاء العامل أجره بلا نقصان ولا مماطلة، ولا بخس لحقه كاستغلال حاجته، وجعله يعمل عملاً كثيراً مقابل أجرة قليلة.

ومن الأخلاقيات: الصدق والتبيين في حال البيع والشراء، وضد ذلك التدليس والغش، بكل أنواعه، وكتمان عيوب السلعة.

ومنها كذلك: الكسب الحلال، وهذا يندرج تحته كل الوظائف والأعمال والمهن، و يخص التجارة منه أشياء كثيرة منها: اشتراط أن تكون السلعة أو الخدمة حلالاً في الشرع، وكل ما نُص على حرمته فلا يجوز الاتجار به، وكل ما ثبت ضرره على جسد الإنسان، أو عقله، أو خلقه، أو دينه، أو ماله، فلا يجوز الاتجار به.

٦- **في المجال الهندسي:** والهندسة تتطلب العناية بخلق الأمانة بلا تساهل أو تفريط، والدقة والانضباط بلا تهاون أو تخليط، والصبر والأناة بلا عجلة أو عشوائية.

ومن الأخلاقيات المهمة كذلك: العدل، والنزاهة، والصدق، والوفاء بالعهد، وحفظ السر، والتناصح، وإتقان العمل، والابتعاد عن إيذاء الغير.



الوحدة الثالثة



الطريق إلى أخلاق المهنة

- **أهمية ثقافة التنفيذ لأخلاق المهنة**
- **مقترحات عملية لتنمية الأخلاق المهنية**
- **مقترحات معرفية لتنمية أخلاق المهنة**

مبررات دراسة الوحدة

عزيزي الدارس:

لما كان جمال الأخلاقيات، ودقة اللوائح والنظم والخطط لا تكفي في الوصول إلى الإتقان والإنجاز المتميز ما لم تتحول إلى ثقافة تنفيذية تحتوي على المهارات العملية للتنفيذ، وهو أمر خدمته الكتب الإدارية، ووصفت الطرائق العملية لتنفيذ وإتمام المهمات، والقرارات، والأمور التي يهتم الإنسان بوضعها على أرض الواقع العملي.

ويمكن اقتراح جملة من الطرائق العلمية والعملية التي يمكن من خلالها ترسيخ أخلاقيات العمل في المنظمات الرسمية وغير الرسمية.

وهناك حاجة ماسة لسبر التزام العاملين بأخلاق المهنة بطريقة علمية عملية، ومحاسبة من يخلّ بأخلاق المهنة، وليكن ذلك بتدرج مقصود، يبدأ بطريقة لفت النظر بأسئلة غير مباشرة، وينتهي بتطبيق عقوبة الفصل أو التشهير، أو هما معاً لتكون رادعة لذوي النفوس الضعيفة. كل ذلك وفق خطوات إجرائية مدروسة.

فاحرص - **أخي الدارس** - على دراسة هذه الوحدة: للتعرف على ذلك كله.

الأهداف التعليمية للوحدة الثالثة

عزيزي الدارس:

يرجى بعد دراسة هذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن:

١- تبيّن مفهوم ثقافة التنفيذ.

٢- توضّح الارتباط بين ثقافة التنفيذ والاستقامة كمفهوم إسلامي.

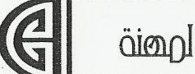
٣- تعرف أثر فصل العمل عن الإيمان على الجانب الأخلاقي.

٤- تبيّن أهمية ثقافة التنفيذ ومدى الحاجة إليها في مجال التزام أخلاق المهنة.

٥- تذكر مقترحات عملية لتنمية الأخلاق المهنية.

٦- تحدّد خطوات سبر التزام العاملين بأخلاق المهنة.

٧- تذكر مقترحات معرفية لتنمية أخلاقيات العمل.



الطريق إلى أخلاق المهنة

أهمية ثقافة التنفيذ لأخلاق المهنة

التنبيه إلى أهمية أخلاقيات المهنة، وبيان مكانتها ومنزلتها العظيمة، وأثرها الكبير على الإتقان، والإنتاج، والثقة، والصدقية، أمر مهم، ومطلوب، بيد أن هناك ما هو أكثر أهمية وهو الحديث عن كيفية إيجاد أخلاق العمل فعلياً في واقع الحياة على افتراض أنها غير موجودة، أو كيفية تنمية أخلاق العمل، على افتراض أنها موجودة، ولكنها تحتاج إلى رعاية وتطوير، وتأكيد وتقوية.

و الحديث عن الكيفية يتجه نحو الوسائل التي تصب في حقل التطبيق وتخرج من مجرد مفاهيم الاعتراف بأهمية أخلاقيات العمل إلى الإطار التنفيذي، فإنه قَلَّ أن يوجد أحد – من العقلاء – ينكر أهمية أخلاق المهنة، وهذا وحده – رغم أهميته – لا يكفي، بل يجب الانتقال إلى مرحلة التنفيذ، وأن نبحث عن الوسائل الموصلة إليها، سواء أكانت (علمية نظرية)، أو (عملية تنفيذية)، وقبل الدخول إلى هذه الوسائل يحسن التنبيه إلى أمر له أهمية كبرى في هذا الحقل، وهو ما يعرف عند بعض الإداريين بـ (ثقافة التنفيذ).

ثقافة التنفيذ

التعريف: ثقافة التنفيذ مبدأ إداري يختص بكيفية تحويل المفاهيم، والمبادئ، والأخلاقيات، والقيم، والخطط، والاستراتيجيات، إلى نتائج وإنجازات[1].

التأصيل: يعرف مبدأ (ثقافة التنفيذ) في الإسلام باسم (الاستقامة)، أخذاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)، وقد تلا هذه الآية عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر ثم قال: "استقاموا والله

(١) انظر: النشرة الإدارية (خلاصات)، العدد (٢٣٣)، الصادر في سبتمبر، (٢٠٠٢)، ص١، المتضمن تلخيصاً لكتاب (ثقافة التنفيذ)، تأليف لاري بوسيدي، وزميله.

بطاعته، ولم يراوغوا روغان الثعلب"[1]، وقال ابن عباس: "استقاموا على أداء فرائضه"، وقال الحسن البصري: "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال"[2].

التاريخ: كان مبدأ (اقتران القول بالعمل) مستقراً عند المسلمين حتى حدثت متغيرات سلبية، أنتجت فرقة تسمى (المرجئة) تقول بفصل العمل عن الإيمان، وزعمت أنه يكفي الإنسان أن يتلفظ بالشهادتين، أو يعرف الله بقلبه فيصبح مؤمناً، ولو لم يعمل من الأعمال الصالحة شيئاً، أي بالمفهوم الإداري يكفي المدير والعاملين معه أن يعرفوا المفاهيم، والمبادئ، والخطط، والقرارات، واللوائح، ليصبحوا بذلك أكفاء ومتميزين، ولو لم يحوّلوا هذه الأمور إلى أعمال ومنجزات.

ويظهر أن هذا المفهوم الخاطئ الذي قالته المرجئة في تعريف الإيمان -حين جعلوه محصوراً في الإقرار القلبي أو النطق اللساني- تمدّد حتى وصل مع طول الزمن وتراكم العلل عند المسلمين إلى جوانب أخرى من حياتهم، ومنها الجانب الأخلاقي، وخاصة ما يتعلق منه بالعلاقات والتعامل والعمل.

ولذلك لا بد من تكثيف الجهد العلمي والعملي لترسيخ (ثقافة التنفيذ) بالمعنى الأشمل لهذه العبارة، وإذا كان الإنسان لا يستطيع تغيير أيامه الماضية فهذا لا يعني التوقف والاستسلام، ولكنه يوجب التغيير الإيجابي في أيامه الآتية.

الأهمية: مما يؤكد على أهمية (ثقافة التنفيذ) في ميادين الأعمال ما يلاحظ بوضوح في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية من كثرة الخطط، والاستراتيجيات، والقرارات، وقلة النتائج، وضعف الأداء، ورداءة المنجزات.

وقد أشار مؤلف كتاب (ثقافة التنفيذ) إلى هذه العلة بعد أن درس حالات فشل مدراء الأقسام وفرق العمل في الوصول إلى تحقيق الأهداف المحددة لهم، رغم كثرة الاجتماعات ووجود الخطط، وتوفير للمكافآت، ووضع مؤشرات قياس الأداء، والقيام بما ما توصي به كتب الإدارة، حيث قال: "بحثت عن سبب عدم تحول الخطط إلى نتائج، فاعتقدت أن الخطط تفشل بسبب ما فيها من أخطاء، لكن المشكلة لم تكن

(١) تفسير الطبري (٢٤/١١٤).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي (١/٨٠).

في التخطيط، بل في أننا نخطط للتخطيط، دون أن نخطط للتنفيذ، معظم المديرين يعتقدون أن مهمتهم تنتهي عند وضع بعض الأفكار والرسومات... وعرضها داخل غرف الاجتماعات، ثم يقولون للموظفين: وضعنا لكم الخطة وعليكم التنفيذ، ثم يقبعون في مكاتبهم بانتظار تحقق الأرقام المستهدفة للمبيعات، معتقدين أن هذا يكفي لتحويل الخطط إلى نتائج، فإذا ما غادروا مكاتبهم وصادفوا إحدى المشكلات التنفيذية فإنهم يتجاهلونها كما لو كانت ستُحلّ من تلقاء نفسها، فإذا سألتهم لماذا لا يتصرفون، يخبرونك بأن هذه المشكلة لم تكن في الخطة، وأن حلها يحتاج إلى خطة جديدة داخل الخطة"[1].

وبعد أن يستعرض المؤلف المهام الإدارية الأساسية وهي (التخطيط، والتنظيم، والتوظيف، والتوجيه، والرقابة) يجد أن المهمة الرابعة التي هي (التوجيه) الشاملة للحفز والاتصال والقيادة العملية والقدوة التطبيقية هي أكثر المهمات تعرضاً للتجاهل والإهمال، في حين أن التخطيط والرقابة يتم التركيز عليهما، وهي ذات طابع ذهني وفكري[2]، ثم يخلص إلى أن "الثقافة التنفيذية هي المسؤولة عن نجاح أو فشل الخطط... ويعتبر التركيز على المهام الإدارية الذهنية خطأ قاتلاً... فإذا أردت أن تحوّل النتائج المستهدفة إلى نتائج محققة فعليك بالتحول من القيادة الذهنية إلى القيادة التنفيذية"[3].

وما دمنا نشتكي من ضعف أخلاقيات العمل، ونؤكد دائماً على أهميتها، فإننا ما زلنا في مرحلة التنظير المثالي، ولقد حان الوقت – إن كنا جادين في قضيتنا هذه – لندرك أن جمال الأخلاقيات، ودقة اللوائح والنظم والخطط، لا تكفي في الوصول إلى الإتقان والانجاز المتميز، ما لم تتحول إلى ثقافة تنفيذية، تحتوي في داخلها على المهارات العملية للتنفيذ، وهذا أمر قد خدمته الكتب الإدارية، ووصفت الطرائق العملية لتنفيذ وإتمام المهمات، والقرارات، والأمور التي يهتم الإنسان بوضعها على أرض الواقع العملي[4].

(١) نشرة (خلاصات)، العدد (٢٣٣)، سبتمبر (٢٠٠٢)، ص١، المتضمن تلخيصاً لكتاب (ثقافة التنفيذ)، تأليف لاري بوسيدي، وزميله.

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص ٢-٣).

(٤) انظر: مهارات التنفيذ، لتشاك مارتن، ملخصاً في النشرة الإدارية (خلاصات)، عدد (٣٥٠)، يوليو (٢٠٠٧)؛ وضع نقاط قوتك موضع التنفيذ، لماركوس باكنجهام، ملخصاً في (خلاصات)، عدد (٣٤٨)، يونيو (٢٠٠٧).

وبعد الإشارة إلى أهمية ثقافة التنفيذ وتعلق نجاح أخلاقيات العمل بها، يمكن اقتراح جملة من الطرائق العلمية والعملية التي يمكن من خلالها ترسيخ أخلاقيات العمل في المنظمات الرسمية وغير الرسمية.

ثانياً: مقترحات عملية لتنمية الأخلاق المهنية

١- العناية بأخلاق القيادات

إن القيادة – أياً كان مستواها – هي في الأصل مهمة اجتماعية، يجب على صاحبها أن يتخلى عن النقائص الأخلاقية المتعلقة بشخصه أو بعمله، كما يجب عليه أن يتحلى بأرقى الأخلاقيات الشخصية والمهنية في العمل الذي يقوم به.

ومن هنا ينبغي الاهتمام الكثيف والدقيق بأخلاقيات (النخب القيادية) الرسمية وغير الرسمية؛ لأن عامة الناس والعاملين والموظفين يرون في المدراء والرؤساء والوجهاء نموذجاً قابلاً للاحتذاء، فإذا كانوا واقعين في الرذائل فسوف يكونون سبباً للنمو السرطاني لتلك الرذائل، وأي توجيهات أو نصائح أخلاقية ستبقى قليلة الأثر في الناس ما داموا يرون خلافها في هؤلاء القادة والكبراء، ولعل من أظهر شواهد هذا الأمر، تذرع الفاسدين مالياً بدعواهم أن المال العام مسروق منهوب، فلماذا هو حلال لهم وحرام علينا؟ وترديدهم المثل السلبي القائل "إذا كان مال أبيك منهوباً فانهب مع الناهبين"!!.

ومن الملاحظ أن التناقض بين سلوك المجتمع في حياته الخاصة وحياته العامة آخذ في التزايد رغم ارتفاع معدلات التعليم والتدريب والتحديث، ووفرة أجهزة التقنية الحديثة، ولعل من أظهر أسباب ذلك وجودُ الفساد في النخب في البلاد العربية والإسلامية، التي يعطي فسادها الوظيفي والإداري إشارة للناس بأن مجال الحياة العامة لا تنطبق عليها القيم الأخلاقية، بل توحي بأن الإيمان بأخلاقيات العمل هو من قبيل الفضائل التي قد تضرّ صاحبها وتفوّت عليه منافع ومصالح شخصية كثيرة وكبيرة.

إن أهم خطوة تنفيذية في تطبيق أخلاقيات العمل هي إلزام ومراقبة ومحاسبة أصحاب المسؤوليات؛ لأنهم قدوات، متى صلحوا صلح من تحتهم غالباً، ومتى تُرك الحبل على الغارب لهذه الفئة، وأصبحوا في

حصانة عن المساءلة والمحاسبة فإن الخسارة ستستمر، والعرف الأخلاقي الفاسد سيجد له سنداً معنوياً، والمضمون الإيحائي السلبي لأخلاقيات العمل الفاسدة سوف يسري بصورة وبائية غير منظورة حتى يصبح عادة وعرفاً.

والمشكلة الكبرى هنا أنه كلما علت مرتبة الإنسان خفّت المراقبة عنه، وشعر هو شخصياً بالتمكن والمقدرة والكفاءة، وخاصة إذا أوجد حوله بعض من ينافقه من ذوي المصالح، ولذلك يجب عليه – شخصياً – وعلى المنظمة والمجتمع زيادةُ أسباب صحوة الضمير والوجدان الأخلاقي في الإداري، حتى يصبح ذلك وازعاً ذاتياً، ودافعاً داخلياً، مع توفير قنوات وأنظمة للمراقبة والمحاسبة؛ إذ السلطة المطلقة فساد مطلق.

٢- الإقناع العملي بأخلاقيات المهنة

ونعني به: بناء المطالب الأخلاقية للعمل على (صدقية)[1] قوية تقنع المتلقي لها وتجعلها محل ثقة وقبول، كإسنادها إلى شخصية ذات مكانة، أو مصدر محترم، أو تجربة مؤكدة، أو إحصائيات حقيقية، أو إسنادها إلى قابلية الفحص والتأكد.

كحديث "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[2]. أي كما يقول المبدأ التسويقي "جرّب قبل أن تقتني".

ويمكن إسناد المطالب الأخلاقية إلى التميز والتفرد، أو إلى المتميزين والعظماء والشخصيات المشهورة ذات القابلية والإلهام.

٣- تجسيد جدوى أخلاقيات المهنة

من المهم ربط أخلاق العمل بالعواطف الموجودة في الإنسان؛ لأنها طريق إلى تحفيز الاهتمام وتحريك الإرادة والمشاعر، فلكي نثير اهتمام العاملين بأخلاقيات معينة علينا أن نربطها بشيء آخر

(١) كثيراً ما يعبر عنها بالمصداقية.

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (١٩)؛ ومسلم، حديث رقم (١٧٤).

يهتمون به حقيقة، وهنا يمكن استعمال مبدأ (النفعية) و(الذاتية) والتركيز على الفوائد الحقيقية والمنافع المعقولة التي ستعود على الشخص عند التزامه أخلاق مهنته؛ لأن حب الإنسان لذاته وما ينفعه شيء فطري موجود في كيانه، فإذا اقتنع بأن خلقاً مّا أو فكرة مّا هي نافعة له ومفيدة اهتم بها وحرص عليها.

٤- التحفيز على التزام أخلاق المهنة

إن أخلاقيات العمل يمكن ترسيخها وتقويتها ونشرها من خلال عنصرين مهمين أحدهما معنوي وهو: (التقدير)، والثاني مادي وهو: (المكافآت)، وهما يحققان حاجة إنسانية راسخة في الوجدان، أهم وأعمق أثراً من بنود التعاقد الوظيفي، لأنها تتعامل مع محفزات ذاتية موجودة في الفطرة البشرية.

أما الأول: وهو التقدير المعنوي، كعبارات الثناء والإطراء غير المتكلف، فإن له دوراً مهماً في دعم وتشجيع العاملين أصحاب التميز الأخلاقي، سواء كان ذلك من قبل العملاء أو الزملاء، وتزداد الأهمية والتأثير إذا جاء الثناء من ذوي المكانة والوجاهة، وأهم من هؤلاء جميعاً حينما تأتي عبارات التحفيز وكلمات التشجيع من المدراء المباشرين.

ومما يؤسف له أن بعض المدراء يستخدمون أسلوب التقدير المعنوي كعبارات الثناء والإطراء في حق الموظفين المُسمّين أخلاقياً، مثل أصحاب الوشاية والتجسس ونقل الأخبار عن الموظفين الآخرين، وهذا مما يشجّع الخلق الرديء، ويساعد على انتشاره، وتهيئة الجو المناسب للضمائر الخربة، بل ولتخريب الموظفين الجيدين، وهو ما حذّر منه النبي ﷺ في قوله: "**إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ**"(١)، وقوله ﷺ: "**إِنَّ الأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ**"(٢).

أما المحفز الثاني: فهو (المكافآت) المادية، كالترقيات، وتولية بعض الأعمال، والعلاوات المالية، وإعطاء إجازات، وانتدابات، ونحو ذلك.

وهذا النوع من التحفيز له أثره الإيجابي في ترسيخ الأخلاقيات وإشاعتها إذا استُعمِل بوجه صحيح ودقيق، وإلا أدّى إلى التحاسد والتباغض والرياء، وانتشار الغيرة المذمومة بين العاملين.

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٨٩٠).

(٢) رواه أبو داود، حديث رقم (٤٨٩١).

وإذا أُهمل هذا الحافز أدى إلى تساوي الجيد مع الرديء، والملاحظ – كما تذكر بعض الإحصائيات الإدارية – أنه " في إحدى الشركات سئل الموظفون عما يستحقونه من أجور، وكانت المفاجأة الكبرى أن الموظّفين المتميزين حدّدوا سقفاً منخفضاً لرواتبهم، في حين شطّ الموظفون غير الأكفاء، وبالغوا في تقدير أنفسهم بشكل مفرط ومثير للغيظ"(١)، وفي هذا دلالة على أن أصحاب التميز الأخلاقي في العمل ينطلقون – غالباً – من قناعة ذاتية، وقيمة معنوية، قد لا يرون أنها قابلة للتثمين المالي. ولكن هناك أوجه أخرى للحوافز المادية غير المال كالترقية الوظيفية، وإن كانت تستتبع زيادة الأجر، ولذلك فمن حق الموظفين في أي مؤسسة أن يعرفوا معايير وضوابط الترقيات، التي يجب أن تكون أخلاقيات العمل في قمتها، ويمكن التوصية في هذا المقام بالاحتفاظ بالوظائف الجيدة للعاملين المتميزين أخلاقياً ومهنياً، والموازنة بين عمل الموظف وأخلاقياته، ومكافأة الموظفين المتميزين أخلاقياً وعملياً.

٥- إيجاد نظم ولوائح لأخلاق المهنة

هناك حاجة ماسة لسبر التزام العاملين بأخلاق المهنة بطريقة علمية عملية، ومحاسبة من يُخل بأخلاق المهنة، وليكن ذلك بتدرج مقصود، كما في الخطوات المقترحة التالية:

الخطوة الأولى: البدء بطريقة لفت النظر الهادئة بأسئلة مثل:

أ- لقد هبط مستوى إنجازك، فهل هناك ما يزعجك أو يشغلك؟

ب- هل يمكنك أن تصف لي طبيعة عملك وعلاقته بالجمهور؟

ج- هل اطلعت على أخلاقيات المهنة في مؤسستنا هذه؟

د- هل هناك ما يحول دون إنجازك العمل بإتقان وجودة؟

هـ- هل سبق أن توفرت لديك آليات وطرق التعامل والأداء الجيد والمتميز؟

و- هل تتذكر متى آخر مرة تم فيها تقييم أدائك العملي؟

الخطوة الثانية: توجيه خطاب للموظف يتضمن لغة تعتمد الحث والتذكير والتنبيه.

الخطوة الثالثة: توجيه إنذار خطي للموظف، يتضمن العقوبات المترتبة على سلوكه.

(١) نشرة (خلاصات)، العدد (٣٤٠)، فبراير (٢٠٠٧)، محرم ١٤٢٨هـ.

الخطوة الرابعة: عند تكرار الممارسات المخلة بأخلاقيات العمل، أو عند حصول إخلال كبير بها مثل الرشوة، حينئذ تطبق عقوبة الفصل أو التشهير، أو هما معاً لتكون رادعة لذوي النفوس الضعيفة.

وينبغي التنبه هنا إلى أن المحاسبة والعقوبة أو التهديد بها يجب أن تكون خاصة في حق المذنب، ولا يصح استعمالها بشكل جماعي، وهي في كل الأحوال ليست إلا للردع، والتهذيب، والحماية، وقد تُولد عند الإفراط فيها أخلاقيات زائفة، وتقل درجة التزام الموظفين تجاه العمل والمؤسسة التي يعملون فيها، ويفقدون حماسهم، ويشعرون برغبة أكبر في التخريب والأذى، كما أن عدم استعمالها مطلقاً سوف يولّد الفوضى والإهمال، ويجعل الأسوياء يخسرون في مقابل ربح غير الأسوياء، فلا بد حينئذ من الحكمة والذكاء في استعمال العقوبات أو التهديد بها.

مقترحات معرفية لتنمية أخلاق المهنة

١- معرفة مكانة الأخلاق في الإسلام، والترغيب فيها بمعرفة أجرها وثوابها، وإدراك نفعها وجدواها.

٢- إدراك الأولويات الأخلاقية لكل عمل ومهنة وترتيبها حسب الأهمية؛ فإن هذا الإدراك العلمي المعرفي خطوة أولى في الطريق الطويل لتثبيت أخلاقيات العمل، وبدون وجود هذه الخطوة سيبقى الأمر معلقاً في فضاء المثاليات الحالمة.

٣- وضع أبواب خاصة عن أخلاقيات كل مهنة ضمن الشعارات والنظم واللوائح، سواء في المؤسسات الحكومية أو الخاصة، وإطلاع جميع العاملين عليها وإلزامهم بها.

إن المعرفة النظرية أمر مهم، والدراية المهنية تقوم – أصلاً – على ما ينبغي عليك أداؤه، وما يجب أن تمتلكه من صفات، فإذا عرف المدير والموظف ما يجب عليه القيام به، دون أن يعرف ما يجب أن يتصف به من أخلاق، وقع الخلل وتعثرت الأعمال، مثلما لو عرف السمات الشخصية اللازمة للعمل دون أن يعرف ما الذي عليه أن يعمله.

ولكي تصبح هذه (الدراية الأخلاقية) حاضرة وأصيلة في الوجدان الشخصي المهني والمؤسسي لا بد من ترسيخها نظرياً ومعرفياً؛ لتحويل المبادئ والأفكار والشعارات الجيدة من شيء عابر إلى شيء

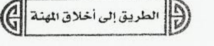
ثابت، ومن معلومة نظرية إلى فكرة راسخة في الداخل الإنساني، ويمكن هنا اقتراح عدة صيغ وأفكار وشعارات تجعل المتلقي لها: ١- ينتبه، ٢- يتفهم، ٣- يتذكر، ٤- يصدق ويوافق، ٥- يهتم، ٦- ينفذ ما اقتنع به.

٤- اختصار التعليمات الأخلاقية: فالتركيز والاختصار في صياغة أخلاق المهنة مهم؛ لتسهيل فهمها وتثبيتها، ولترسيخ فكرة عميقة ومهمة (كأخلاقيات العمل) يجب أن تكون ضمن عبارات قصيرة ذات معان كثيرة، والمقصود هنا الإيجاز غير المخل، بحيث تكون التعليمات واضحة، وفي صميم الجوهر الأخلاقي، وبعبارات قليلة.

٥- تحديد المطلب الأخلاقي، وتخليصه مما يشوبه، ثم تجزئته – إذا أحوج الأمر – إلى عناصر (بسيطة) غير معقدة ولا موهمة.

٦- صياغة أخلاقيات العمل بطريقة حية ملموسة؛ وذلك لأن المبادئ والأخلاقيات ذات طبيعة تجريدية (ذهنية) قد يصعب تذكرها أو فهمها، وعموم الناس تميل إلى تذكر الأمور الحسية وفهمها..

كأن نقول مثلاً: "عندما نعرف لماذا نعمل بأمانة، يمكننا بالمثابرة أن نعرف كيف نعيش حتى في أحلك الظروف، أو كيف نستمتع بالحياة حتى في أصعب المواقف"، أو نقول: "الصبر يعني وجود أمل، كما يعني منظر النخيل في الصحراء وجود واحة"، أو نقول : "الأخلاق كالشجرة، والسمعة كالظل، والبعض يبحث دوماً عن الظل وينسى الأساس وهو الشجرة".



خلاصة الوحدة الثالثة

أهمية ثقافة التنفيذ لأخلاق المهنة

التنبيه إلى أهمية أخلاقيات المهنة، وبيان مكانتها ومنزلتها العظيمة، وأثرها الكبير على الإتقان، والإنتاج، والثقة، والصدقية، أمر مهم، ومطلوب، بيد أن هناك ما هو أكثر أهمية وهو الحديث عن كيفية إيجاد أخلاق العمل فعلياً في واقع الحياة على افتراض أنها غير موجودة، أو كيفية تنمية أخلاق العمل، على افتراض أنها موجودة، ولكنها تحتاج إلى رعاية وتطوير، وتأكيد وتقوية.

ثقافة التنفيذ

التعريف: ثقافة التنفيذ مبدأ إداري، يختص بكيفية تحويل المفاهيم، والمبادئ، والأخلاقيات، والقيم، والخطط، والاستراتيجيات، إلى نتائج، وإنجازات.

التأصيل: يعرف مبدأ (ثقافة التنفيذ) في الإسلام باسم (الاستقامة).

التاريخ: كان مبدأ (اقتران القول بالعمل) مستقراً عند المسلمين، ثم ظهر قول المرجئة بفصل العمل عن الإيمان، الذي أدى إلى التأثير السلبي على الجانب الأخلاقي.

الأهمية: حيث نلاحظ كثرة الخطط، والاستراتيجيات، والقرارات، وقلة النتائج، وضعف الأداء، ورداءة المنجزات، بسبب عدم وجود ثقافة التنفيذ.

وقد أكد الباحثون المتخصصون أن مهمة (التوجيه) الشاملة للحفز والاتصال والقيادة العملية والقدوة التطبيقية هي أكثر المهمات تعرضاً للتجاهل والإهمال، في حين أن التخطيط والرقابة يتم التركيز عليهما، وهي ذات طابع ذهني وفكري.

والثقافة التنفيذية هي المسؤولة عن نجاح أو فشل الخطط... والتركيز على المهام الإدارية الذهنية خطأ قاتل...

وإن جمال الأخلاقيات، ودقة اللوائح والنظم والخطط، لا تكفي في الوصول إلى الإتقان والانجاز المتميز، ما لم تتحول إلى ثقافة تنفيذية، تحتوي في داخلها على المهارات العملية للتنفيذ.

مقترحات عملية لتنمية الأخلاق المهنية

١- **العناية بأخلاق القيادات:** لأن عامة الناس والعاملين والموظفين يرون في المدراء والرؤساء والوجهاء نموذجاً قابلاً للاحتذاء، فإذا كانوا واقعين في الرذائل فسوف يكونون سبباً للنمو السرطاني لتلك الرذائل، وأي توجيهات أو نصائح أخلاقية ستبقى قليلة الأثر في الناس ما داموا يرون خلافها في هؤلاء القادة والكبراء.

٢- **الإقناع العملي بأخلاقيات المهنة:** ونعني به بناء المطالب الأخلاقية للعمل على صدقية قوية تقنع المتلقي لها وتجعلها محل ثقة وقبول، كإسنادها إلى شخصية ذات مكانة، أو مصدر محترم، أو تجربة مؤكدة، أو إحصائيات حقيقية، أو إسنادها إلى قابلية الفحص والتأكد.

٣- **تجسيد جدوى أخلاقيات المهنة:** فلكي نثير اهتمام العاملين بأخلاقيات معينة علينا أن نربطها بشيء آخر يهتمون به حقيقة، بالتركيز على الفوائد الحقيقية والمنافع المعقولة التي ستعود على الشخص عند التزامه أخلاق مهنته.

٤- **التحفيز على التزام أخلاق المهنة:** من خلال عنصرين مهمين، أحدهما معنوي وهو: (التقدير)، والثاني مادي وهو: (المكافآت)، وهما يحققان حاجة إنسانية راسخة في الوجدان، أهم وأعمق أثراً من بنود التعاقد الوظيفي، لأنها تتعامل مع محفّزات ذاتية موجودة في الفطرة البشرية.

أما الأول: وهو التقدير المعنوي، كعبارات الثناء والإطراء غير المتكلف. وأما المحفز الثاني: فهو (المكافآت) المادية، كالترقيات، وتولية بعض الأعمال، والعلاوات المالية، وإعطاء إجازات، وانتدابات، ونحو ذلك.

٥- **إيجاد نظم ولوائح لأخلاق المهنة:** فهناك حاجة ماسة لسبر التزام العاملين بأخلاق المهنة بطريقة علمية عملية، ومحاسبة من يُخل بأخلاق المهنة، وليكن ذلك بتدرج مقصود، على النحو التالي:

الخطوة الأولى: البدء بطريقة لفت النظر الهادئة بأسئلة غير مباشرة.

الخطوة الثانية: توجيه خطاب للموظف يتضمن لغة تعتمد الحث والتذكير والتنبيه.

الخطوة الثالثة: توجيه إنذار خطي للموظف، يتضمن العقوبات المترتبة على سلوكه.

الخطوة الرابعة: تطبيق عقوبة الفصل أو التشهير، أو هما معاً لتكون رادعة لذوي النفوس الضعيفة.

مقترحات معرفية لتنمية أخلاق المهنة

١- معرفة مكانة الأخلاق في الإسلام، والترغيب فيها بمعرفة أجرها وثوابها، وإدراك نفعها وجدواها.

٢- إدراك الأولويات الأخلاقية لكل عمل ومهنة وترتيبها حسب الأهمية.

٣- وضع أبواب خاصة عن أخلاقيات كل مهنة ضمن الشعارات والنظم واللوائح، وإطلاع جميع العاملين عليها وإلزامهم بها. وينبغي أن تكون صيغ الأفكار والشعارات بحيث تجعل المتلقي لها: ينتبه، ويتفهم، ويتذكر، ويصدق ويوافق، ويهتم، وينفذ ما اقتنع به.

٤- اختصار التعليمات الأخلاقية، بحيث تكون ضمن عبارات قصيرة ذات معان كثيرة، والمقصود هنا الإيجاز غير المخل، بحيث تكون التعليمات واضحة، وفي صميم الجوهر الأخلاقي، وبعبارات قليلة.

٥- تحديد المطلب الأخلاقي، وتخليصه مما يشوبه، ثم تجزئته – إذا أحوج الأمر – إلى عناصر (بسيطة) غير معقدة ولا موهمة.

٦- صياغة أخلاقيات العمل بطريقة حية ملموسة؛ وذلك لأن المبادئ والأخلاقيات ذات طبيعة تجريدية (ذهنية) قد يصعب تذكرها أو فهمها، وعموم الناس تميل إلى تذكر الأمور الحسية وفهمها.

المحتويات

الصفحة

كلمة المشرف العام ٥

المقدمة ٧

القسم الأول: الأخلاق والأعمال في الإسلام

الوحدة الأولى: الأخلاق ... حضارة الإنسان ١١

معنى الأخلاق لغة واصطلاحاً ١٥

مفهوم الأخلاق الإنساني والحضاري ١٨

الوحدة الثانية: الأخلاق ... رسالة الإسلام ٢٣

صلة الأخلاق بالإيمان ٢٨

صلة الأخلاق بالعبادات ٣٢

صلة الأخلاق بالمعاملات ٣٦

الأخلاق بين المسؤولية والجزاء ٤١

الوحدة الثالثة: صناعة الأخلاق ومحفزاتها ٥٣

مظاهر ودلائل الأخلاق ٥٩

محفزات الأخلاق ٦٢

خصائص الأخلاق في الإسلام ٦٩

الوحدة الرابعة: العمل شرف وعبادة ٧٧

مفهوم الاستخلاف في الأرض ٨١

العمل في المفهوم الإسلامي ٨٢

القسم الثاني: أخلاق المهنة بين الحاضر والماضي

الوحدة الأولى: أخلاق المهنة في العصر الحديث ٩٥

أثر الأخلاق في بيئة الأعمال ٩٩

مظاهر العناية بالأخلاق في قطاع المهن والأعمال ١٠٠

أسباب العناية بأخلاق المهنة ١٠١

مفهوم أخلاق المهنة ١٠٣

مواصفات ومزايا مواثيق أخلاق المهنة ١٠٩

نماذج من مواثيق أخلاق المهنة المعاصرة ١١٠

الوحدة الثانية: أخلاق المهنة في التاريخ والحضارة الإسلامية ١١٩

العناية بتدوين أخلاق المهن المختلفة ١٢٣

الشمول والتصنيف في أخلاق المهنة ١٢٤

نظام الحسبة وأخلاق المهنة ١٢٩

مزايا أخلاق المهنة في المنظور الإسلامي ١٣٩

القسم الثالث: أخلاق المهنة الأساسية والتخصصية

الوحدة الأولى: أخلاق المهنة الأساسية ١٤٧

أخلاق المهنة الأساسية، أصولها، وأهميتها، وترابطها ١٥١

البيان التفصيلي لأصول أخلاق المهنة ١٥٥

الأخلاق الأساسية الأربعة: معناها، وأهميتها، وآثارها، وعلاقتها بالوظائف والأعمال ١٦٠



خلق القوة ١٦١

خلق الأمانة ١٦٤

خلق الحفظ ١٦٩

خلق العلم ١٧٣

الوحدة الثانية: أخلاق المهن التخصصية ١٨١

العلاقة بين النظم واللوائح، والمعايير الأخلاقية في الأعمال ١٨٥

الفرق بين المسؤولية النظامية القانونية والمسؤولية الأخلاقية ١٨٥

الإدارة الأخلاقية ١٨٧

نماذج من أخلاق المهنة التخصصية ١٨٨

الوحدة الثالثة: الطريق إلى أخلاق المهنة ٢٠٣

أهمية ثقافة التنفيذ لأخلاق المهنة ٢٠٧

مقترحات عملية لتنمية الأخلاق المهنية ٢١٠

مقترحات معرفية لتنمية أخلاق المهنة ٢١٤

تصميم وإخراج

الأهداف الذهبية

دعاية وإعلان - تنظيم معارض ومهرجانات

Tel. 02 6444 300

info@goldenobjectives.com

www.goldenobjectives.com

